عائنة أم البشرة الداكنة

اســـــم العمـــــل	:	عائنـــة أم البشـــرة الداكنـــة
النـــــــــوع	:	روايـــة أدبيـــة تاريخيـــة
تـــــــــأليف	:	عمـــــــر محمـــــــود
تصـــميم الغـــلاف	:	إســـــــلام الـــــــبلاط
إخـــراج داخلـــي	:	عبـــــدالقادر فـــــايز
الطباعـــــــــة	:	اتيليـه تـاتش – المحروسـة
الناشـــــــــر	:	الـــدار للنشـــر والتوزيـــع
المـــدير العـــام	:	محمـــد صـــلاح مـــراد
تليفـــــــــون	:	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريـد الإلكترونـي	:	eddar_press@yahoo.com
فـــيس بـــوك	:	www.facebook.com/eldarpublish
رقـــم الإيـــداع	:	٢٠١٦/٢٣١٨٦
التـــرقيم الـــدولي	:	I.S.B.N.: 978-977-702-616-6

عائنة أُم البشرة الداكنة

روايـــــة

عمر محمود

الدار
للنشـــر والتوزيـــع

٢٠١٦

جدة، السعودية، الجمعة ٢٠ يونيو ٢٠٠٨

- كل عام وأنت في خير وسرور يا شريف.. أريدُ أن أقول لكَ دكتور شـــريف، فجرت العادة ان ننادي كل من إلتحق بالكليات الطبية بلقب «دكتور». هكذا هنأني أبي بعيد ميلادي بصـــوته الجهوري وهو يجلس أمامي على الكنبة في المنزل مرتديا البذلة الكاملة وبنفس الوقار الذي يجلس به على مكتبه في المستوصف.

- وأنت بألف خير يا أبي.

ثمانية عشـــر عاما مضـــت من عمري دون أن أدري.. كيف يمكن أن تمضـــي الســـنوات بهذه الســـرعة وتمر الســـاعات والأيام ببطء هكذا كما تَمُر أخر أيامي في جدة. كانت سـعادتي لا توصـف؛ أخيراً سـأعود إلى مصـر وأقوم بتوديع أسـرتي وأتحرر من قيود مجتمع السـعودية المغلق الذي يمنع الإختلاط بين الجنســين، هذه أصـــبحت هاجســـي ورغبتي الوحيدة.

تلك الإشـارة استوقفتني وجعلت صـبري ينفد بسـرعة قبل أن تأتي اللحظة التي سـأسـافر فيها إلى مصـر لكي أتمَّ دراستي الجامعية هناك. حصـلت على معدل عالٍ في شـــهادة الثانوية وأعلى نســـبة في امتحان القدرات

حتى بعد معادلة مجموع الثانويه العامة من السعودية فى مصر، فمجموعي بكل تأكيد يسمح لي بدخول كلية الطب – جامعة القاهرة. إلا أنها في الواقع لم تكن من أحلامي ولكني عزمت على دخولها تأثراً برغبة والدي الدكتور شهاب الشنبوري لكونه طبيب مسالك بولية يعمل في السعودية قبل أكثر من عشرين عاماً. من حقه أن يتفاخر ويتباهى أمام زملائه في الدوام بأن ابنه الوحيد التحق بكلية الطب وإنه لمن المعيب بالنسبة له ألا أكون طبيباً وأكمل المشوار من بعده، حاله كحال معظم الآباء الأطباء الذين يصرون على إستمرار أبنائهم في مهنتهم على إعتبار أنها مازالت تحافظ على ترتيبها في أعلى سلم المكانة الإجتماعية في مجتمعنا على الرغم من أن كثيرا من المهن قد تغيرت مواقعها على السلم. لطالما كان أبي بمثابة النموذج المثالي لي. أبي رجل تقليدي للغاية وكلاسيكي إلى أبعد حد، جاد وحازم ولا يعرف المرح، اصلع ويشبه تماماً شخصية الدكتور في جميع أفلام الكرتون التي كنت اشاهدها وأنا طفل. كان يريدني أن أتخِذه قدوة لي في المجال الذي من الممكن ان أعمل فيه ولكني لا اشعر أني سأبدع فيه. وكإبن مدلل لعائلة محبة كعائلتي، كان من البديهي عدم مراجعتي حتى او التأكد من رغبتي بعد النجاح الباهر الذي حققته بالثانوية العامة وتمت فقط مناقشة سريعة بيني وبين أبي وبدون أدنى جهد في

إقناعي بدخول كلية الطب لأنني لم اكن أدري ولا اســـتطيع ان أحدد ما هي رغبتي الحقيقية وما يناسبني من الأساس وكإنسان داعبته كل الأحلام الوردية المشـــروعة بتغيير الكون، كانت طموحاتي الخيالية تتعلق فقط أنني يوماً ما ســـأغير هذا الكون لكن دون التوصـــل إلى الـــــ"كيف". صحيح ان مهنة الطب من أنبل المهن على وجه الأرض لكنها مهنة تتطلب برود أعصاب شديدا وأنا لا أستطيع الحفاظ على برودة أعصـابي عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع الألم البشـري والدم. وتتطلب أن تمارسـها في مكان مغلق، وأنا شـخص منطلق جداً واكره الأماكن المغلقة. وأما عن ميزة إضـــافة لقب «دكتور» قبل اســـمي، فهذا شئ لا يعنيني على الإطلاق ولكن ما باليد حيلة.

أبي تزوج من أمي مدام «ملامس» لتكون ربة منزل. واتفق مع أهلها أنها سوف تقيم معه في السعودية. في البداية بدأت أمي بالضيق من حياة الغربة بل وطلبت من أبي اكثر من مرة العودة إلى مصـــر بحجة أنها لا تحتمل المعيشـة بمفردها بعيداً عن أهلها ولا تسـتطيع التأقلم في مجتمع السعودية رغم محاولاتها المستمرة على التعايش هناك، وكررت طلبها وأصـــرت حتى وافق أبي ونزلت في إجازة ولم تعد مرة أخرى للإقامة مع أبي بالســـعودية رغم رفضـــه الأمر في بدايته.. التحقتُ

بمدرسة أبناء الغد المشرق الإعدادية الخاصة بالقاهرة وكان أبي يقضي إجازة سنوية معنا لا تزيد عن ثلاثة أشهر منفصلة. حتى توفي جدي والحقت به جدتي؛ تسآقطوآ كأوراق خريف واحدة تلو الآخرى ولم يبق لـ أمي أحد في مصر وتغير الحال مائة وثمانين درجة. عدنا إلى السعودية في يوم مشئوم يذكرني دائما بما خسرته من حياة إجتماعية كنت اتمتع بها في مصر. ودخلت مرحلة الثانوية العامة هناك وأصبحت أمي نفسها هي من تُصر على العيش مع أبي في السعودية وترفض العودة لمصر وتراوحت الأسباب حول الأوضاع المعيشية الصعبة في مصر وبعدها عن أبي بما فيه الكفاية. وبدأت أمي تتحدث مع أبي في هذا الشأن منذ بداية العام الدراسي الأخير لي في المرحلة الثانوية واحسست انهما قد اتفقا على أن يمنحوا لي الفرصة أن أسافر إلى مصر وأعيش بمفردي في بيت العائلة بألماظة وتشجع أبي لهذه الفكرة كثيراً ظَنَّاً بأنه بذلك يعلمني كيف أكون رجلًا وأعتمد على ذاتي. فسمعتهم مرة يتهماسون عني:

- أدركت خطئي يا ملامس في عدم تدريب شريف على الإعتماد على الذات..
- ولكن شريفا مازال صغيراً يا شهاب..

- إبنك المدلل أصـــبح رجلاً وعليه ان يحمل أعباء الدنيا على عاتقه. فوداعًا للإعتماد على الآباء.. ثم إن شريفا مختلف.. هل تذكرين عندما كان طفلًا يا ملامس؟ كنا نســـميه «عبقرينو» ونتفاجأ عندما نتحدث معه فنجده يرد كـــشاب في العشرينات. ذكاءه جعله صارماً للغاية. هذه الصرامة تجعله دائماً شخصية صعبة وعنيدة. كان يجب ان نتعامل معه بحزم أكثر من ذلك.

- ما يقلقني عليه يا شـــهاب أن شـــخصـــيته غريبة وتجمع بين المتناقضـــات.. فيبدو عليه الذكاء الشـــديد احياناً والســـذاجة في بعض الأوقـات الأخرى.. بـداخلـه الكثير من الحزن غير المبرر وفي نفس الوقت طموحه وآماله ليس لها سـقف، كما تظهرعليه القوه والحسـاسـية معاً.

كادت حياتهم الزوجية تنهار اكثر من مرة بســبب تقصــير أمي المدللة في واجباتها المنزلية من طهي وتنظيف وعدم عنايتها بي وإعتمادها في كل شئ على الخادمة الفلبينية او السيرلانكية التي أصبحت عملياً هي مدبرة المنزل الحقيقية. وعلى أية حال إذا كانت أمي رافقتني إلى مصر، فلم تكن لتضيف أي شئ سوى المزيد من القيود ولذلك كنت أفضل أن

أعيش مغامرتي هناك بمفردي. أمي كانت تبدو وكأنها إمرأة ثلاثنية من شدة إعتنائها بنفسها ومظهرها الذي لا تهتم بشئ إلا به.

كانا يحرصـــان دوماً بأن يفاجئآني يوم عيد ميلادي ويجلبان الإبتســامة إلى وجهي بطريقة مدهشة ما.

- هاااا يا بطل ما الذي تتمناه مع إطلالة عامك الثامن عشر؟

- بصـــراحة يا أبي أنا لم أعرف او أتحدث مع أى فتاة منذ فترة طويلة ولذلك يتملكنى شعور نحو الجنس الآخر بطريقة غريبة !

- ابي يصرخُ بعصبيةٍ ويقول بلهجة غاضبة: شعور بالجنس؟

- لا يا أبي ليس كما تظن، إنما أريد فقط أن اشـــعر بالحب والحنان. كل ما اتمناه هو قضـــاء بعض الوقت برفقة فتاة لعلي بذلك أُشبع رغبتي ولا يصيبني الحزن.

- قالت امي بلهجة عتاب: ألا يكفيك حبي وحناني يا شريف؟.. هل قصـرنا معك بشـيء يا بني؟ ثم نظرت كعادتها تشـكُوني له: كنت دائماً أخشى ذلك اليوم يا شهاب.

- يا أمي أغرقتني بفيض حنانكِ أيتها المحبة الصَادقَة. بلا شك أنا أحبك وأحب والدى ولكني أريد حباً آخر من نوع آخر؛ لا اعرف ما هو ولم اشعر به من قبل. أريد أن اشعر بالطمانينة والإستقرار والاهتمام من فتاة في عمري. لكم منى جزيل الشكر على كل ما قدمتموه لي ولكن الوحدة تقيدني.. تخنقني.. تقتلني وتحتل كل جزء من قلبي. لازلت أشعر بالغربة الخانقة.. بالوحدة المريرة وكأني إنسان شارد يعيش بمفرده ولا أحد معه فوق شبة الجزيرة العربية الخالية من البشر.

رد أبي بلهجة ليست سريعة بل بطيئة الايقاع: هذه ليست وحدة.. هذا يسمي فراغ عاطفي..

- أجل يا أبي بالظبط، أنا أشعر بفراغ عاطفى بل صحراء شاسعة من الفراغ..

- لا تستعجل الأمور يا شريف أرجو أن تتحلى بالصبر مثلما كنت أتحلى بالصبر دائماً معك. فسوف تَحب وستجد من يحبك لأنك جميل وذكي وسوف تتزوج بإذن الله من فتاة تليق بك وبمكانتك العلمية، لذا اهتم بتعليمك أولاً. أما الفراغ العاطفي الذي تعاني منه فدعني

أحدثك عنه قليلاً حتى تنتهي والدتك من تحضـــير الطعام؛ إنه من أهم أسباب الأمراض النّفسية.

- هذا يعني أنني مريض نفسياً يا أبي؟

- دون شك لكن لا داعي للفزع كلنا مرضـى نفسيين يا بني. أنت فقط تعاني من اكتئاب وقلق من فراغ عاطفي يســـيطر عليك ويجعلك تشعر بعدم جدواك في هذا المجتمع وأنك عنصر غير فعال وغير مؤثر والشيطان يتسلط على الإنسان الفارغ الخاوي ويوسوس له فتجده يتحرك بتأثير الشـيطان والسـبب في النهاية يرجع إلى الفراغ في المقام الأول. أنـت قلبـك فـارغ، فتجـده يبحـث عن عطف فتـاة عليـه يتعلق بهـا لتملأ عليه هذا الفراغ. عندما تذاكر دروســـك وتقرأ كتابا علميا أو تنفذ بحثا علميا مفيدا للبشـــرية وتعمل وتكد، فلن تجد هناك فراغا مطلقاً وســـتجد قلبك دوماً مشـــغولا ولكن عندما يكون القلب خاوياً، بالتأكيد ســـيحتاج لإحتواء هذا الفراغ بما يسد حاجته.

شـعوري بالملل– أقصـد مللا مجتمعيا – يدفعني لشـعور آخر وهو برود الأعصـاب القاتل تجاه ما اسـمع.. شـعوري يصـبح متزايدا كل يوم أكثر بسـبب إحباطي المسـتمر من كلام أبي الجارح وكذلك صـراخ امي عليّ

عندما احدثهم عن تجربة جديدة أريد خوضـها ليس لها صـلة من قريب او بعيد بالدراسـة ويعتبرونها «مضـيعة للوقت» لا أكثر. لا أتذكر أنني طوال حياتي اتخذت يوماً قراراً سـواء كان كبيراً أو صـغيراً ويكفي أن دراسـتي الجامعية التي سـألتحق بها وعملي المسـتقبلي لم أحددهما. كل ذلك يجعلني أبحث عن متنفس خارج أسـوار سـجنهم إليك يا مصـر الحرّيـة ودون وجودهم معي فرغبتي تزداد كـل يوم بـأن اعيش هنـاك وحيداً. هم يعتقدون انهم يقومون بعمل عظيم بتربيتي في الوقت الذي أعمل فيه على تربية نفسـي وربما تربيتهم معي. الكلام والمناقشـة معهم سـتكون دون جدوى، فلم أجد أمامى خياراً سـوى ان اقول له بضـعف وإستسلام:

- سمعاً وطاعة يا أبي لن أكون خاويا فارغا.

- عدني يا بني على الوصول إلى النهايـة المرموقة بسلام وأمان وتعود لنا هنا في جدة وتعمل معي في المستوصف. أعلم جيداً أن إبني ذكي ومقاتل ومملوء بالإيمان والتفاؤل.

- أعدك يا أبي، سأكون مثلما اردت لي.

– و تذكر دائماً أنك إذا كنت تريد الذهاب للدراســـة بمفردك، تأكد من أنك تقوم بذلك من أجل التعليم فقط. هذا هو الشـــيء الوحيد الذي يمكن أن تضمنه في جعبتك.

دخلت أمي ومن خلفها الخادمات يحملن صـــواني الطعام فرأت وجوهنا بائسة فأرادت ان تلطف الجو قليلاً قائلة بصوت يطيب الخاطر:

– لنحتفل بعيد ميلاد حبيبي على طريقتنا.. أحضـرت لك طعامك المفضل الذى تحبه؛ بيتزا مع حلويات لذيذة وتورتة العيد الميلاد.

- وانا أحضرت لك بعض الهدايا آمل ان تعجبك. أردت أن تكون معك مسـبحة أثناء سـفرك تحملها معك أينما كنت؛ حافظ عليها يا بني ولا تبعدها عن يدك فحباتها من الياقوت الأحمر القانى والأصـــفر القمرى.

- شكرا لكً يا أبي.. هذه أجمل هديّة عيد ميلاد يمكنني الحصول عليها.

***

مطار جدة، السعودية. الخميس ٧ أغسطس ٢٠٠٨

ودعت أبي وأمي في المطار دون أن تنزل من عيني دمعة واحدة ودون أن أشعر بأي ضيق، فقط كنت أشعر بسعادة تغمرني لأنني بعد ساعات معدودة سأَبدأُ حياتي الحقيقة وسوف أتعرف على اشخاص جدد وأعمل على تكوين صداقات جديدة ولكن مازالت أمي لا تكف عن البكاء. إنتهت سنين الثانوية العامة الأصعب في حياتي المليئة بالصرخات والدموع ولم يتبق لي سوى قلب كبير لا يضم بداخله شيئا سوى خَلاء وفضاء.. نزلت من عيني اليمنى دمعة فرح وحيدة حائرة أخذت طريقها وركدت وكأنها خائفه أن تعود حبيسة بَينَ جُفونِ عَيني التي تضم بداخلها قزحية خاوية هي الآخرى؛ رحلت من ذلك المكان الكئيب الذى كل مافيه يذكرنى به تمنيت أن يكون حلماً ام كابوسا يرهقنى وسوف أستيقظ منه وأجد فتاة جميلة تنتظرني في صالة إستقبال المسافرين ونذهب معاً خارج أسوار مطار القاهرة لنشرب فنجان القهوة عند حسام صديقي وجاري الذي تربينا معاً في أحضان الأخوة الصادقة منذ الطفولة، ووالده يملك مقهى ومطعما إيطاليا تحت منزلى مباشراً. ولكن سرعان ما أدركت أنني لم اكن نائمًا ولم يكون مجرد كابوس او حُلم مزعج بل هو واقع مؤلم رحل ولم يُكلفِ نفسه أن ينظر إلىّ حتى

ويودعني بل تركنى أتألم واتجرع مرار أيام مدرســـــة البنين والجلوس طويلاً بين أربع جدران وكتاب حتى انحنى ظهري. جفت دمعتي الوحيدة وعُدت إلى واقعى المرير أجلس على مقعدي بالطائرة أومئ برأســـــي لا أعلم إلى أي جهة أنا متجه ولا أعلم ما ينتظرني هناك.

ألماظة، القاهرة. الجمعة ٨ أغسطس ٢٠٠٨

وصلتُ إلى البيتِ في حي ألماظة عند مطلع الفجر.. صعدت بحقائبي التي تكاد تقع من يدي من شدة ثقلها إلى الطابق الرابع حيث يوجد بيت العائلة المهجور منذ ثلاث سنوات هذا البيت الذي شهد اجمل سنين عمري.

دخلت المنزل وكنت أشعر بصدى صوت حركة قدميَّ اللتين لم تعد تحملاني.. أغلقت باب الشقة من خلفي فإذا بروائح كريهة من عفن وكمكمة تتبعثر من كل ركن من أركان الشقة التى تبدو عليها الفخامة حيث أرضيات بورسلين وتحف ثمينة وأنتيكات وإنِ كانت فقط تنقصها النظافة حيث كانت تغطي جدران البيت طبقة مثمرة ومتماسكة من الأتربة المتراكمة وفي كل ركن يوجد عش عنكبوت.. بيت ليست به أي روح فهو بعيد عن الحياة ولم يدخله النور منذ فترة طويلة والحُزن هو الذي يطغى عليه وعلى جدرانه. ذهبت إلى غرفتي بكل حماس لأرتّب محتويات حقائبي ووزعت ملابسي على رفوف الدولاب التي تزيين مفصلاته ثم جلست على الاريكة. ظهرت رائحته عفنة تشبه رائحة المجاري مشبعة بالدخان، شعرت بالخوف بعض الشئ ولا أدري سببه، ربما من شدة السكون.. ففتحت نافذة غرفتي حتى التمس الأمان.. كنت

مرهقا جداً؛ ذهبت إلى النوم لأريح جسدي من تعب السفر.

عندما اســـتيقظت وكُنتُ جائِعاً فنزلت لأتَنَاوَلُ البيتزا في المقهى وهناك وجدت حسام صديق الطفولة فإستقبلني إستقبالا حارا بالأحضان. حسام شــخص ســاخر بأســنان منخورة ووجه غير وســيم لكنه غني. لا يأخذ الحياة بجدية ولا تشغله دراسته ولا يبالي بشــيء سوى بطعامه وسـهراته وســـفرياته. تفاجأت بأن هذا الفاشـــل بات يرتدي نظارة كبيرة «كعب كوباية» أخبرني أنه التحق بكلية التجارة وســألته هل ضــعف نظره من شـــدة القراءة في الكتب؟ فكان رده صـــادماً لي: "لا أنا نظري قوي ولا أحتاج للنظارات من الأســاس ولكني أرتديها فقط «عالموضــة»". ولفت نظره شــئ أخر فقال إنني «كرشــت» وزاد وزني بشــكل كبير عن آخر لقاء جمعنا وأصر في النهاية أن يدعوني على البيتزا والقهوة وكانت أول مرة أجرب الشيشة ولكن وكان لي طلبً آخر:

- أريدك أن ترسل لي أحدا عنده ضمير وأمين ينظف الشقة فهي متسخة جداً.. كما تعلم مغلقة منذ سنوات والعفن يملأ اركانها.
- ســأرســل لك مريم هي فتاة تعمل هنا في المطبخ.. «غلباوية» بعض الشئ وليست بالممتازة ولكنها أمينة جداً.
- شكراً لك يا صديقي.. العشم فيك كبير.

في صـــباح اليوم التالي ســـمعت دَقَّه خَبَطَ عَلَى الْبَابِ ففتحت، إذ بفتاة ترتدي جلبابا أخضـر وترحة سـوداء وتحمل كيسـا وجردلا وعصـا طويلة وتقول إن مســتر حســام أرســلها لي فأدخلتها واعطيتها مائة وخمســين جنيها وعاهدتها أن أعطيها مثلهم بعد الإنتهاء من تنظيف الشـــقة وأغلقت الباب وتركتها ونزلت للمقهى لأشـــرب قهوتي هناك في الركن البعيد الهادئ كما اطلقت عليه.. فهو أبعد مكان في المقهى خلف البار وتدخل الشمس إليه صباحاً من فتحة شفاط صغيرة أعلى الحائط أمامه وإنتظرت حتى تنتهي مريم من أعمال التنظيف وعندما دقت الســـاعة الرابعة ذهبت للتحدث مع حسام:

– تأخرت مريم بشـدة يا حسـام.. فقد تركتها منذ سـت سـاعات ونصـف وأعطيتها مفاتيح الشقة.

– يا شـــريف هدي بالك.. أنا أعرف مريم جيداً هي أمينة ولن تمد يدها على شـئ وأما عن التأخير فدعني اقول لك؛ انها شـخصـية كسـولة جداً.

- لا يهمني ذلك.. أخشـى ما أخشـاه أن تكون قد اسـحبت ونزلت دون أن نشعر ونسخت نسخة من مفتاح الشقة.

ضحك حسام ضحكة إستهزاء وقال:

- لا تدع خيالك يسرح بمفرده بعيداً يا شريف.. مريم فتأة بسيطة جداً أبسط بكثير من أن تفكر في تلك التدابير الشيطانية.

جائت مريم بعد عشر ساعات كاملة وكان وجهها شاحبا ويبدو عليها التعب والوهن بشكل واضح فسألتها:

- عشر ساعات! عشر ساعات يا مريم.. ماذا كنت تخترعين؟ هل لكِ ان تخبريني ما السر وراء كل هذا التأخير؟

- يا شريف بيه مهلك عليّ.. أنا لا أصدق كيف تغلبت علي خوفي وأنهيت مهمتي إلى النهاية.

- لماذا! ألم تنظفي بيتا كبيرا وكنت بمفردك فيه من قبل؟

- نعم، ولكن هذا بيت غريب لم يكن كأي بيت دخلته من قبل.. فكلما استدرت بظهري إلى الباب كنت أشعر وكان شخصا ما يأتي من خلفي ليطعني في ظهري وكنت اشعر به يمشي من ورائي يقترب مني أكثر فأكثر.. وكلما نظرت خلفي لأرى من هذا، لا اجد شيئا حتى أنني ظننت في البداية أن هناك شخصا ما بالشقة وذهبت لأتفقد كل شبر فيها ولم أجد أحدا.

- يا مريم ماذا تقولين! هل أصابك اي مكروه اوضيق او حدثت مصيبة؟

- لا يا بيه كنت فقط مرعوبة ولم أتوقف عن الشعور بدقات قلبي السريعة طوال وجودي في الشقة.

نظرت لها باستعطاف ووضعت يدي في جيبي:

- خذي هذا ما وعدتك به لعل دقات قلبك تهدأ بعض الشئ..

- ما هذا! لا يا بية.. هذا لا ينفع انا أريد خمسمائة جنية.. أعطيتني منهم مائة وخمسين ويتبقى ثلاثمائة وخمسون.. أصعد وأحكم بنفسك.. الشقة أصبحت «قشطة».

صعبت علي كثيراً فهي فتاة مسكينة وفقيرة وكانت الشقة بالفعل متسخة جداً:

- حسناً، خذي يا مريم.. مائة.. مائتان.. ثلاثمائة وخمسون..

- تسلم يارب من كل شر يا بية.

صعدت على السلم ومعي حسام بحجة أنني أريد أن أفرجه على الشقة بعد تنظيفها ولكن في الحقيقة كنت متخوفا بعض الشئ من كلام مريم فأردت أن أصطحب حسام معي كي لا اكون وحيداً. وصلنا إلى الشقة ودخلت ونظرت أمامي في صدمة فوجدت الشقة كأنها جديدة وقلت:

- تستحقين يا مريم الخمسمائة جنية..

فرد حسام بلهجة عصبية ونظر لي في عتاب:

- أعطيتها كل هذا ! لا يا شـــريف هذا مبلغ مبالغ فيه وأكثر بكثير مما كانت تستحق.

حكيت لـه حقيقة ما قالت لي وكم المعاناة التي وجدتها والرعب الذي شهدته الفتاة اثناء تنظيفها للشقة فرد عليّ بإستهزاء:

- أنت طيب القلب يا شـريف وربما السـنوات التي قضـيتها في السـعودية أنسـتك «لوع» المصـريين.. انت اخطأت عندما اعطيتها أي مال قبل ان تنجز شـيئًا لأنك بذلك طمعتها فيك ولم تجد امامها سـوى ان تختلق اي قصـة لتكسـب تعاطفك وتجلب منك المزيد وها نحن هنا في الشقة.. ليست مسكونة ولا يوجد اي شئ يدعو للرعب او الفزع كما إدعت مريم.

- لا أستطيع أن أخفي عليك شيئا يا حسام؛ فـــأنا مازلت قلقا قليلاً.. فهل لك ان تبيت معي اليوم حتي الصباح مثلما كنا تفعل عندما كنا صبية صغاراً.

- بكل سرور يا صديقي ولكن دعني اقول لك حتى يطمئن قلبك أني كنت دائما ألاحظ على مريم حركات غريبه ومنها أذكر أنني وجدتها يوماً تحدث نفسها وكانت وحدها في المقهى ومرة أخرى دخلت عليها المطبخ وهي ممسكة بكأس فيه ماء للنصف وتتحدث إليه ولم تشعر بدخولي لفترة وأخذت تكمل ما تفعله وتتحدث له وكأنها تكلم أحدا تراه في الكأس ثم شعرت بي وأرتبكت. فلا تقلق كل ذلك مجرد خزعبلات لا اكثر.

- هيا بنا ننام الآن وعندما نستيقظ في الصباح أريدك ان تأتي معي إلى معرض السيارات لكي اشتري سيارة..

مرت الأيام ولم ألاحظ وجود أي شئ غريب في الشقة وأيقنت حينها أن مريم فقط كانت تبالغ او ربما هي مسكينة وهيئ لها او إنها مجرد عملية نصب كما فسر حسام وكل تلك الإستنتاجات لن تفيد بشئ، المهم ان قلبي يطمئنُّ.

***

كلية الطب، جامعة القاهرة، الجيزة. الأحد ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٨

أول يوم لي فى كليه الطب كنت أعيش حالة من الفرحة غير المسبوقه حيث اخيراً حققت لأبي حلما لطالما حلم به وكم تمنيت ان تمر الأيام ويذهب الصيف لأذهب إلى كلية القمة المنشودة وأرى هذا الصرح الذى يسمى كلية الطب القصر العيني ويا ليتني ما رأيته.. اتجهت الى قاعات المحاضرات لأتلقى أول حروف الطب وإذا بى تائه فى الكلية.. مشيت في ممر طويل لا أدري إلى أين يصل بي فرأيت في نهايته قاعة كبيرة لكن بابها مغلق. وصلت إليه حاسباً أني قد وصلت مبكراً عن موعد المحاضرة في تمام التاسعة. وحيث كانت الساعة لم تتجاوز الثامنة والنصف.. وجدت الطلاب المتحمسين أنهم اصبحوا «دكاترة» ملتصقين بالباب خوفاً من أن يجلس أحدهم في المدرج الثاني او الثالث بدلاً من الأول، كل ما كنت أريده هو النجاة بحياتي من التدافع والدخول إلى المحاضرة دون أن يتم رفسي او اصيب بمكروه. اصبح المدرج ممتلئا بالطلاب على أخره فدخلت وكنت أنظر في الأرض وأمشي بخطوات سريعة متسارعة؛ كنت مخضوضا للغاية وأخشى أن يرانى أحد وكأنى اسرق شيئا. فهذا العالم غريب علىّ إذ لم اعتد عليه فى المدرسة والفصل الصغير في السعودية. كنت محظوظاً ووفقني الله إلى حد كبير

ووجددت مكاناً في ثاني مدرج من الخلف! كان معي دفتر لتسجيل المحاضرات لأكتب فيه كل شئ يقال على لسان الأستاذ. وكان معي معطفي الأبيض من أول يوم وكنت أتمنى أن أرتديه.. فأثناء المحاضرة قمت بالفعل بأرتدائه. فلن اعود إلى بيتي دون أن اشعر بفرحته. لكن كان هناك مشكلة قابلتنى وحيرتني كثيراً وهي انني لا افهم كلمة مما يقال اثناء المحاضرة. ما زاد من حيرتي أنني عندما نظرت حولي لم أجد شخصا ينظر على الناس مثلي ووجدت أن جميعهم منهمكون في الكتابة وراء أستاذ المادة وهنا دار حوار طويل مع نفسى لم انسه طيلة حياتى إذ هاجمتنى الشكوك وتملك منى اليأس وانعدام الثقه: "معقول ياربى كل هؤلاء الناس يفهمون وأنا الوحيد الذي لا افهم شيئا. كلهم يكتبوا وراءه مثل الآلة الكاتبة بإستثنائي! فهل دخلت كليه الطب من على السطح؟ لا فأنا متفوق مثلهم. أشعر وكأنني أرقص Break dance بينما الجميع من حولي يرقصون Soft Slow. لأبد أن هناك شئ خاطئ". فأنفجرت سائلاً الشخص الذى يجلس بجوارى: "كابتن، اتفهم شيئا من ما يقول هذا الرجل؟".

فإذا به ينظر لى مستغرباً من تحت نظارته السميكة ولم يجب فعدت لحوارى مع نفسى وشكوكى واذهب بنظرى يميناً ويساراً بعيدًا وقريباً

حتى أجد أى شـخص مثلى لأعلل به نفسـى واقول هذا مثلى ولكنى لم اجده في تلك القاعة الكبيرة. وهناك عشـت لحظات صـعبة من الشـك وخيبة الأمل والعجز والتفكير فى عدم قدرتى على مواصلة الدراسة بهذه الكلية وسط هؤلاء الأمواس والدحاحين.

أنتهت المحاضـرة في الوقت المناسـب فكان متبقي لي فقط خمس دقائق وتنفجر رأسـي.. نهضـت بسـرعةً للهروب من هذا المكان ولكن لم تنته المعانـاة بعد وحـان الوقت إلى دخول تحد جديد وهو محـاولـة تجـاوز الحاجز البشـري الذي يرغب بسـؤال الأسـتاذ العديد من الأسـئلة القيمة والمفيدة للغاية طبعاً.

عدت إلى من البيت وهناك بدأت حلقة جديدة من مسـلسـل خيبة الأمل المؤلم من محاولات فاشـــلة لفهم ما عليّ أن أذاكره من الكتاب وماذا درست اليوم.. ظللت أتخبط بين صفحات الكتب فنمت حالماً بيوم جديد في الكلية حافل بالفتيات الحسناوات.

الجامعة بها فتيات يعتنين بأنفســـهن في كلية تجارة وإعلام وحتى طب الأســـنان، وبها طالبات كلية الطب وهن تاريخ صـــلاحيتهن منته لا ينظرن إلى المرآة ويجهلن معنى كلمة كوافير أو تصـــفيف الشـــعر.

وحتى منهم من تدخل الكلية وهي مانيكان عصـــرها، فبعد دخولها إلى المشـرحة ورؤيتها الجثث تفقد الاهتمام بمظهرها لفترة من الصـدمة ومع ضـــيق الوقت، تنســـى نفســـها تماماً فالجمال والذكاء لا يجتمعان أبداً. البنـات كـانوا دحـاحـات للغـايـة ومعقدات إلى أبعد حد. كـانـت أمي قد أخبرتني قبل ســـفري أن خريجة كلية الطب لن تضـــحي أبداً بالحياة الزوجية على حساب عملها. وبالفعل رأيت بعيني ذلك على أرض الواقع فكل كلامهم يتمحور حول شـــئ واحد؛ المنهج. وخروجهم إلى مكـان واحد؛ المكتبة. ولا يوجد عندهم أي وعي قومي، لا تهمهم أحوال الدنيا ولا أحوال الـدين يقولون "ليس لنـا دخـل بتلـك الأمور فتكفينـا أعبـاء الدراســـة". كنت دائماً أعتبرهم عالة على الدنيا. وكيف لي أن أُعجب بزميلة بكلية الطب وهي تكذب طوال الوقت، فلن أثق فيها ولن أصـــدق أى شـــي تقولـه فيما بعد. ففي بداية الترم يكون كلامها على أن الترم صـعب جداً والمواد من الصـعب تحصـيلها ومع إقتراب الأمتحانات تبدأ في الحديث على أنها لم تفتح الكتاب منذ بداية الترم ولا تعرف شـــيئا عن أي مادة وتردد عبارات مثل "يارب النجاح". و بعد كل امتحان تؤكد أنها لم تحل الأســـئلة في الأمتحان وأنها تتمنى فقط ان تتخطى درجة النجاح وتوحي وكأنها على حافة الســـقوط وتخرج الدرجات إلى النور وترى أنها حققت أعلى الدرجات وهنا تبدأ في الحديث عن أن ما حدث

هو مفاجأة غير متوقعة لها وهي بالتأكيد مجرد صدفة لا يصدقها عقل وإنها بذلك «يا دوب» ضـــمنت النجاح في إنتظار الأمتحان النهائي الذي لم تستعد له بعد وتستمر حلقات المسلسل الهندي السخيف الذي لا يصدقه إلا ساذج مالانهاية. فـــمن المستحيل في النهاية أن أحب او أرتبط بواحدة منهم.

***

ألماظة، القاهرة. السبت ٢١ مارس ٢٠٠٩

اليوم هو الحفل السنوي بمناسبة عيد الأم بمدرسة أبناء الغد المشرق الإعدادية الخاصة. حسام كان يحرص على حضورها كل عام ومقابلة زملائنا واصدقاء الطفولة في الدفعة كنوع من لَم الشمل بعدما تفرقنا بعد المرحلة الإعدادية. جاءنى في وقت باكر في صباح. ولم تكن أبداً من عادة حسام أن يترك أصدقاءه ينعمون بالدفء والأحلام حتى في الساعة السابعة صباحاً.. لطالما أيقظني بفزع صوت دَقَّه خَبَطَه عَلَى الْبَابِ.. فما أسهل أن يصعد درجات السلم القليلة بيني وبينه مرتدياً بيجامة البيت ويداه في جعبته، حيث يسكن في الطابق الأسفل مني مباشراً.

دق الباب كثيراً وبهستيريا ففتحت له فدخل مندفعاً:

– صباح الخير يا شريف كفاك نوما ألم تشبع كسلا؟.. انهض يا سمين من نومك.. انهض سنذهب للحفل الساعة التاسعة، وسنعود ربما الساعة الثانية عشرة ظهراً..

وصلنا للمدرسة القريبة من المنزل الوقت يمر سريعاً وكم كنت أتمنى أن يمر بطيئاً فما زالت لم تحضر أية فتاة من دفعتنا وقربت الحفلة

على النهاية. طال فراقهم كثيراً لكن هذه هى الحياة تفارق وتودع. لحظة يأس.. تعاســـة في قلبي ومع كل دقيقة تمر أرى ضـــياع المأمول من أمامي. لا تتحرك عينى من على بوابة المدرسة املاً فى أن يأتى النهارُ بعد ظَّلامِ الليل الشـــديد. هكذا أتت أحداهن إلى الحفل وكانت ســـيادة حســـن ومعها أمها التي تبدو أنها مازالت لا تفارقها رغم العجز الذي كان يبدو عليها، فأعادت لى بريق الحياة والأمل من جديد.

كانت تحمل نفس ملامح شكلها منذ ثلاث سنوات، لم تتغير كثيراً.. كان الشـــئ الوحيد الذي تغير هو ارتداؤها للحجاب وطريقة لبســـها المتحفظة بعض الشـئ. كانت لفتها للطرحة بطريقة جعلتها تبدو كالخمار، وترتدي بلوزة مع جيب واســـع. لا اصـــدق ان هذه هى ســـيادة التى كانت طفلة صـــغيرة بضـــفيرتين طويلتين. كنا نلعب معاً فى فناء المدرســـة وفى الفصل كنا نتنافس من سيجيب على الأسئلة. مرت السنون و أصبحت فتاة شـابة جميلة ذات صـوت ناعم وعذب وإلتحقت بكلية الألسـن. أتت متأخرة ولكن هذا خيرٌ من ألّا تأتى ابداً.

لم اكن انوى التحدث إليها فور وصـــولها الحفل إلى ان يتوالى قدوم المزيد من أصـــدقائنا القدامى.. فمنذ وصـــولي مصـــر وانا أعمل على تمرين عيني على الإســـتطلاع بـدون تحريـك الرأس ولكني هـذه المرة

تحديداً لا أستطيع أن أرفع عيني من عليها.. لم اعد أستطيع الصمت ولم أعد أطيق الإنتظار أكثر من ذلك فتقابلت أعيننا فكان عليّ أن أذهب وأتحدث معها بصحبة حسام: ها أنت يا صديقتي.. عندما لمحتك، هاجت الذكريات في خاطري.. أنظري إليكِ كم أصبحت جميلة!

- لقد مر وقت طويل منذ آخر مرّة إلتقينا بها يا شريف.. كيف حالك يا صديقي القديم؟ يبدو أنك تعلمت «البكش».

كنت أنظر في عينيها وكانت تنظر في عيني. قلبي كان ينبض بقوة شديدة.. شعرت وكأنها أول مرة فى حياتى أرى فتاة بعد ثلاث سنوات من العزلة التامة عنهم.. وقعت في حبها من أول نظرة بعد فترة الغياب المريرة. عزمت أن افتح معها مواضيع فسألتها:

– كيف يصير عامك الأول بالجامعة يا سيادة؟

– في الحقيقة ليست الأمور على ما يرام يا شريف. ظننت أني خرجت من طور الطفولة وأن بمجرد دخولي الجامعة قد أتخلص من بعض القيود ولكن انا الآن محاصرة بتعليمات وتوجيهات أمي: "لا تتحدثي مع هذا، لا تخرجي بصحبة هذا، إنتبهي لا تصاحبي الغرباء فقد تصابي

منهم بأذى". فرغم بلوغي التاسعة عشر عاماً، إلا أني مازلت اشعر أني في السادسة من عمري من طريقة تعاملها معي. ففي الجامعة لم أشارك بأي فعالية في أي نشـاط او انضـم لأسـرة ولم أذهب لأي رحلة كباقي زميلاتي.

– يا سيادة إنها بلا شك لا تريد لك إلا كل الخير والسعادة ولذلك تخاف عليك. إنها أكثر حكمة وخبرة منك. وتريد ان تعطيك خلاصـــة تجاربها في الحياة دون أن تجربي انت بنفســك كل شـــئ حتى تتعلمي دون أن تتألمي.

– لا يا شـــريف إنها على يقين تام بأني مازلت طفلة ولا أعرف طريق الصـــواب وبالتالي لا تمنحني أي ثقة لحرصـــها الزائد الخانق. هذا لا يســـمح لها بالتدخل بشـــكل مباشـــر جداً في حياتي لهذه الدرجة؛ إنها تتدخل في كل الأمور حتى الصـــغيرة منها مثل ملابســـي فهي من تختارها لي وحتى طريقة كلامي وتقول أن لســـاني مســـموم. وتشـــدد الخناق عليّ لدرجة أن شخصيتي باتت قلقة ومتوترة، وأصبحت لا أملك القدرة على مواجهة أبسط أمور الحياة.

– ولماذا لا تعترضي على كل ذلك يا سيادة؟

– إذا اعترضـــت، تواجهني بغضـــب شـــديد وتتغير جذريا من ناحيتي وتضـعني تحت أنواع شـتى من الضـغوط تصـل أحياناً إلى المقاطعة أو قد يصـل الأمر إلى حرمان من بعض النزول وكل خطوة بحسـاب حتى أصبحت منطوية وزرعت في نفسي الخوف من الغريب المجهول.

– معقوول! أتفهم أن طنط هالة تتعامل معك بحرص شـــديد لكي توفر لك الحماية المطلوبة من المخاطر التي قد تتعرضـــــي لها في المجتمع وممن يختلطون بكِ ولكن أعتقد انها لا يمكنها حمايتك بمجرد إخراجك وإبعادك المســتمر عن طرق الأذى وأن افضــل طريقة لحمايتك هو أن تعدك إعداداً جيداً وبشـكل صـحيح حتى تكوني على طريق ويظهر لك الأذى، فتتمكني من حماية نفسك حينها.

تكلمت سـيادة بلسـان يملؤه الحزن والبكاء والانكسـار: "أرأيت يا شـريف ماذا يحدث لي!".

اعطتني ســيادة رقم هاتفها من تلقاء نفســها دون أن اطلبه منها حتى، أخبرني حســـام أنه رآى في عينيها وهي تنظر لي أنها تســـعى للتقرب مني، لم أصـدقه حينها ولكني عدت وتأكدت فقط من ذلك عندما علمت

انها لم تعط هاتفها لجميع زملائنا في الدفعة في آن واحد كما ظننت بل أعطته لي انا فقط بشكل منفصل في البداية.

لم اكن اعرف معنى الشـــعور باللهفة والحنين فقد كنت أحيا بحياتى كالجنين لا يشـعر بالأمان إلا بلقاء سـيادة. لم يكن قلبي ليعرف ما هو الحب. لم اكن اعرف او اتحدث مع أحد ســواها، أحببتها وأدمنت قربها وباتت هي سعادتي الوحيدة. سيادة شخصية طيبة القلب، كريمة النفس، رقيقة المشـاعر، مرهفة الإحسـاس، أصـيلة ومخلصـة ووفية فعرفت من حسـام فيما بعد أنها كانت تحرص على حضـور حفل المدرسـة السـنوي كل عام لتصـافح مدرسـيها ولم اسـمعها يوماً تنطق بكلمة نابية في حق أي شخص حتى ولو كان أساء إليها. لم اكن أرى طيبتها الزائده ضعف في شخصيتها ولكني كنت اخشى يوماً ان يسيطر عليها أحد ويغير ما بداخلها فهي ســـهلة الســـيطرة عليها وقد يتم بذلك بكلمة واحدة. كانت تكبرني بســتة اشــهر في العمر.. لكننا كنا نعرف بعضــنا البعض منذ عشــر ســنوات فهي «عشــرة عمر» ووالدتها كانت جارتنا في ألماظة وصديقة لأمي وتعرف عائلتي عن قرب وتعرف أصلي وفصلي وهذا ما كان يميزني عن غيري عندها ويجعلها تثق فيّ ثقة عمياء وكنت دائماً على علاقة جيدة منذ الصغر وهو ما دفعها أن تعطي الضوء الأخضر

اخيراً إلى سيادة وتمنحها حريتها في أن تعرف شابا وسمحت لها بالخروج معي. فكنت أنا بمثابة طوق النجاة لها من العزلة عن العالم الخارجي الذي فرضته عليها والدتها والرهبة الإجتماعية التي تسببت في تسلطها الشديد عليها. وباتت تنعم بالأستقرار النفسي وتحسنت علاقتها بطنط هالة. لم أحتج لوقت طويل حتى إعترفت لها بحبى وهى كانت تبادلنى نفس الشعور.. قلت لها امامي سبع سنوات لكني عزمت ان أطلب من أهلي أن يأتوا إلى مصر قرب تخرجي من الجامعة وأن اتقدم لخطبتها على أن نتمم زواجنا فور تخرجي مباشرةً إن شاء الله..

فكان ردها وعيناها تغرق في دموع الشوق والفرح: "سأنتظرك مهما طال إنتظاري يا حبيبي، فلن أكون لأحد غيرك".

أظهرت اهتمامي الشديد بها وبكل ما تقوله وتهتم به وبتأثير كلماتي الحنونة عليها وكنت دائماً أضع مشاعرها الرقيقة في الأعتبار عندما أقوم بأي تصرف نحوها. لم اكن فخوراً أني أتسم بالخجل وبقدر من الانطوائية خصوصاً في التعامل مع الجنس الآخر لكنها كانت تعشق ذلك.. كنت أرى ذلك فعيونها عندما أبتسم نصف إبتسامة خجلاً وتنخفض رأسي وأتمنى لو أنها لا تلاحظني.. الجرأة كانت تخيفها فهي كانت تظن أن جرأتي قد تدفعني يوماً إلى خيانتها أو التفكير في

الأرتباط بفتاة أخرى، لكن عندما كانت ترى خجلي الشـــديد، كان هذا الإحتمال يقل بل ينعدم تماماً عندها لأنها كانت تدرك حينها أنني ببســـاطة لن تتقرب مني أي فتاة. فكنت فقط أحتاج لفتاة تقرأ ما في قلبي، ووجدت ســيادة ولن أفكر في غيرها قط وهي أيضـــاً لشـــعورها بالتقارب النفســي بيننا وهدوء والدتها عليها الذي يعتبر من أهم مكاسـب دخولي حياة سيادة لشعور طنط هالة بالأطمئنان بأن أبنتها مرتبطة بي وأني سـأكون زوجها المسـتقبلي. لكن عندما كانت تُغضـب بدون سـبب وتُثار أعصـــابها، كنت أعلم أنها ســتصـــبح كالزجاجة المكســورة على الأرض، ستجرح يدي اثناء محاولاتي لتركيبها مرة اخرى.

حتى تقابلنا ذات يوم كنا نجلس معاً في المقهى فكانت تتعامل معي بعصبية زائدة متكررة وبدون سبب حقيقي وتنتقد كل تصرفاتي.. ذلك لم يكن طبع فيها وأعرف أنها لا تمر بأي فترة ضـــغوطات نفســية من أي نوع.. كانت تجلس امامي وفجأة قالت لي بلهجة حادة:

- لماذا لا تأكل بالشــوكة والســكينة؟ ألا تعرف شــيئا عن آداب الطعام والإتيكيت؟

- غريبة يا ســيادة.. هذه ليســت اول مرة تشــاهدينني وانا اتناول البيتزا بهذه الطريقة!

- هل تأكل في بيتك أم تأكل في مطعم بأختلاط والطاولات بجانب بعض؟

- أنا عن نفسي لا أهتم بمن حولي طالما أن صغيرتي تجلس معي ونستمتع بوقتنا معاً. ثم أني أرفض فكرة الشوكة والسكين وخاصةً عندما يكون الأمر متعلق بالبيتزا وأكره هذا الإتيكيت الممل.

- حسناً، وأنا أرفض هذا المنظر القذر.. شريف، انا لم اعد لا أطيقُ تحمل تصرفاتك اكثر من ذلك!

- رد شريف وإبتسامة الذهول تعلو وجهه: البيتزا لا تؤكل بالشوكة والسكين يا سيادة.

قالت سيادة: "أُفٍّ" ثم نظرت للسقف وتوقفت عن الأكل فكنت احاول تهدئتها بذات القدر الذي احاول به تهدئة نفسي وأكثر.. واقوم بتدليلها والتغزل فيها وأخبرها إنها أجمل شئ في حياتي:

- المعذرة يا حب حياتي ولكن أي تصرفات تتحدثين عنها.. ماذا بكِ يا سيادة؟

- لماذا أنت هكذا؟ لماذا تثير أعصابي دائماً وتجعلني أقول شيئا يسئ لك..

- لا بأس يا حبيبتي.. لكن ماذا فعلت لكي تكوني مستفزة لهذه الدرجة؟

- نظرت مرة أخرى إلى السقف فأردفت: أخبريني فحسب حتى لا اكررها مرة اخرى..

كانت لا ترد فقط كانت تنفخ عليّ وزادت عصـــبيتها كثيراً كنت اكتم بداخلي..

- إذاً اخبريني كيف لي ان اشتاقْ لك وانت جالسة امامي!
- من فضلك.. أريد العودة إلي بيتي.
- ألن تكملي أكلك؟
- لا، نفسي اتسدت.

اســتجبت إلى طلبها بعد إلحاحها الذي لم يتوقف وهددتني أنها ســتعود بسيارة أجرة «تاكسي» إذا لم أوصلها.

كانت ســيادة تتحين الفرصــة للخروج من بيتها لقضــاء الوقت معي ولا تترك مناســبة حتى نتقابل لكني لاحظت مؤخراً انها بدأت تنفر مني ولا تحب أن تقابلني وتبقى معي لنتحدث لفترة طويلة لدرجة انها كانت سابقاً تضحك على جميع نكاتي، سواء كانت مضحكة فعلاً أو حتى المملة منها، لكنها مؤخراً أصبحت تحرجني.. كانت ستفوز بكل جدارة واستحقاق ببطولة العالم في النكد وإختلاق المشاكل من تحت الأرض! لم تمر ســاعات بعدما أوصــلتها إلى بيتها قبل أن أتســلم رســالة على

هاتفي كان نصـــها: "انت بريئ ونقي وأبيض القلب لا تخدع ولا تنافق.. لا تكره ولا تتربص.. لا تحمل ضـــغينة في قلبك حماه الله من خبث البشـر يا شـريف.. اتمنى لك السـعادة مع غيري.. ابحث عنها من الآن وارجوك لا تضـيع وقتك وتحاول ان تتصـل بي.. فقد أخرجتك من قلبي إلى الأبد".

- بحق ! الزجاج المكسـور لا يتركب ابداً.. احببت سـيادة مرغماً ليس لأنها الأجمل او الأرق او الأغنى ولا الأعمق ويبدو أن حبي لها كان أحمق.. وانه كان مجرد إنجذاب للفتاة الوحيدة التي أراها واتعامل معها عن قرب منذ ســـنوات العزلة تماماً مثلما حدث مع ميرندا في مسـرحية العاصـفة لوليام شـكسـبير عندما وجدت نفسـها تعشـق فرديناند لمجرد انه كان أول رجل بعد أبيها تراه في حياتها التي عاشـــتها منعزلة في الغابة. اســـأل نفســـي كل يوم ماذا فعلت لها لكي تتركني بهذه الطريقة؟ ولماذا تركتني من الأسـاس؟ وهي بنفسـها إعترفت أنني قدمت لها حباً لم يقدمه أحد لها. أهكذا تجازيني؟ كنت علي يقيم تام أن ما حدث لم يكن بســـبب الخلافات الطبيعية التي تحدث بين أي اثنين مرتبطين. لأننا منذ البداية كنا مختلفين في أشـــياء كثيرة ولكن هذا لم يوثر بالســـلب على علاقتنا يوماً. كنت أطلب القهوة التركي وهي تطلب

الاسـبريسـو.. فكان عندما يأتي النادل بالطلب، كنت اذوق من فنجانها وهي تذوق من فنجاني. لو كنا نظلب نفس الطلب، لـما تشاركنا.. كان في اختلافنا مشـــاركة جميلة. كنت طائراً من الســـعادة ولكني لم اكن اعرف ان اليوم الذي فيه ذهابها قريب فأتي ذلك اليوم الذي مات فيه قلبي من نار فراقها فضاع عقلي بالتفكير بها وكانت تتسائل عيناي هل ســأرى عينيها مرة ثانية بعد رحيلها وأخذت أوبخ نفســي وقلت لعيني لا تنتظري من عذبت قلبي بحبها وهي ما كانت بأمر حبي لها تبالي.

***

الخميس ٣٠ يوليو ٢٠٠٩

ظهرت نتائج امتحانات العام الدراسي الأول بالكلية ولم أوفق في الحصول على ترتيب. عدت إلى أبي في جدة وكان في المطار ينتظرني هو وأمي التي لم تعرني أي اهتمام او تسألني عن حياتي الشخصية واكتفت فقط بسؤالي عن أكلي وشربي. ومضينا إلى خارج صالة الأستقبال حيث كانت السيارة بسائقها الهندي ودون مبالاة من أبي جلس في السيارة وظل يوبخني على ذلك توبيخاً شديداً وهو جالس بجانب السائق الغريب وظل يلقي بالإتهامات أني لم أقم بملئ قلبي الخاوي بالعلم كما ينبغي ولم ينتظر حتى وصولنا للبيت ونالتني منه هو وأمي نظرات خيبة الأمل والإتهام طوال الطريق. شعرت بالرغبة فى التحدث مع ذاتي وصلت إلى حالة مرضية من التحدث إلى النفس:

- ماذا يدور في رأسك؟
- الكثير من الأشياء كما هو الحال دائماً في دوامات التفكير في رأسي التي لا تهدأ ابداً.
- هل هناك شيء محدد؟
- يا لها من كذبة كبيرة. أنا فقط أتساءل كيف يمكن لها ان تفعل ذلك بي؟

- إنها لم تفعل شيئا.
- إذاً فلماذا أتألَم؟
- ربما لأنك تريد ذلك.
- يا لها من شبكة معقدة.
- ماذا يمكنني أن أفعل؟
- التغيير.
- كيف يمكنني ذلك؟
- حاول
- لكنني لست على خطأ.
- هل أنت متأكد من ذلك؟
- لا، انا لا أعرف من اثق به؟
- أنا، ثقي بي.
- بالتأكيد لا.
- لِمَ لا؟
- أفكر جدياً في الإستسلام..
- ولكن لا يمكنك فعل ذلك.
- أتمنى ذلك.
- لا تفعل ذلك.

- توقف.. أصمت.
- أنت أولاً..
- اتركني وشأني.
- هل هذا يفيد؟ هذا ليس ما تحتاجه..
- هذا ما أريده.
- أنا فقط أحاول المساعدة.
- إذاً ساعدني في التغلب على آلام الفراق.
- لا اعرف يا صـــديقي. لو كنت اعرف كيف لما بخلت عليك ولكن لا أعرف شـــيئا عن ذلك وتذكر أنك مجرد تحكي ما بداخلك لنفسك!

عزمت على العودة إلى مصر سريعاً فور إنتهاء إجراءات تجديد الإقامة للهروب من جحيمهم وبحجة التحضير والأستعداد الجيد للعام الدراسي الجديد. مللت من المكوث في غرفتي بمفردي؛ لأتكلم مع نفْســـي، وأناقشها واشرد زهنياً.

بعد وصـولي مصـر بأيام تذكرت كلام أبي الدكتور شـهاب عن قلبي الخاوي ومن قبله عن مرضـي النفسـي فلم أجد أحدا أحكى معه سـوى طبيب نفسـي. ذهبت إلى مركز الطب النفسـي لمسـتشـفى الدمرداش

بجامعة عين شمس حتى لا يراني أحد زملائي من القصر العيني هناك وسألت عن عنوان عيادة افضل طبيب نفسي في المركز والجميع أجمع أنه الأستاذ الدكتور ممدوح السلمي أستاذ الطب النفسي وعلاج الإدمان. إتصلت بالممرض الخاص به وحجزت معه موعدا وكنت على موعد معه بعد خمسة أسابيع من تاريخ الحجز وكان هذا اللقاء بمثابة نقطة تحول في حياتي.

شارع بطرس غالي، مصر الجديدة. الأحد ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٩

عيادته فخمة وبها ديكورات رائعة بأرقى أحياء مصـــر الجديدة وزبائنة «شـيك» للغاية.. وغرفة الكشـف كانت مريحة للأعصـاب بشـكل غير طبيعي وتســاعد على الهدوء والإســترخاء.. دهان جدرانها كان باللون السـماوي ولها باب خشـبي جرار عازل للصـوت. وكان الدكتور ممدوح رجل قدير وعلامة من علامات الطب النفسي في مصر. ملامحه أقرب إلى الخشـونة، لكنها ما تلبث أن تنقلب إلى ملامح طفولية كلما إبتسـم، نظرته حادة وصـافية ولكنها متفحصـة، ووجهه بشـوش وشـعره رمادي اللون لكنه كان يبدو أنه أصغر سناً. ومتواضع جداً حيث عرفته بنفسي إني طالب بكلية الطب القصر العيني فناداني بالـــ"زميل" وفضل أن اجلس أمامه على المكتب على أن امدد على «الشيزلونج».

حكيت له كل شيء وكان رده رائعا واسهم في تغَير مجرىّ حيآتيِ للآبدّ:

- الحب احساس رائع يا شريف يدخل إلينا من حيث لا ندري ولا نحسـب ولو كنا نعرف متى سـيبدأ الحب ومتى سـينهي لانعدمت الأثارة في هذا الموضوع الذي شغل العالم منذ بداية الخليقة.
- كم أريد أن أكون محبوبا لدى كل فتاة يا دكتور..

- مهما فعلت لن تستطيع أن تجعل أي فتاة تقابلها تحبك. كل ما يمكن أن تفعله هو أن تكون الشخص الذي يستحق العيش معه ومن أجله.. أما الباقي فهو متروك لهم.

- يا دكتور أنا كل ما يزعجني ولا يجعلني أنام احياناً أنها تركتني بدون سبب واضح..

- إبتعد وتجاهل التفكير عن كل ما يزعجك يا شريف.. واضح إن مشاعرها قد تغيرت وهذا وارد فالقلب سمى بالقلب لانه متقلب. ربما لم تجد سببا مقنعا لتركك ولم تتح لها الفرصة لكي تفتعل أي مشكلة او خلاف معك فأنت أغلقت أمامها كل الأبواب ولم يكن أمامها سوى الهروب منك بهذه الطريقة وقد تخجل من مواجهتك لأنك لم تفعل بها أي مكروة ليكون هذا جزاؤك في النهاية..

- المشكلة الحقيقة يا دكتور أنني لم أعد أملكُ الثقةَ بأنني أستطيع أن أعرف غيرها او أجعل فتاة أخرى تُعجب بي..

أخذ دكتور ممدوح بالقلم من درج مكتبه وأخرج ملفا كتب عليه أسمي ومن تحته عبارة: "مهارات تطوير الذات وبناء الشخصية" ثم قال: جميعكم مثل بعضكم.

- "جميعكم" من يا دكتور؟

- الطلاب المجتهدون مثلك! فنظام التعليم في الثانوية وفي كلية الطب يحول الطالب إلى ثور مربوط في ساقية ويفقده فرصة إكتساب بعض الصفات التي لا تولد مع الإنسان، لكنها تُكتسب يوماً بعد يوم ولا يكتفي بذلك فحسب، بل ومع الوقت يفقده جميع المهارات التي يولد بها حتي يتحول إلى شئ أقرب للإنسان الآلي ثم يحزن ولا يجد لذة في حياته بسبب تخبطه الكثير فيفقد تركيزه ويصبح علمه الذي هو في الأساس سبب كل ذلك، بلا فائدة. نظام التعليم هنا لا يعلمك Communication Skills لانه يجعل إتصالك الوحيد "بالكتاب".

أخذ الدكتور يفكر قليلاً ثم سألني: هل تذكر عندماً كنت صغيراً يا شريف، هل دخل عليك أحد غرفتك مرة وكنت على فراشك، فمثلت عليه أنك نائم ولم تكن في الحقيقة نائما؟

- نعم، كثيراً..
- عظيم.. أخبرني ماذا يحدث بعد ذلك؟
- غالباً ما يحدث أني أنام حقيقةً وليس تمثيلا.
- رائع! أخبرني بماذا تستنتج من ذلك يا دكتور شريف؟

أخذ شريف يفكر قليلاً وينظر للسقف لينتهي به الأمر قائلا: "لا ادري".

- أخبرك أنا.. عندما كنت مستيقظا على فراشك وقررت أن تمثل على من يدخل عليك غرفتك بأنك مســـتغرق في النوم ودخل أحد من عائلتك، نظر إليك فظن أنك نائم بالفعل. أيجادتك في التمثيل دفعته أن يتعامل مع الموقف بشــكل طبيعي فلم يضـــيء النور او قام بإطفائه إذا كان مضـيئا وبدء ينســحب على أطراف أصــابعه خوفاً من أن يزعجك وتســتيقظ، فقام بتهيئة جو مثالي للنوم لك، فلما تهيأ لك ذلك، اســتغرقت في النوم ولكن هذه المرة حقيقة وليس تمثيلا.. أليس كذلك؟

- أجل يا دكتور هذا ما يحدث تماماً..

- نفس الشـــئ بالنســـبة للثقة يا شـــريف.. انت لا تملك الثقة الحقيقة، ولكنك ســـوف تمثل على من يتعامل معك أنك تملك ثقة كبيرة في نفسك وتتصرف معه على هذا الأساس وإجادتك لتمثيل الثقة المزيفة ســـيدفعه أن يتعامل معك بالطريقة التي تجبره على أن يهيأ لك الجو المناسب الذي يجعلك قادرا على بناء ثقة ولكنها حقيقية هذه المرة.

كنت اضع يدي على فمي فكانت تنزلق ببطء على ذقني الكثيفة بإنبهار وبصـــمت دون أن أنطق بكلمة واحدة فقط أنصـــت لكلمات هذا الرجل العظيم.

- وإذا كنت ترغب يا شـريف بأن تُعجب فتاة بك وتسـتمر معك دون ان تنظر لغيرك، عليك بثلاث.. اولاً، انتبه لمظهرك. قد يتسـامح أصـدقاؤك الذكور في السـعودية مع مظهرك أو لا يلحظون أنك ترتدي نفس الملابس كل يوم او لا تهتم بمظهرك، لكن الأمر مختلف عندما يتعلق بفتاة. لأنها سـتهتم بالشـكل الذي تبدو عليه ثم انت الآن دكتور يجب أن يكون مظهرك تقليدي.. أحلق شـعرك وهذب لحيتك حتى تصبح دوماً مستعداً للظهور. وأعلم أن الفتيات تلاحظن النفس سيء الرائحة، الكرش، رائحة الجسد، الشعر غير النظيف، وكل تلك التفاصيل قبل أن تنظرن لشخصيتك. أمنحهن الفرصة لرؤية صفاتك الجيدة عن طريق ترك إنطباع أول جيدا بمظهرك. ارتدِ ملابس مناسبة لسنك والتي تكون مواكبة للموضة وتحسن من شكل جسدك، ولا تستعر ملابس والدك ولا اقصد أن تكون بالضروري ملابس غالية الثمن او ماركات.

ثانياً، حاول أن تتخلص من وزنك الزائد الذي اكتسبته من كثرة الجلوس في المنزل على مدار ثلاث سنوات وإن استطعت حولها لعضلات لتحسن من قوامك هذا سيزيد كثيراً من ثقتك بنفسك ومعظم الفتيات يحبون الشباب ذوي العضلات القوية لأن عضلاته توحي لهم بقوته وقدرته على حمايتهم ولكن لا تبالغ في الأمر، ليس عليك أن تكون نسخة من هالك الأخضر. أبحث عن نادٍ رياضيّ ومارس التمارين التي

تحصـــل منها على جســـد مثالي يجعل الإنطباع الأول عنك دائماً ما يكون جيدا وقم بها بشكل منتظم. كل هذه الأشياء يا شريف ستساعدك على استعادة ثقتك بنفسك وبالتالي ستترك انطباعًا ايجابيًا عنك وسيلفت أنظار الفتيات لك. لأن حالك الآن يعبر عن عدم ثقتك بنفســـك، وهذه بالطبع صفة لا تروق لأي فتاة.

ثالثاً والأهم؛ أنك لن تســـتطيع التعامل او فهم فتاة لأن طريقة تفكيرك غير طريقة تفكيرها وأنت كنت تحاول فهمهما كما تفكر وبمنظورك أنت. لا، فهي لا تفكر بنفس الطريقة التي تفكر بها يا شـــريف وهذا يؤدي إلى نشوب المشاكل. ومن أكثر الأسباب التي تؤدي إلى المشاكل هي قلة الثقة بالنفس، حيث تعتقد أنك ملئ بالعيوب وذلك لأنك لا تثق بنفســـك مما يدفعك إلى الشـــجار مع الآخرين كوســـيلة لتفريغ الكبت بداخلك. الفتاة تعشق الشاب الذكي يا شريف الذي يفهمها من عيونها وصوتها وحركات جسدها دون أن تبوح له بكلمة.. تستطيع ان تقرأ عن لغة الجسد وتفهمها ونتناقش فيها سوياً الجلسة القادمة.

أنطلقت بكل حماس واقتنعت أن للمظهر تأثير كبير في تكوين الإنطباع عن الشخصية لهذا اشتريت ملابس جديدة وسأغير من قصة شعري لتناسب سني. اشتركت في جمنازيوم بالقرب من منزلي وانتظمت في

التمرين. وأشتريت الكتب المتخصصة في لغة الجسد وانتهيت من قراءة معظم الكتب العالمية واكتسبت خبرة ومعرفة كبيرة وأصبحت محترفاً في معرفة ما يضمر الآخرون بداخلهم بدرجة كبيرة وخاصةً الجنس الآخر من تحركاتهم وبشهادة استأذي الدكتور ممدوح بعدما كنت أذهب عنده في جلسات منتظمة لنتناقش في ذلك.

الدكتور ممدوح علمني الكثير ومرت أحاديث بينى وبينه بها الكثير من العبر ولكن أهم شئ تعلمته منه وربما لم يقصد أن يعلمه لي هو: كيف أكون مستمعا جيدا يرغب الآخرون في التحدث إليه لكني اكتسبت تلك المهارة التي لن تكون سهلة بالنسبة لأبي وأمي أن يتعلموها.. فقط من خلال تركيزي معه اثناء استماعه ليّ. فكان هذا الرجل يحافظ على اتصال العين بأن ينظر فى عيني من حين للأخر ولا ينظراو يفعل اي شئ آخر. كان يصمت تماماً في البداية لكي يسمع مني على قدر ما يستطيع ويتيح لي الفرصة كاملة أن أتكلم بحرية. كنت اشعر دائماً أنه يضع نفسه مكاني بظروفي ووجهة نظري فلم يكن ابداً يقارن خبرة السنين التي يمتلكها بخبرتي المتواضعة. فلما كنت أحكي له مشكلة، لم يكن يصدر منه اي أحكام اظن حتى –بينه و بين نفسه– ولم يكن أبداً يحلل الموقف من وجهة نظره. وفي نفس الوقت لا يدخل نفسه داخل

القصـة ويحاول أن يكون جزء منها لأنه فى الأول والأخر هذه مشـكلتي أنا وهو عمله أن يسـاعدني فقط وفي النهاية يخبرني بما أفعل وليس بما كان سـيفعله هو لو كان مكاني. ثم يتفاعل معي فعدما أحكي له شـيئا مؤثرا يظهر ليّ مدى تعاطفه معي.. وإذا اسـتشـعر أني أشـعر بضـغط اثناء حديثي كان يحاول أن يظهر لي أنه مرتاح حتى ارتاح انا الأخر. ويتذكر كل شـــئ اقوله من أول الكلام لاخره بترتيبه، وحتى عندما أذكر اسم شـخص يبقى متذكرا إياه ويسـتخدمه فى رده عليّ فأشـعر حقاً انه متابع. هذا الأســـتاذ العظيم الذي بالتأكيد ورد ومازال يورد عليه الكثير من الحالات المشـابها لحالتي ولكن على الرغم من ذلك لم يقاطعني مرة واكمل لي من عنده بناءً على معرفته المسـبقة لباقي ما سـأقوله. قررت ان أبداً في تطبيق تلك المهارات والملاحظات مع أي شـــخص أقابله حتى تنمو محركاتي الفكرية أكثر وتجعلني مؤهلا أن أكون طبيبا نفسـيا حتى وأنا طالب او ممارس عام دون تجاوز مراحل دراسـة طويلة. شـكراً دكتور ممدوح .. أنت غيرت مسار حياتي.

***

صالة الجمناز يوم، الثلاثاء ٣ نوفمبر ٢٠٠٩

ووسـط هذه الأيام المشـحونة بالإنكسـار والبؤس العاطفي، ظهرت فتاة أمامي في الجمنازيوم.. اخذت أراقبها لشهور من بعيد في صمت. كنت ألاحظ كل تصرفاتها حتى ان كانت نظرة عينيها التي لها سحر خاص، حركة يديها عند الكلام، نبرة صـوتها.. كل شـئ. كانت الفتاة صـاحبة ملامح رقيقة وجمال باهر؛ حيث بشـرة صـافية ونضـرة بيضـاء اللون كالثلج وشـعر طويل وناعم أصـفر اللون كالذهب وتمتلك ورح الفكاهة والدعابة فكنت أراها واسـمعها دائماً ما تضـحك مع المدرب أثناء التمرين على أتفة الأسـباب.. تضـحك حتى على نفسـها عندما تعطس وتضـحك بصـوت عال جداً و تصـيب أى جسـم يتلأمس بها أثناء ضـحكها بإهتزازات. دائماً ما تجلس بمفردها وتستمع إلى أغاني مزعجة Rock n' Roll بصوت عال.

ذات مرة كنت أتمرن واراقبها من بعد كالعادة.. كانت غارقة في توهان بئر أحزانها. عطسـت عطسـة شـديدة فتحركت يداها المرتجفتان بطريقه فوضـوية وهي تمسك بكوب الواي بروتين بنكهة الشـوكولاتة وتقف على أرضـية رطبة فسـقطت على الأرض وسـقط الكوب من يدها فتحطم فنظرت حولها في خوف وكأنها سـتقول شـيئا، وإذا بالشـباب ينظرون

إليها ثم يكملون سيرهم دون أدنى اهتمام؛ فلم يشاهد أحدهم الواقعة من بدايتها او حتى يسمعها من صوت الموسيقى الذي لم يعل صوت تحطم الكوب عليه. كثيرون مروا من أمامها ولكن لم يقف أي منهم ليطمئن حتى عليها وكأن شيئاً لم يكن.

دائماً ما كنت أتمنى أن تأتي الفرصة لكي أتحدث معها ولكني كنت أفضل أن تأتي هذه فرصة بطريقة غير مباشرة لتجنب المواجهة الحقيقية منعاً للحرج أو خوفاً من الرفض. إبتسمت لها لتعرف أن الأمور على ما يرام وذهبت لأساعدها وأحدثها على عَجلٍ. وقفت أمامها وبادرتها بسلام ومددت يدي لتمسك بها وتنهض، إنتبهت لها تنهض وترد بصوت منخفض "أهلاً" بعد نظرة طويلة بعيني. جلست وأخذت الوضع الدفاعى قبل ان تتحدث معي، حيث ربعت يديها ووضعت قدمها امام الآخرى وإبتسمت وردت:

– انا اسفة.. لا ادري كيف سقطت، لا استطيع التركيز اليوم بسبب قله نومى ليلة البارحة.

لاحظت عدم ثقتها بنفسها، فالأشخاص الواثقون من انفسهم لا يبررون ابداً افعالهم إلا للاشخاص المعنيين وانا لست معنيا بالأمر. علاوة

على ذلك، شـعورها بعدم الثقه بالنفس جعلها تربع يديها وتأخذ الوضـع الدفاعي وهي تتحث معي. كلها من علامات نقص الثقه بالنفس..

– أهم شي انت بخير ولايهمك.

– الحمد لله، شكراً.

– لا تشكريني، لم افعل سوى ما يجب عليّ فعله.

لم تحاول أن تتكلم بعدها ولم تقل أي كلمة، فانصرفت عنها..

كان مدربي قد وضـع ليّ برنامج تمرين بحيث ان كل يوم تمرين فى الجيم ينبغى أن يُتبع بيوم راحـة كـامـل لكن في اليوم التـالي، قررت الذهاب إلى الجيم من باب الفضـول لأرى إذا كانت هناك ام لا ونعم، كانت هناك بالفعل وبنفس مكان يوم أمس ولا تزال نظرة الضـيق تملأ عينيها.

كنت اتمنى أن لا يراني لكن اقترب مدربي مني ووضـع يده الغليظة على كتفي وقال:

- مـا الـذي أتى بـك اليوم يـا «وحش» فـاليوم يوم راحتك.. يبـدو أنك تهوى الشقاء.. أليس كذلك؟

- ابداً يا «كوتش» فـــأنا لا أتحرك بشكل كاف، لأني أذهب إلى أي مكان بالســـيارة.. أجلس على مكتبي فى المنزل او في المقهى.. فالأمر ليس أني اسـتحق أياما للراحة بقدر أن الراحة الـــتي يحتاجها جسدي، يحصل عليها بالفعل وربما أكثر من اللازم.

فخبطني بشدة على صدري وهو يقول: "عاش يا بطل".

اليوم قد اتيت مخصـوص من أجلها فقررت أن أتحرك وأسـير بإتجاهها كنت اشـعر بقليل من الخوف ولكنى تذكرت كيف كنت اركل أي شـئ يقف أمامي ندماً على عدم جر كلام وفتح المواضـيع معها. وضـعت كلام الدكتور ممدوح عن تمثيل الثقة صـوب عيني وتوكلت على الله فذهبت وقلت لها:

- كيف حالك اليوم؟

تغير وجهها فإبتسمت وفرحت: "أنت؟ الحمدلله..".

- هل تأتين هنا كل يوم؟

- نعم، كل يوم ماعدا في عطلة نهاية الأسبوع وايامي الFree.

كانت تبدو حزينة ومنكسـرة فسـألتها: ما الذى يضـايقك؟ فردت وقالت: "ابداً ليس عندى ما يضايقنى وأنا دائما سعيدة الحمد لله".

– لا أنت فقط تحاولين التعويض عن شـــعورك بالحزن حتى تبدين و كأنك فى قمه ســـعادتك. فكل شـــخص يحاول أن يبدو وكأنه خارق للطبيعة فى الغالب يحاول أخفاء شئ ما ينقصه، وأنت تنقصك السعادة لذلك فأنت تبتسمين لأخفاء ذلك الآن.

إبتســمت لي ابتســامة بســيطة معناها انها قد فهمت ما دار في فكري بخصوصها. فبادرتها بسؤال آخر:

– ولماذا أراكِ دائماً وحيدة؟

– ليس لدي اصدقاء.. تعلم؟ لا احد يرغب بي لكثرة بشاعتي.

– أنتِ رائعة الجمال، لا تحتاجين ســوى ان تكوني ســعيدة؛ أنت جميلة من سعادتك ولست سعيدة عندما تتجملين.

إبتسمت بخجل وتورمت خدودها: Thank you.

– انا شـريف شـهاب طالب مقهور في كلية الطب وكنت أعيش مقهوراً ايضـــاً فى الســـعودية وأعيش الآن وحيداً هنا في ألماظة واهلي مازالوا متغربين..

– انا هايدي العوضي بنت وحيدة لـــ أمي وأبي رجل الأعمال صاحب

شركات الإستيراد والتصدير أحمد العوضي.. لدي صديقة واحدة مقربة وعزيزة علي، فهي مثل اختي؛ لدي صديقات آخريات لكنهن لسن بقربها، أنا أغار عندما تذهب مع الآخريات لكن لا أظهر لها ذلك ابداً وأقنع نفسي دائماً بانها ليست ملكي وحدي هي حرة بما تفعله؛ كل شخص حرّ..

لاحظت من كلام هايدي أنها شخصية ينفر منها محيطها وقد تظل وحيدة دائماً. هي تكره الوحدة ولكنها تفضلها على ان تكون مع أشخاص يتسببون لها بآلام ومتاعب. لأحظت من كلامها القليل أن نبرة صوتها منخفضة وثابتة. فى لغة الجسد تسمى Monotone وإذ لم يكن حديثها به جاذبية للمستمع فإن ذلك يبعث بالملل الشديد عليه ويقلل رغبته في الأستماع وهذا من الممكن أن يكون عاملا كبيا منفراً للناس منها. تخيلت وجهها الجميل على قوام ممشوق، وعزمت أن أراهن نفسي وأقبل بالتحدي وأن أكون نقطة تحول في حياتها واجعلها لي، وكنت متشوقا أن أمارس معها دور الطبيب النفسي الذي تعلمته مؤخراً.

وبقينا على هذا الحال لفترة ليست بالطويلة نتقابل ونتبادل الحديث في الجيمنازيوم وعلى الهاتف حتى منتصف الليل وأحياناً حتى الصباح الباكر إلى أن جاء يوم باردا ضحكنا فيه معاً ونحن نقف أمام

الجيمنازيوم ثم دعوتها للدردشـــة على فنجان قهوة ســـاخن في هذا الجو البارد في مقهى حســـام لنبعد البرد عنا قليلاً وبدأنا التحدث فكانت خجلة وخائفة ولكني حقا كنت أريد أن اعرف المزيد عن تلك الفتاة سألتها عن نفسها اولاً، ففتحت لي قلبها كان المقهى خال من شدة البرد.. كنا وحدنا وكان المقهى هادئا جداً على غير المعتاد فكسرت الهدوء بصوتها:

أعلم جيداً أن شـــكلي ليس جذاباً بأية حال من الأحوال، لا أذكر أن علاقتي بزملائي كانت جيدة طوال حياتي حتى عندما كنت طفلة ولكنها بدأت تزداد نفوراً أكثر فأكثر فالـــــــHigh school. وذات مرة حين تشـاجرت مع زميلة في الفصـل قالت لي بكل إحتقار: أصـمتي.. أيتها الســـمينة. كنت دائماً الفتاة الأكثر دخولاً في المشـــاجرات بينهم لكني يومها صُدمت بالحقيقة التي صفعتني بها زميلتي ونزلت كلمتها كالسهم القاتل على قلبي.. سكت حينها لوهلة والدموع تغرق عيني.. ثم أشتعلت النار في صـدري فأندفعت إليها وأسـقطها ارضـاً وانهلت عليها ضـرباً حتى لا يلاحظ أحد دموعي وحين عدت إلى بيتي دخلت إلى غرفتي بكل هدوء وأغلقت الباب علي ثم نظرت جيداً إلى المرآة.. نظرت إلى جسدي السمين..مررت يدي على شعري المنكوش من أثر المشاجرة ثم نظرت إلى وجهي المتنفخ وتلمســـت صـــدري الكبير.. لم أجد علامة

واحدة للجمال أو الأنوثة.. شـعرت بعطف كبير على نفسـي ولأول مرة أخذت أبكي بحرقة ولم يشعر بي أحد.

كنت أعلم أني لسـت على أي قدر من الجمال.. لكني لم أكن مسـتعدة لتحمل المزيد من الإهانات في حياتي بسبب ذلك.. كنت اسـأل الله؛ ما هو ذنبي حتى أُظلم بهذا الشكل؟ ما هو ذنبي حتى ينفر مني جميع من حولي بسبب ضخامة جسدي الذي كان بمثابة نقطة ضعفي التي دائماً ما كان يمسكني منها الآخرون. هذا ما جعلني أحقد على العالم أجمع.. حتى أمي التي لم أسلم من تعليقاتها يوماً..

مرت مرحلة الـــHigh school مليئة بالمشاحنات وكان دائماً ما تخرج من عيني نظرات الحقد على الجميع حتى أصـــبحت منبوذة.. كنت كالقطة المفترسة المستعدة لمهاجمة أي شخص يسخر أو حتى يقترب منها.. كان بداخلي قطة أليفة حزينة لكنت كنت أخفيها بداخلي وأتظاهر أمامهم بمظهر القوية التي لا تأبه بما يقوله الآخرون عنها وهي تستطيع ان تخرس السنتهم في أي وقت.

وحين ألتحقت بالكلية.. بدأت أشـــعر بالتعب وأنني لم أعد أتحمل القدرة على إرتداء قناع القوه بعد وأني لم أعد قادره على التمثيل أكثر من

ذلك.. بات دور القطة المفترســـة صـــعباً ومؤلماً إلى أبعد حد ولم أكن قادرة على تقمصـه بعد ذلك ولسببٍ ما لا أعرفه بدأت أشـعر بالإنكسـار والهدوء ثم الإنعزال التام كنت اتمنى أن ألتحق بكلية فنون تطبيقية وان أكون مصـورة فوتوغرافية فأنا اعشـق التصـوير لكن أبي رفض ومارس ضـــغوطه معي حتى أقنعني بأن ألتحق بكلية التجارة وإدارة الأعمال حتى أساعده في ادارة شركاته. كنت أجلس في أخر قاعة المحاضرات بالكاد أعرف أحداً من زملاء الفرقة وبالكاد يعرفني احدهم كنت متجنبة أن أسبب أي أذى لأحد أو أن أتعرض أنا لأذى نفسي من أي شخص.

كنت اقرأ قصـصـا رومانسـية وذهبت إلى تخيلات حالمة جميلة حول قصـــص الحب.. واقتنعت أنه الشـــئ الجميل الوحيد في هذة الحياة المريعة التي لا تخلو من الألم ولا تصـفو لي أبدا وكنت كلما غرقت في هذا التفكير أكثر، كلما شعرت بالأسى والحزن أكثر فأكثر على نفسي، وشـــعرت أني إنســـانة ناقصـــة غير قادرة على تبادل الحب كغيري، وبالتالي غير قادرة على تحقيق مرادي الوحيد الذي أتمناه من الحياة. جلب لي هذا التفكير إهمال كل من حولي حتى تردى مستواي الدراسي من أول ترم.. وإنقطعت علاقتي بشـــكل أكبر مع كل الناس حتى أفراد أسرتي.. أصبحت دائمة السرحان في حالي وحين أجلس بمفردي كان

يصعب عليَ حالي وأشفق على نفسي وأبكي حتى أن صحتي بدأت تتأثر هي الأخرى، كرهت الطعام فكثرت أمراضي وساءت تغذيتي فازداد وجهي شحوباً.. مما زاد اكتئابي أكثر وأكثر. وذات مرة أصرت أمي أن احضر معها إلى حفل زواج كبير. كنت في البداية معارضة للفكرة تماماً. فأنا عزمت أن لا أحضر أي حفل زواج منذ أن كنت في المدرسة لأني لا احتاج أن أشعر بالسوء تجاة نفسي وأستقبل المزيد من نظرات الأستعجاب واسمع همسات الشفقة من الأخرين.. لكن امي – ولأول مرة– أصرت وبشدة ربما لأنها كانت تريد أن تخرجني من حالة الانطواء والحزن التي كانت تغيم عليّ حياتي وتجهلني ابدو مثيرة للشفقة. شعرت أني في مأزق كبير لكني أُجبرت نفسي على ارتداء فستان قديم كان ضيقاً عليّ. حاولت وضع بعض الـMakeup لكني لم أعرف كيف.. وحين حاولت كنت ابدو كمهرجة مضحكة.. غسلت وجهيي من الـMakeup ومعه دموعي ثم ذهبت مع امي إلى قاعة الحفل كما أنا بدون اي Makeup وبقيت صامتة طوال الحفل أجاهد عيني ان لا تدع دموعي تنزل امام الناس حين أرى البعض منهم يتهامس وينظرون إليّ في شفقة.

زاد صوت بكائها أكثر، كان قلبي يتقطع وينخلع من أجلها لم أتحمل

فمســـكت يدها المرتجفة الباردة ودفعتها نحو صـــدري وعانقتها بدفء وشعرت بيدها تمسك معطفي بكل قوة، مر بعض الوقت زاد الجو برودة ولكني كنت دافئا بها، ابتعدت عني وأبعدت يديها أيضـــاً وكان اثر قبضـتهم لازال واضـحا على معطفي سـالتها بهدوء هل أنت سـعيدة يا هايدي؟

السعاده هي اقل بكثير مما استطيع ان أصفه لقد شعرت بشعور غريب حقاً وأنا بين ذراعيك.. شعرت بسعادة كأني طائر جاء من السماء فوقع بين يديك..

– وهل تشعرين بتحسن بعدما حكيت لي ما يؤلمك؟

اجابت بصوت مبحوح: Kinda.

– يجب أن اكون قوية أكثر من ذلك ولكني حقاً احتاج إلى البكاء

– لا بأس يا هايدي الجميع يحتاج إلى هذا في وقت ما.

إبتسـمت بخجل وشـكرتني على القهوة وبدأ المقهى بالإزدحام، لم نتحدث كثيراً كنت ســـعيدا فقط بتواجدي معها وفجأة جائت لحظة صـــمت ثم صاحت هايدي كأنها تذكرت شيئا للتو ولم تعطني الفرصة لأرد عليه:

– تأخرت كثيراً، يجب أن اذهب الآن اراك لاحقاً.. وانصرفت بسرعة.

كم أريد أن أشـــكر أصـــدقاءها.. فهم أرادوا أن يجعلوها تخســـر وزنها فأحضروها إلى هنا حتى اقابلها.. أنهم حقا رائعون، في المساء صعدت لشـــقتي.. كنت في غرفتي على ســـريري ولازلت أفكر فيها وكان نومي متقطّعا ولم اســـتطع النوم من كثرة التفكير، لذلك خرجت وعدت للمقهى جلســـت على طاولة مقابلة للشـــارع من المفترض أنها ســـتمطر اليوم.. كان الجو شـــديد البرودة كنت أرتجف لكني بقيت اعتقاداً مني أني ربما اجدها هنا لنكمل حديثنا.

لم يكن إنجذابي لها إنجذابًا جســـدياً بحتاً، أي أن اكون قد إنجذبت فقط نحو مفاتنها، فهي ســـمينه جداً ربما يبلغ وزنها أكثر من مائة كيلو جرام و ربما يزيد عن ذلك.. ذراعها مثل فخذى وأصـــابع يدها مثل أصـــابع قدمى. صـــاحبة خدود ســـمينه وممتلئة وليســـت جوفاء إنماء تبدو وردية اللون كـالتفـاح، ولكنهـا كـانـت تبـدو لي رائعـة ومثـاليـة على الرغم من مخالفتها لكل مقاييس وشـــروط فتاة أحلامي كما كنت أتمناها أن تكون. تغاضيت تماماً عن كل ذلك كنت فقط أتمناها أن تكون لي. كنت حينها أملك عضـــلات بطن مثالية six packs كالتي يتمتع بها أبطال أفلام الآكشـن وبطولات المصـارعة والفنون القتالية. كنت أحرص على القيام

بتمارين لزيادة الكتلة العضلية حتى تعطيني ما يسمى بالجسم المنحوت او الممشوق. كنت حقاً أبدو رائعاً وفي قمة رشاقتي وعلى العكس كانت حركتها بطيئة ومحدودة وتسير بخطى ثابتة لا تتغير فإذا اسرعت من خطوتها، تَنْهُج وتتنفس بصعوبة ولا تستطيع الكلام وتتحرك فقط فى خطوط مستقيمة متقطعة مثل إنسان آلي صنع فى الصين. الطعام عشقها الأول ودائماً ما يملأ فمها وتأكل بشراهة ولا تشبع بسهولة.

***

الجمعة ١ يناير ٢٠١٠

اتصلت بي وكانت تنتظرني تحت بيتي في سيارتها لنخرج معاً ونحتفل برأس السنة. فطلبت منها أن تصعد لشقتي حتى لا تنتظرني طويلاً في الشارع بمفردها حيث كان الجو شديد البرودة، حتى ألبس ملابسي.. فوافقت دون تردد وعندما صعدت صرفنا نظر عن الخروج لسوء الأحوال الجوية وشدة المطر والرياح في ذاك اليوم.

أُتاحت لي الفرصة للتعبير عن حبي وتدليلي لها.. عزمت أن أجعل يوم لقائي بها في شقتي يوما عالقا في ذاكرتها إلى الأبد. أخرجت طقم الصيني المميز وأدوات المائدة التي كانت امي تحفظها للمناسبات الخاصة في «النيش» وأعددت المائدة كأنها مائدة في أغلى مطعم. ووضعت في منتصف المائدة مزهرية من الورد الأحمر. وأحضرت الشموع ووزعناها في الغرفة التي سنتناول فيها الطعام. ساعدتنا الإضاءة الخافتة للشموع ورائحتها الجميلة على الإسترخاء وخلق مناخ من الدفء والرومانسية.

كانت ترتدي معطفا اسود غليظا وقبعة. استقبلتها بعناق حار كانت قادرة على إحتوائي وتقديم الحنان والألفة المفقودين لدينا.. قلت لها:

– انتِ تبدين لي رائعة لا أدرك كيف لا يختل الآخرون ولا تضـــطرب قلوبهم او يصـــابون بالجنون من ســـحر عيونك يا هايدي. هل نظرت لنفسـك مثلاً في المرآة ونظرت لهم وتمعنت ودققت النظر وأيقنت الفارق بينك و بينهم ثم لعنت اليوم الذي جمعك بهم فمسكت المطرقة وضـربت بها رؤوسهم الواحد تلو الآخر؟

– تباً لي كم أنا محظوظة بك! وكم أنت رائع يا شـــريف.. أنت رائع وانا رائعه إذا فلماذا يجب ان نبقى ليلة واحدة بعيدين عن بعض؟ لا أدري ما أقول لك سوى أنك رائع.. كم أنت رائع من كل النواحي!

– عيونك الغامضة تسحرني..

– عيوني كانت غائرة والغريب أيضــاً ان تقلص حجمها؛ مُتهالكة لكنها متحمله معى لقد شاهدت نوبات غضبى وبكائي وجنونى وحالات يأسى وإحباطي قبل ان تأتي وتدخل حياتي.

مثلما أغذي جســـدي واهتم به كذلك الروح بحاجة إلى ما يُغذيها وأنتِ غذاء روحي يا هايدي، فلا تتركيها تجوع..

– أنا دائماً في احتياجٍ واشـتياقٍ شـديد لك يا شـريف وأجد صـعوبة في الحياة بمفردي.. لن أعْشَقْ سِوآكْ.

لا يمكن لهايدي أن تأخذ الخطوة الأولى في أي شـــيء فهي تعتمد عليّ إعتمادا كليا في كل شـيء فهي سـاذجة ولا تبادر حتى بطرح أي إقتراح وتوافق على كل ما اقوله. ضعفها وثقتها بنفسها كان يدفعها للبحث عن شخصية تتوحد فيها لكي تشعر بشئ من القوة. كانت تشعر بالحرمان، ثم وجدت لذة بالغة في تعلقها المرضـــي بي وهذه اللذة تمثل دافعاً قوياً لأستمرار العلاقة وبقائها على قيد الحياة. ثم أن شخصية هايدي كانت شـخصـية إعتمادية بطبعها وتكاد تكون منعدمة الشـخصـية فهي غير قادرة على القيام بأبسـط الأعمال التي تعنيها وحدها دون الإعتماد علىّ وســؤالي عن كل قرارتها اليومية وكل كبيرة وصــغيرة في حياتها وكنت أقدم لها مقدارا كبيرا من النصـــح والتطمين وكانت دائماً ما تبحث عني لأسـيرها فتدور حولي كما تدور الأرض حول الشـمس. كانت تسـتغرق بشكل غير واقعي بمخاوف من تركي لها وأن تعود لتتولى رعاية نفسـها بنفسـها وهي تعلم جيداً مدى عدم تمكنها من ذلك فيحدث لها إنتكاسـة. عرفت بالصـــدفة أنها لا تحب شـــرب القهوة وحتى لا تطيق رائحتها وعندما دعوتها إلى بيتي وافقت على الفور. كانت تجد صـــعوبة كبيرة في التعبير عن مخالفتها لي او الأختلاف معي بســبب خوفها الشــديد والغير مُبرر من فقدانها للدعم النفســي أوالإســتحســان التي تنوله مني. كانت تذوب فيّ ذوباً فأصـــبحت تابعة أو ظلاً لي فقدت اســـتقلاليتها

تماماً فكانت فقط تحاول إرضـــائي وكنت أنا شـــغلها الشـــاغل ومحور تفكيرها تلك اشياء رائعة.. حقاً هايدي لا تستطيع العيش بدوني يوماً.

بعدما دخلت حياتها، تغيرت هايدي مائة وثمانين درجة من تصـــــرفاتها وأفكارها حتى انها اكتسبت تصرفات وأفكارا جديدة لم تكن موجودة فيها من قبل. تعلق كلً منا بالآخر كانت تفضـــلني على نفســـها وتفكر بسعادتي قبل سعادتها. بدأت هايدي بتذوق طعم السعادة التي لم تذقها في حياتها قط وشـــعرت اخيراً بالرضـــا عن نفســـها بل بدأت تحبها وتحترمها وشيئاً فشيئاً بدأت ثقتها بنفسها تزداد حتى إستطاعت أن تلقي كلمة على زملائها في اسـرة الجامعة التي إنضـمت لها. كانت تشـعر حينها أنهم لم يعودوا ينظروا إلى جســـدها بقدر ما كانوا ينظرون إلى الكلمات التي تخرج من قلبها. أصـــبحت تحضـــر جميع محاضـــرتها وتجلس في الصفوف الأمامية و تذاكر اول بـ أول. جدولها أصبح مليئاً بالأنشطة وأصبحت تواظب على الذهاب للجمنازيوم وتساعد والدها في إدارة شـــركاته يومياً فخســـرت كثيرا من وزنها الزائد. أصـــبحت لديها صـــديقات يضـــحكن ويمزحن معها دون أن تشـــعر بأي نقص عنهن. أصبحت تنظر لكل شـيء بحب وجمال، حتى انعكس ذلك على حديثها ونبرة صوتها وملابسها واهتمامها بنفسها التي أصبحت أخيراً تحبها.

وذات مرة طلبت منها والدتي مرافقتها لحفل زواج آخر. كادت ان ترفض في البداية لكني حمسّتها ودعمتها وجهزتها نفسياً للقيام بذلك. إختارت فستاناً بلون السماء حظي بتأييدي يظهر من أطرافه الدانتيل الأبيض بلون السحاب وارتديت طقماً لؤلؤياً ناعماً. سرحت شعرها الذهبي الطويل بعناية فقد أصبحت تحبه وتعتني به برفق ثم وضعت شريطاً حريرياً أبيض تتدلى أطرافه على كتفها وضعت شيئاً من الـConcealer تحت عينيها ولأول مرة شعرت بجمالها وأنتبهت لطول رموشها السوداء أمسكت بأحمر الشفاه وهي مترددة كان فاتحاً وخفيفاً وبلون الورد وضعت شيئاً منه بخفة ثم وضعت برفان عطرياً برائحة الياسمين وشعرت بنفسها لأول مرة كفتاة متألقة نظرت جيداً في المرآة وكانت لا تصدق إنها هي. كان وجهها قد تغير تماماً وأصبحت أكثر إشراقاً وعيناها أكثر لمعاناً. ماذا حدث يا ترى؟ أدركت أنه لم يكن الفستان ولا المكياج ولا رائحة الياسمين. لقد كانت السعادة التي حين تنبع من روح الإنسان فإنها تنعكس جمالاً على وجهها ومن عينيها..

وعندما سألتها عن هذا الحفل قالت لي انها كانت تسير مع والدتها بثقة وسعادة واستطاعت لأول مرة أن تشاهد الآخرين بمنظار الحب لا بمنظار الحقد والكره فلم تر أي نظرة شفقة أو سخرية من أحد فهذا كله

لم يكن ســوى في مخيلتها المريضــة. لقد عرفت أخيراً كيف تكون الفتاة جميلة حين تريد وحين تعرف أين يكمن الجمال الحقيقي داخل النفس.

***

الأثنين ٣١ مايو ٢٠١٠.

اتصلت بي هايدي لتخبرني انها انهت يوم عملها في شركة أبيها التي أصبحت تعمل وتتدرب بها كمحاسبة بدرجة مدير مالي وإداري وإنها بالصدفة ستمر بالقرب من بيتي بدون ترتيب.. فما كان مني إلا ان دعوتها أن تأتي لشقتي لنقضي الليلة معاً ولكنها لم تكن صدفة وكانت تجهز مفاجأة لي فعندما وصلت فتحت حقيبتها وقالت:

– تفضل هذة لك بمناسبة عيد ميلادك يا حبيبي.. لقد احضرت لك ساعه لتحفظ وقتك.

– ولكن هذه الساعة قيِّمة جداً وغالية الثمن يا هايدي ألا تكفي زجاجة العطر التي كنت قد أحضرتها لي منذ شهور قليلة..

– لا شئ يغلى عليك فلن أستطيع بأي حال من الأحوال أن أجمع ثمن شخص مدهش مثلك. لا أدري كيف أتمنى لك "عيد ميلاد سعيد" مرة واحدة فقط في السنة، بينما أنت تولد في كل مرة تدخل فيها حياة كل كائن يعاني من كارثة على هذا الكوكب. تشعر بمتاعبه كانهأ متاعبك أنت ثم تحاول بأفضل ما لديك أن تجعل حياته على الأرض كالجنة السماوية!

– هيا بنا لنأكل البيتزا الساخنة التي أحضرتها قبل ان تبرد.

ألماظة، الأربعاء ٣٠ يونيو ٢٠١٠.

كنت أجلس كالعادة وحدي داخل منزلي كنت بالتحديد على مكتبي اقرأ واذاكر قبل ان يغلبني النعاس وفجأة إســـتيقظت على صـــوت يحدث خارج الغرفة فنهضـــت مســـرعاً إلى الخارج كي ارى من أين يأتي هذا الصـــوت ولكني لم اجد شـــيئا فنويت العوده إلى فراشـــي مجدداً بعدما ظننت انها من الممكن ان تكون تهيئات بســـبب إرهاق المذاكرة ولكن اثناء عودتي وبمروري من امام المطبخ سـمعت صـوتا يأتي من خارج الشـقة فذهبت على الفور متسـحباً على أطراف أصـابعي بكل بهدوء كي أعرف من أين يأتي مصدر هذا الصوت فأقتربت بأذني كي أسمع ماذا يدور خارج باب الشـقة فسـمعت شـخصـا ما يرن الجرس فنظرت من العين السـحرية فلم أجد سـوى سـواد وكأن من يرن الجرس يغطي بيده عدســة الباب الســحرية لئلا أراه.. إنتظرت حتى رن الجرس مرة أخرى مع دَقَّه خَبَطَ عَلَى الْبَابِ فقلت: "من الطارق؟".

اخيراً سـمعت صـوتا منخفضـا يقول: "شـخص ما يريد معانقتك فوراً.. افتح الباب بسرعة."

ميزت صوتها.. انها هايدي! فتحت الباب فتحة صغيرة بحذر: نعم انها هايدي بشحمها ولحمها..

– ماذا بك تبحلق بي هكذا؟ هل أبدو لك شـــبحاً؟ لا تخاف لن أكلك. فقط دعني أدخل، فأنا لا أعض.

فتحت الباب على مصـــراعيه ومددت ذراعي لمعانقتها وقلت لها: لا لا يا صـــغيرتي بالعكس، أنت تبدين وســـيمة للغاية.. ما هذه الإطلالة والمفاجئة الجميلة ولماذا لم تتصلي بي؟

– أبداً.. أردت ان أُفاجئك بحضوري فحسب.

– إنني لا أكاد أصدق عيني فآجئتني فعلاً يا حبيبتي بأجمل مفاجأة.

كانت تقف أمام الباب تحمل علب البيتزا الســـاخنة التي أحبها.. وكانت تبدو هايدي ســـاخنة أكثر من البيتزا فإرتدت معطفًا لا تغلق ســـوى أول زرار فيه، فيما كان الباقي يكشـــف عن قدميها ولم يكن واضـــحاً ماذا ترتدي تحته، وهو ما دفعني للتساؤل إن كانت ترتدي "شورت" قصير أم فستانا قصيرا! واللافت كان أنها ولأول مرة تضع 'الحلَق' في أنفها.

– ارجو ألا تكون زيارتي قد أتت في وقت غير مناسب يا شريف..

– ماذا تقولين يا حبيبتي.. أنه دوماً الوقت المناسب.. ولكن ما سر هذه الزيارة غير المتوقعة؟

قالت هايدي مداعبة: أشتقت لحضنك فجئت اتفقده.

ضحك شريف ثم قال بعفوية: بحق.. لِم لم تخبريني؟

– أبداً أردت أن أقتحم عليك الشـــقة وأحضـــرتُ لك البيتزا بلحم الديك الرومي المشوي.. دعنا نتناولها فلابد أنك جائع مثلي..

قلتُ ذلك بصوت عال وأنا أضع العلب على المنضدة في غرفتي.

– نعم انا فعلاً اكاد أموت من الجوع، هل طلبت الجبن الإضـــافي مع البيتزا؟

– أجل يا حبيبي..

دخلت الغرفة فإذا بها تنتظرني على الفراش دخلت وخعلت المعطف ظهرت ترتدي فســتانا أبيض شــفافا أظهر ما ترتديه أســفله.. إذ كانت ترتدي قطعة تشبه المايوه باللون الوردي، مع فردة جورب واحدة ولملمت شعرها الأصفر على شكل "كحكة" عالية.. لا اصدق عيني! كيف جئت هنا وخلعت ملابســك بهذه الســرعة؟ حتى جوربك! لقد تركتك في التو

واللحظة عند باب الشقة بكامل ملابسكّ! مازال الوقت باكراً على التعرى يا هايدي، ليست من عادتك ان تخلعي ملابسك بهذه السرعة.. فكل مرة كنت «بتغلبيني».. لِمَ لا تجيبين؟ وما تلك البقع الحمراء في عينيك؟

– لم تتفاعل ملامح وجه هايدي مع أي مما قلت وإكتفت فقط بالنظر ببرود شديد وردت: "لا اعرف لعل ذلك بسبب السهر وقلة النوم لفترات كافية خلال الليل".

– أنت تريد أن تأكل من يدي، أليس كذلك؟

– حسناً يا هايدي مثلما تريدين يا حبيبتي..

هايدي فتحتُ علبتِي واقتطعتُ قطعة من البيتزا رفعتْ يدها ثم وضعتْها على فمها و شهقتْ بقوة وقالت: يا خبر لقد بردت البيتزا قليلاً! هل أعيد تسخينها لك؟

قالتْ مباشرة وانا كنتُ أراقب كل حركة تصدر عن صغيرتي وكنت مندهشا من أن الرعشة في يديها قد اختفتْ تماماً وصارت نبرة صوتها تتغير فتعلو أحياناً بدون داع وهي تتكلم وفيها شيء من الحدة..

– لا... لا تهتمي بشأنها.

هايدي لم تبعد يدها بل قربتها مني أكثر.. لا بل ألصـــقتْ قطعة البيتزا بشــفتي ونظراتها تهددني. كانت تطعمني بيدها وتضــع قطع البيتزا في فمي فكانت تشد شفتي بأصابعها.

حملقتُ بها بدهشـة و قلق شـيء ما قد حلّ بصـغيرتي.. ماذا جرى لها؟ نحو فمي ســاقتْ هايدي قطعة البيتزا ثانيةً وبين أســناني قطعتُ جزءاً منها مضغتُه دون أن أشعر له طعماً ولا رائحة..

إتسعتْ الابتسامة على وجه الجميلة و سألتني:

– لذيذة البيتزا ها؟

قلتُ بسرعة: أجل يا صغيرتي..

إبتسـمتْ هايدي برضـا وكأنها حققتْ إنجازا عظيماً و ضـحكت ضـحكة شــريرة بإنكتام وأرســلت لي نظرة تعني انها نجحت ثم واصــلتْ إلتهام البيتزا و طلبتْ مني مشــاركتها ففعلتُ مسـتسـلماً وأنا في حيرة ما مثلها حيرة من أمر هذه الصـغيرة التي اصـبحت نبرة صـوتها تعلو وتنخفض على غير المعتاد! و أخيراً فرغتْ العلبـة لقد إلتهمنـا البيتزا عن آخرها لكن لم أشعر بأنني أكلتُ شيئا وبعدها مباشراً قالت هايدي:

– حسناً، عليَ أن اذهب الآن..

مازال الوقت باكراً يا هايدي على هذا الاشتياق الكبير لم أشبع منك ولم اشبع النظر إليك.

بدأت ترمقني بنظرات مريبة و باردة تتحدث معي بطريقة غير طبيعية: تصرفات هايدي الغريبة جعلتني لا اتمسك ببقائها لدرجة إني ولأول مرة اشعر براحة لأنها سترحل اخيراً!

بعد ساعات حدث شئ عجيب؛ اتصلت بي هايدي على هاتفي وأخبرتني أنها في الطريق إليّ وبالفعل لم يمضِ الكثير من الوقت حتى وصلت وعندما جاءت وكانت ترتدي نفس المعطف ولكن لم يظهر شئ من تحته فكانت جميع أزراره مغلقة وقد نزعت 'الحلَق' من أنفها. ففتحت لها الباب فأخذت تنظر أمامها فوجدت علب البيتزا التي كانتُ أحضرتها أمام الباب على حاوية المخلفات فسألتني بصوت منخفض:

– هل عندك أحد؟

اجبتها بكل ثقة: لا..

– فهل أكلت كل هذه العلب بمفردك؟

كان ردي عليها بســـخرية: "لا، فقط حبيبتي كانت هنا منذ قليل وأكلناها سوياً!".

دفعتني بقوة كبيرة وأرجعتني للخلف ودخلت البيت وقفلت الباب وذهبت مسرعةً بإتجاة غرفتي..

صـرخت في وجهها: "هل كل شـيء على ما يرام؟ هل نسـيت شـيئا يا هايدي؟".

كـان جوربهـا الحريري الـذي انتزعتـه ممزقـاً وملقى على الأرض.. فأمسكته وأخذت تبحلق فيه وتفحصـه بدقة.. كنت مسـعجباً! ضـربت كفا على كف وقلت لها والعجب يعلوني:

– مـا هذا الذي جعلك تتصـــرفين كـالمجنونـة وتدفعيني بهذه القوة يـا هايدي؟

– جورب من هذا يا مقرف؟

– قلت لها مســـتنكراً ما حدث: ماذا جرى بك يا هايدي؟ هذا جوربك الذي إنتزعتيه أنت بنفسك..

عندما رأتْ هايدي إستنتكاري. أبعدتْ عني ووجهها شديد الحزن تتذر عيناه بالمطر. وفمها قد تقوس للأسفل و أخذ يرتعش قليلاً ورأسها مالت إلى الأسفل بأسى و خيبة ما سبق لي أن رأيتُ على وجه هايدي شبيهاً لهما و بصوتٍ نافذ الطاقة هزيل متقطّع أقرب إلى الأنين قالتْ: هذا جورب الفتاة التي كنت تخونني معها.. قدمت جسدي لك وتنازلت لأداء مهام غير محببة لي مقابل الشعور بالأمان معك وأنت مجرد خائن وكذاب.

وهطلتْ القطرة الأولى من سحابة الدموع التي سرعان ما تكثّفتْ بين جفنيها.. كنت مذهولا إنها ليستْ باللحظة المناسبة لأي شرح أو تفسير أو علة أو تبرير أو رفض أو اعتراض او حتى سؤال قلتُ مستسلماً مشتتاً مأخوذاً بأهوال ما يجري من حولي:

– يا هايدي ماذا جري لكِ! لا تظلميني.. إنني لا أصدق ما أراه بعيني!

لبست ملابسي وركضت إلى السلم ومنه إلى الخارج مسرعاً أحاول اللحاق بها لكنها كانت قد ركبت سيارتها وانصرفت مسرعة.

فشـلت كل محاولاتي للوصـول لها فقد اختفت تماماً كفص ملح وذاب. جن جنوني بحثت عنها كثيراً واتصـــلت بها مليون مرة، يكون هاتفها مغلقا فرجحت أنها غيرت رقم هاتفها وبعد فترة ذهبت إلى إدارة الجمنازيوم وسألت عنها فأخبروني بأنها لم تقم بتجديد الإشتراك.. قلت لهم أني قد وجدت أحد متعلقاتها فطلبوا مني تسليمه قلت لهم أنه مجرد فردة جورب.. فكان ردهم: "هايدي إبنة العوضـــي بيه لن تهتم بتلك الجورب فبإمكان والدها ان يشتري لها مصنع جوارب بدلًا منه". أخذت فكرة الذهاب إلى شـــركة والدها تراودني حتى نفذتها ووقفت أمام مقر الشركة بمدينة نصر حيث جاء موعد أنصرافها من الشركة بعد نهاية يوم العمل وأتبعتها بسيارتي وظللت خلفها أراقبها حتى رأيتها تقابلت مع شـــاب آخر في الطريق وجلس بجانبها في ســـيارتها. كنت أتوقع ذلك فشخصية هايدي الإعتمادية سريعًا ما تستعجل علاقة جديدة كمصدر للرعاية والدعم لها فور إنتهاء أي علاقة قديمة ولكني لم اتوقع أن يحدث ذلك بهذه الطريقة التي لا أجد لها تفسيرا.

كان لذلك أثرٌ كبير على حياتي؛ فبعد شهر ونصف على اختفاء هايدي أصـــبحت أُعاني من الاكتئاب؛ حيث لا أجد متعة في الحياة حتى من فنجان القهوة. المشكلة الآن أصبحت أكبر؛ حيث أصبحت أُعاني من

تردد الأفكار السيئة، والإحساس بقلّة الثقة بدأ يعود ويراودني. أما الأصعب، فهو كثرة التركيز في أشياء غريبة وليس لها معني؛ كحركة الفقاعات على «وش القهوة» وكيف يكون «وش القهوة» في منتصف الفنجان و ليس على الجوانب عند الصب. أحسبُ نفسي في الطريق إلى الجنون. أدى تركها ليّ أني اصبحت عصبياً بطريقة كبيرة حتى أني لا أستطيع أن أسيطر على نفسي أحياناً. توالت الخسائر ولم أوفق في الحصول على ترتيب بهذه السنة ايضاً بالكلية سبب ذلك إحباطا شديدا لي صرت لا أهتم بأي شيء وبقيت هكذا إنسانا سلبيا وكنت أرفض الخروج من عزلتي والإنخراط مجدداً بالأصدقاء فلم أجد امامي سوى الذهاب لطبيب نفسي وحجزت موعدا مع الدكتور ممدوح.. فالأمر أصبح أكثر من مجرد فقد حبيب وكان عليّ أن أتدارك الأمر قبل أن يزداد سوءاً.

***

الجمعة ٢٠ أغسطس ٢٠١٠.

سافرت إلى السعودية ورأيت أبي يزداد مرضاً وعجزاً وأمي تصغر سناً وتزداد شباباً. وكالعادة كانت أسوأ أيام ولم أستطع أن أفصح لهما عن أي شئ مما يحدث لي لأنهم حينها سيتهمونني بالتقصير في الدراسة ولن يبالوا بأي شئ آخر. هذه المرة لم أتلق منهم اللوم الشديد بسبب تقديراتي التي تحسنت نسبياً بعض الشئ إلا أن ذلك لم يشفع لي لكي أمارس ما أحبه بسلام وهدوء دون «تقطيم»:

– الحقائب تزداد وزنا عاماً تلو الآخر يا شريف، ليس بمقدور عمودك الفقري أن يتحمل وزنا ثقيلاً دون مضرة.. أخشى ان يؤدي ذلك إلى إلتواء في عمودك الفقري.

– لا تقلق يا أبي.. إنها مجرد بعض الكتب احضرتها معي من مصر.

– أحسنت يا شريف حيث تستطيع إستغلال الاجازة الصيفية بإنجاز الكثير من المهام وقراءة المزيد من العلم.

– إنها كتب عن علم النفس يا أبي.. فأنا اصبحت مدمنا على قراءة كتب لغة الجسد.

نظر ليّ ابي بخيبة الأمل وتكشير واضح فسألته بسخرية: ألم أقل لك يا ابي إني مدمن قراءة لست مدمن مخدرات؟

– لماذا لم تحضر معك كتب الطب؟ كان ذلك سيكون أفضل لك يا بني.

– ها هي الإجازة الصيفية قد أقبلت يا أبي.. هذا الوقت من العام ليس متّسعاً للطب.

– فرد أبي في غضب شديد وبلهجة عنيفة: " طالب الطب المجتهد لا يحصل على أجازات ابداً يا بني".

لم اشاهد في بيتنا عشقاً لشيء أكثر من عشق الجدال فما أن اطرح فكرة حتى يسارع أبي بالإعتراض والإستفاضة في النقض والتقليل من رأيي فتتحول المناقشة لمشاحنة أحاول فيها أن أثبت وبشكل مستميت أنه من الوارد ان أكون أنا الصواب وأبي على خطأ وليس دائماً العكس، فكان الصمت أبلغ حكمة. لقد فكرت كثيراً فوجدت أنه لم يعد لي مكان في هذا البيت، فقررت حينها أنه مهما حدث، فلن أعود إلى السعودية ابداً وتحت اي ظرف من الظروف.

***

السبت ٥ سبتمبر ٢٠١٠.

عدت إلي مصر بعد ثلاث أسابيع قضيتهم في جدة وكان أول مشوار لي بعد العودة لمصر إلى الدكتور ممدوح السلمي وحكيت له ما حدث بالضبط وان هايدي تركتني بعد أن بات جسدها كجسد عارضات الأزياء وأصبحت اكثر ذكاءً وإجتماعية ولطيفه وخفيفة الدم وفوق كل ذلك تعشقني بجنون والأهم أن السيناريو غريب وكان الدكتور ممدوح مندهشا للغاية لما حكيت له عن طريقة وسبب تركها ليّ.

– هذا موقف غريب لا يصدق يا شريف.. لا يمكن أن يكون هذا الموقف مفتعلا من قبل هايدي نفسها. كل ما حكيته من تناقض شديد في تصرفاتها في المرتين يؤكد ان هايدي فتاة ممتازة وتحبك بصدق ولكني أعتقد بنسبة كبيرة ان مشكلتها الوحيدة انها مريضة نفسياً.. للأسف يا شريف القدر جمعك بفتاة مريضة بالفصام. والمشكلة ليست في مرضها فحسب بل المشكلة الكبرى تتمثل في انها تنكر مرضها بالفصام مثلما أنكرت وجودها معك في الشقة لأول مرة وتدعي أنها ليس لديها أي مشكلة، وتعتقد أن المشكلة بداخلك أنت وفي كل المحيطين بها وأنهم جزء من مؤامرة كونية عليها.

– لكني مازلت احبها بجنون يا دكتور واعتقد اني إن وافقت ان تتركني وشفيت بعد ذلك من مرضها هذا سأندم ندم عمري على فقدانها. ولو وضعت أي فتاه اخرى سليمة بجوارها فلن أميل إلا لسواها. هايدي كانت بالنسبة ليّ أهم شيء في الكون. لا أعلم لماذا كنت أحبها لتلك الدرجة مع العلم أني لم أسع للتعرف عليها من باب التعرف على فتاة كما حدث مع سيادة.. إنما كان شيئا خارجاً عن إرادتي تماماً.

– هذا هو الأفضل لك يا شريف.. دعني اسألك؛ ألا تخش إذا تزوجتها ولم تشف وتعيش حياتك تتألم من أجلها؟ انت بالفعل حزين عليها جداً وقبل حتى ان تكون زوجتك او هناك أى إرتباط رسمي يجمعكم.. ألا تخشى ان تحملها مسئوليه شديدة تتعبها اكثر بعد الزواج منها؟ ألا تخشى أن مع إستمرار المرض و معانتها تندم على انك تزوجتها من الأساس؟ ألا تخشى ان تتعبك بعض طباعها المسئول عنها مرضها فتنفصل أنت عنها في فتره الخطوبة او الأسوأ وهو بعد الزواج منها فتسوء حالتها أكثر؟

– أمامك فترة نقاهه قد تطول إلى درجة انها قد تصل إلى وقت ما يقارب عمر العلاقة بينك وبين هايدي ككل. لكي لا تطيل هذه الفترة تجنب تذكر المواقف والأحداث أو قراءة رسائلها القديمة والإستماع

للأغانى العاطفية فإن تلك العوامل لن تجعلك تنسى سريعاً. عليك أن تخرج للعالم الخارجي وترى وجوهاً جديدة لأشخاص جدد لأن تواجدك فى المنزل لفترات طويلة سيعطيك وقتاً كبيراً للتفكير والتذكر والبكاء على الماضى. فأخرج من بيتك وانت فى أفضل ملبس وأفضل حذاء، ومع رسم إبتسامة خفيفة على وجهك. إذهب إلى المقهى واجلس في الركن البعيد الهادئ. فإن ذلك يرفع من روحك المعنوية ويحسن مزاجك بشكل كبير. وأهم شيء هو أن ترى وتتعرف على أشخاص جدد، فعندما تخرج ترى الناس سوف تُدرك أن هايدي ليست هي الوحيده ذات العيون الجميلة والصوت الرقيق فهناك الكثيرون مثلها. وأحذرك من ان تبدأ تشعر أنه لا داعى للإعتناء بنفسك ومظهرك حتى لا تصبح أقل جاذبية وإبهاراً للغير، مما يؤدى إلى تقليل ثقتك بنفسك.

بالفعل استخدمت آلامي لمصلحتي واصبحت أقوى من ما كنت وعاودت الذهاب إلى المقهى ولم اقم بتجديد إشتراكي في الجمنازيوم الذي قابلت فيه هايدي وأنتظمت في الذهاب إلى جمنازيوم آخر حتى يرفع ذلك من ثقتي بنفسي وانسى هايدي تماماً. ووضعت كلمة الدكتور ممدوح صوب عيني ومازالت عالقة في ذهني: "ستستمر الحياة بلا تلك الفتاة كما استمرت من بعد من سلفتها وظننت حينها أنها لن تستمر".

الخميس ٩ سبتمبر ٢٠١٠

قررت الخروج من حزني وعزلتي عن العالم الخارجي وذهبت في صباح اليوم التالي لشرب فنجان قهوة في المقهى وهناك إستقبلني حسام بحرارة المحب لأكرام الضيف ولكني كنت منشغلاً بشئ آخر وهو أني وجدت فتأة جميلة تعمل نادلة في المقهى :

– ياااا يا شريف «حمدله عالـ سلامة» يا أخي..

– وحشتني يا حسام ووحشني المقهى.. هناك أشياء كثيرة تغيّرت.

– ولكن لم يطل سفرك هذه المرة إلى السعودية وعدت قبل بدء الدراسة بفترة وجيزة..

– أرجوك يا حسام لا تذكرني بالسعودية وأيام السعودية يا لها من سيرة ! أخبرني آلان ما الجديد لديك؟

– كل شئ على ما يرام يا صديقي..

– ومن هذه الفتاة التي أحضرت لي القهوة؟

– تقصـــد ميار؟ كانت تعمل خادمة في المطبخ منذ شـــهور ولم يرها أحد.. كانت نوعاً ما أفضـــل من مريم التي اعطيتها راتبها وســـرحتها تتوكل لأن عملها وتصـــرفاتها كانت مثل وجهها.. أما ميار فهي فتاة ممتازة نظيفه ومرتبة وطباخة ماهرة وتجيد التعامل مع الزبائن لذا كافأتها بالنزول للصـــالة ووجدتها أمينة جداً لدرجة انني افكر بجدية أن أعطيها مسئولية الحسابات و«الكاشير»..

إبتسمت له ابتسامة صفراء بلهاء سخيفة وتطل منها سعادة خبيثة: نعم تلك هي السيرة العطرة يا حسام..

أخذت اراقبها من بعيد في صـــمت؛ اســـمها ميار عثمان.. وتعمل من الساعة الثانية عصراً إلى الساعة العاشرة مساءً. وتلقى معاملة خاصة من حســـام.. يأمر وينهي من يشـــاء وكل الموظفين يخشـــونه لكن يأتي لميار وينخي لأنوثتها المتفجرة.

جلســـت في الركن البعيد الهادئ وطلبت قهوتي المعتادة وبدأت أتأمّل تلك المتغيرات غير المعتادة.. فكان من المعتاد ان يقدمها ليّ النادل جمعة واليوم تقدمها ليّ يد ميار الناعمة.

أشـــرت لها لتأتي ولكنها كانت تحمل في يدها صـــينية عليها كوبايات

وأطباق فارغة كثيرة.. أشارت لي برأسها بالإنتظار ولكني انزعجت من إشارتها هذه وشعرت أنني لست مهما فصحت قائلاً بحزم ونبرة حادة: أريدك ان تآتي الآن فلن أنتظرك حتى تآتي العام القادم ثم أن هذه ليست أول مرة.

فجائتني على الفور قبل ان تصل للكاونتر ومازالت تحمل الصنية:

– أنت على حق يا فندم أنا آسفة والله أعذرني.. لم ار حضرتك في المرات السابقة.

– لا يهم أنا لست بغريب.. انا زبون دائم بل وصاحب مكان.. انا الدكتور شريف صديق حسام المقرب.

– اهلاً وسهلاً بحضرتك يا دكتور هذا اولاً وثانياً أرجو أن تكون قد قبلت إعتذاري.

– حصل خير لا توجد مشكلة.. أنا متأخر وعلى موعد مهم.

– دقيقة واحدة أدخل الصنية واحضر لحضرتك الفاتورة.

– لا داعي أن تعودي للكاشير.. أنا طلبت قهوة تركي دبل ولا أريد باقي..

– حسناً.. خمسة عشر جنيها يا دكتور.

فأخرجت محفظتي وقمت بإخراج ورقة بـ مائة جنية ونظرت إلى عينيها فوجدتها تبربش بطرف عينيها على المحفظة بإشـتياق شـديد كما ينظر الطير إلى اللحم فمددت يدي لكي أعطيها إياها ولكنها نظرت إلي و قد إرتفعت عدسـات عينيها قليلاً للأعلى وقربت الحاجبين من بعضـهما البعض بدرجة بسـيطة وقدمت رأسـها للأمام وسـألتني في دهشـة وإستعجاب: "حضرتك واثق أنك لا تريد باقي؟!".

– نعم، متأكد جداً.

– تنحنحت وقالت بخجل: ولكن هذا كثير.. كثير جداً يا دكتور!

– لا لا، ليس بالكثير عليك.. هذا شـئ بسـيط للترحيب بكِ.. فكنت متغيبا عن المقهى منذ فترة طويلة.

– شكراً.. شكراً جزيلاً يادكتور.

– كانت الإبتسـامه تملأ ملامح وجهها الجميل وإتسـعت عدسـة عينيها كثيراً وعادوا الحاجبين إلى وضـعهم الطبيعي وأرجعت رأسـها للخلف وكانت مازالت تمسك بالصنية الثقيلة التي لم تكن لتقدر على حملها بيد

واحدة كما كنت ارى جمعة النادل الآخر يفعل ذلك فنظرت إليها ثم على الطاولة وقبل أن تحرك يديها لتضع الصنية على الطاولة. كنت قد وقفت بسرعة وقلت لها بلهجة جادة ولسان قاس: "تسمحي لي ان اضعهم لك في جيب المريلة؟".

– نظرت ميار إليّ ثمّ هزت رأسها بالموافقة.. فأقتربت منها وهمست في إذنيها وقربت يدي من ظهرها ووشوشتها بلهجة وهمست في اذنها: "تسمحي لي ان اضعهم لك في جيب بنطالك الخلفي؟".

ولكن يبدو ان الفتاة لم تكن تتمتع بحس الفكاهة فصاحت بجنون و**نظرت إلي** بغضب وأراحت الصنية على الطاولة ودفعتني من كتفي الأقرب إليها ثم بدأت دموعها تتساقت: أنت إنسان غير محترم تماماً مثلك مثل بقيتكم. ألن تتأدب؟ ألم يؤدبك أهلك ويربوك؟

تفاجأت بتدفق للدموع من عينها الجميلتين فوبخت نفسي: لماذا يا شريف؟ لماذا يا أحمق؟ لماذا اسقط دموعها هكذا؟ أريدها ان تتوقف ولكن لا أدري ماذا أفعل..

أزداد بكاء ميار وصاحت قائلة: أنا هدعى عليك كل يوم ويارب ما تفعله في بنات الناس تراه في بناتك. هل مازلت تملك شيئا من الكرامة؟

وكلمة أخيرة؛ أنت لقب دكتور خسارة أن تنادي به.

مشـيت من المقهى مسـرعاً وعيني في الأرض من شـدة الحرج وركبت سـيارتي وتوقفت بها وأنتظرت حتى موعد خروجها ورأيتها جميلة رغم فقرها فهي مازالت تبتسم.. تباً لك أيها الفقر!

ناديت عليها: "ميار" فلم ترد.. نزلت من السـيارة وأخذت اسـير خلفها واقول: "يا ميار انا أود فقط أن أعتذر لك عن ما حدث اليوم.. ممكن تسمعي لي قليلاً؟ انا حقاً معجب بكِ..".

كانـت تسـرع من خطواتهـا حتى لا ألحق بهـا ولكنهـا فجـأة توقفـت واستدارت لي قائلة:

– يا استاذ شريف او دكتور شريف او اياً كان.. انا فتاة بسيطة نشأت وسـط اسـرة فقيرة. اجئ هنا كل يوم من الحى الشـعبي الذي أنتمى له لأرى الوسـط الأرسـتقراطى الذي تنتمي أنت وأمثالك اليه وفتيات العائلات الكبرى وهن يسـتقلن سـياراتهن الفارهة امام المقهى وينزلن منها.. هن يليقون بك أكثر مني.. انا لا اشبههم أتوسل إليك أن تتركني وشأني..

حاولت إقناعها بإني أود فقط ان أصـــلح ذات بيننا لشـــعوري الشـــديد بالذنب: ما رأيك أن نجلس في مكان هادئ؟

– لا ينبغي لك أن تشـــعر بالذنب يا سـيدي.. فأنا مجرد نادلة ليس لها مشـــاعر. عليّ فقط ان أقدم القهوة لأســـيادي بإبتســـامة وكلام مهذب ولطيف مشاعري كطعم القهوة التي تشربها بدون سُكر أو حليب أو مثل اي طـاولـة قـديمـة في المقهى شـــعور أهترأت من طول مرور الزمن عليها.

لا يا ميار لا تقللي من شـأن نفسـك أو تشـعري بأنك شـخصـية عديمة المبادئ.. كان يمكن أن تسـمحي لي أن أضـع يدي عليك ودعيني أقل لك أنني لم أكن سـأفعل ذلك بكِ أبداً ولم ألمس أي فتاة من قبل. وكنت فقط أختبر رد فعلك واثبتي ليّ انك صـــاحبـة مبادئ و قيَم ولذلك أنا معجب بكِ جداً يا ميار وإذ لم تأتي معي فذلك ســـيزيد من شـــعوري بالذنب أكثر.. أنا أسف.

في النهاية قبلت من كثرة إلحاحي وركبت معي سـيارتي. وعلى الطريق مررنا أمام أحد المقاهى فتوقفنا ونزلت ودخلنا المقهى :

- ماذا تحبين أن تشربى؟

- أجابت ميار : قهوة تركي دبل مثلك.

وهنا استغربت كثيراً : كيف لفتاة فى مثل سنك أن تطلب طلبي، مازلتِ صغيرة على القهوة؟

فأجابتها ميار : مازلتُ صغيرة على أشياء كثيرة، مازلتُ صغيرة على العمل؟ فما عجبك من أمر شرب القهوة! وحضرتك لماذا تشرب القهوة؟

- لأني مدمن قهوة لحد بعيد ومن فضلك لا تقولي حضرتك.
- ابتسمت ميار وهى تخفى وجهها المحمر فرحاً وضعت يدها على عنقها وقد اشتعلت خجلاً وقالت: «حاضر».
- فنجان القهوة يا سيدتي يريح أعصابي ويساعدني على التفكير وعلى إسترداد راحتي وعلى تجديد نشاطي.
- وهل درست ذلك بكلية الطب؟
- لا لا بالعكس القهوة مضرّة في نظر الطب ولكن ليس كل ما ندرسه حقيقة وليس كل حقيقة موجودة بالفعل في عالمنا ندرسها في الكلية. أحياناً أفكر مع نفسي واقول ما فائدة كل ما ادرسه في أصقاع الأرض اذا كانت سبع سنوات من الدراسة والتدريب لا تخولني لأن أقول رأياً في طرحٍ عام يقع ضرره على أفراد مجتمعي!

إبتســـمت ميار ومن الظاهر ان كلامي قد حظي بإعجابها وقالت ليّ بصوت منخفض:

- انت تتحدث كمذيع في الراديو. تعرف؟ اتمنى ان اتحدث مثلك ومثل زبائن المقهى المثقفون الذين يتحدثون الأنجليزية بطلاقة.. أتمنى أن يكون أبنائي مثقفين ويتحدثون هكذا. ما أتمناه الآن هو أن أحصـل على مجموع كبير فى الثانوية العامة وألتحق بكلية مرموقة مثل كليتك وأتزوج من أُحبـه ويحبني وكم أتمنى أن أذهـب إلى مـدينـة الملاهي وأيضاً إذهب لل..

شريف مقاطعًا كلامها:

- احكى لى حكايتك وافرغي قلبك وما بداخله.
- قالت بتنهيدة: هاااح اشياء كثيرة..
- مثل..؟ أحكي ليّ كل شـئ وتأكدي بأن كلامك سـيظل سـراً احتفظ به بداخلي فقط.
- لا أدري من أين ابدأ.. انا فتاة انهكني الدهر واتعبني كثيراً. ولدت في بيت متواضـــع جداً وعائلة فقيرة تكاد تموت من الجوع لي ثلاث أخوات بنات وأخ ولد انا الثانية في ترتيب الأكبر ســـناً، توالت

الأيام بسرعة وأصبحت ابنة الثامنة عشرة.. أصبحت آنسة.. أصبحت أهتم بنفسي وأصبحت محاصرة بنظرات الأهل و الجيران. تقدم لخطبتي الكثير، منهم من يريد ان يخطب فتاة من عائلة فقيرة ليؤجر على ذلك فقط.. لكني اكرههم عندما اشعر بأن آحدهم يشفق عليّ.

- ولماذا تعملي خادمة لزبائن انتِ أفضل وأطهر منهم؟

أنا طالبة في الصف الثاني الثانوي وأعمل بجانب الدراسة لأغطى مصاريفى ومساعدة أهلي.. وكما قلت لا أود أن يعطف او يشفق عليّ أحد حتى وإن كان أبي.. ثم بعد التخرج سألتحق بالجامعة وأبحث عن عمل آخر.

رغم فقرك وإحتياجك للمال إلا أنكِ مازلت رغم كل تلك الصعاب تحافظين على كرامتك وشرفك وعرضك ونفسك والغنى غنى النفس ليس غنى المال. فالإنسان يقاس بأخلاقه وصفاته وليس بماله وأملاكه ولذلك فأنت في نظري اغني الناس.

إبتسمت ميار إبتسامة خجل و احمرت خدودها وقالت: الله يجبر بخاطرك.

- نظرتْ إلى ســاعتها مطولاً والقلق يعصــف بما تبقى من فارغ فؤادها الخالي من الهمّ والحزن وســـوء الحال الذي لا أمل فيه وقالت بصوت بلهجة رقيقة:

- أعتقد أننى تأخرت وأنا يَجِبُ أَنْ أذهب إلى البيت.

- انتظري سأوصلك.

رفضت ميار الفكرة في البداية خشية من أن يراها أحد ويبلغ أهلها مبررةً أن في الحي الشــعبي الذي تســكن فيه لا تُوجد أســرار تُخفى فالجميع يعرف كل شــيء عن الآخرين ويتناقلونها فيما بينهم. ولكن اقنعتها بأنه سـيوصـلها فقط إلى اقرب مكان لبيتها حتى لا يراها أحد يعرفها وتحدث لها مشاكل.

صـحيح ان بعض الاغنياء لا يشـعرون بالسـعادة و صـحيح ان بعض الفقراء لا يشــعرون بالتعاســة. تباً لك أيها الفقر. فتاة رغم فقرها إلا أنها جميلة، و لا تعرف سر جمالها.

إنها أبسط الأشياء المعقدة التى تمر فى حياتى. الحيرة شيء جيد لأنها تعطيني فرصـة أن افكر مع نفسـي. ما الذي يهمني في الحياة وما الذي يدخل لقلبي الســـعادة الحقيقية؛ أن أكون مع فتاة غنية مثل هايدي التي

كنت سـأعيش معها في قصـر أبيها ولكنها قد تكون مريضـة او قد لم يخفق قلبي لها من الأساس وعلى أثر تصرفاتها الغريبة ومرضـها قد لا أجد طعم المرح معها. او أكون مع فتاة بسيطة لكنها تشبهني وتفهمني وتقدرني وتعطيني نكهة الحياة وما يطيب لقلبي من حب. لحظة سـعيدة مع ميار تسـاوي كل أموال وثروات الدنيا. لن أهتم بالمظاهر وأضـحك على الناس وأجعلهم يروا أنني سـعيد بحياتي وإذا نجحت في ذلك يبقى السؤال هنا: هل استطيع أن أضحك على نفسي؟ كلمة وحدة؛ سأكون حقيقي. المشـكلة أن والدي قد يرفض زواجي منها بسـبب المسـتوى الإجتماعي فأسـرتها ليسـت بميسـورة الحال مثلنا. ولكن سـأخبره اني مُصـرّ على موقفي وربما أُخبره بأني لن أتزوج إلا من ميار فأضـعه في الأمر الواقع.

السبت ٢ أكتوبر ٢٠١٠

توقفت عن الذهاب إلى المقهى.. فلم أعد أطيق أن أرى حبيبتي تسـئ لنفسها في سبيل الماديات الحقيرة.. كنت انتظرها كل يوم وقت خروجها في الشـارع الجانبي حتى لا يرانا أحد من المقهى ونذهب معاً لمطعم آخر.. وكنت أقصـد أن اختار مطعما يقدم خدمات سـبع نجوم حتى تشعر بقيمة نفسها وقد أدهشتني كثيراً بتواضعها لدرجة أنها كانت دائماً تسـاعد النادلة في تجميع الفوارغ من الأطباق دون خجل او تكلفة بعد تناولنا لواجباتنا، فازداد إعجابي بها ليس لكونها أجمل بنت في الكون، لكنها مختلفة؛ فهي مجتهدة ومكافحة ومتواضعة. كم أنت جميل يا فقر!

وكأنها كانت تنتظر مني أن أفاتحها في الموضـوع فقط فأبدت موافقتها سريعاً:

- لا مانع لدي، لكنني لا أؤكد لك موافقتي.
- ما الذي يمنعك من تأكيد ذلك؟
- حسـناً يا شـريف افهم ما تقصـد قولة.. أمرك، سـأنتظر حتى منتصف الشهر الجاري، حتى احصل علي مرتبي واتركهم فوراً وابدأ في البحث عن عمل آخر.

- لا، ولا يوم واحد بعد اليوم.. لن أســـمح لك أن تخدمي زبائن أنت أفضـــل منهم مليون مرة بعد اليوم ولن تبحثي عن عمل آخر ولن اسـمح لكِ أن تعملي من الأسـاس، سـأعطيك مرتبك كل شـهر وتتركين العمل إلى الأبد.. موافقة؟

ردت ميار في لهفة وإشتياق: ماذا قلت للتو! موافقة طبعاً.

- ولكن في الحقيقة راتبي الأســاســي ســبعمائة جنية.. لا يكفوا مصاريف أهلي و أنا في الأصل اعتمد إعتماد كلي عالTips.
- ســأعطيك اكثر ما كنت تحصــلين علية كل يوم من المقهى اللعين..

إبتسـمت ميار إبتسـامة من تلك الإبتسـامات الكبيرة التي تظهر أسـناننا بشـكل ملحوظ وتخرج منا عندما نبلغ من السـعادة قمتها. حاولت إيقافها وغلق فمها ولكن لم يكن باستطاعتها أن تخفيها.

- ولا داعي أن تخبري أحدا من عائلتك على حقيقة تركك للمقهى حتى.
- أمرك، ولكن اين سأكون في وقت العمل؟
- اسمها أين سنكون! انا لن أتركك أبداً بمفردك.

- وانا يا شريف أعدك أني لن أتركك للأبد.

- ســوف تخرجين من بيتك في ميعاد العمل بشــكل طبيعي كي نستطيع ان نذهب معاً إلى الملاهي يا صغيرتي.

- فنطت من كرسيها و سقفت بيدها فرحاً وهي تقول: الله.. الله.

- ولكن هل من الممكن ان يذهب حســام إلى بيتك ويســأل عن سبب تغيبك؟

- لا هذا غير وارد.. هو لا يعرف عنوان بيتي من الأســاس. انا اعمل بدون ورق او عقد..لأن من المفترض أن تأتي كل فترة لجنة طبية من التأمين الصحى تكشف على العاملين في المطعم لكن هذا لن يحدث.

– وكيف ذلك؟ كيف تعملين بدون عقد؟

– هكذا قلت لك؛ «بالحب». انا متأكدة، حسام لا يعرف ليّ عنوانا لأن قانون العمل يلزم كل صاحب عمل أن لا يستخدم فردا دون سن الثامنة عشرة عاماً. أرأيت يا حبيبي يعتبروني طفلة دون السن!

– أبتســمت لها بأطمئنان: هذا رائع.. ولم يخطئوا انت فعلاً طفلتي وصغيرتي.

– لا يوجد رجل في العالم أجمَل منك، مهما بحثت مراراً وتكراراً، لن أجد مثلك، انني أشفق على مَن لآ يملكك وأضحك على كل من عرفك وتركك، لا زلت وكنت وأظل أحبك.

لم تشعر ميار قط أنها بحاجة لتجميل شكلها كي تبدو جميلة في نظري فكنت دائماً أجعلها تشعر بأنها أجمل البنات بملابسها البسيطة. فإن الفتاة التي تأتي من مجتمع يعاني من الفقر والفاقة ستتقبل بالقليل، خاصةً أني كنت دائماً أتحدث معها عن مستقبلنا وأن وضعنا سيتحسن كثيراً بعد التخرج والزواج منها؛ وهي أشارت لي ذات مرة أن أباها لا يريدها أن تتزوج بفقير حتى لا تتكرر الدورة وتعيش نفس الحياة الصعبة وأني سأكون له بمثابة العريس الذي لا يُرفض. شعرت بأنني «العريس اللقطة» الذى يشغل فكر ميار ودائماً ما كانت تحلم به ووجدته.. ميار لن تتركني اضيع منها بسهولة.. ولن تسمح أن أضيع منها من الأساس وهذا ما أريده تماماً. ميار أكثر حاجة من غيرها للحياة الكريمة ومتعطشة لذلك وأنا سأوفر لها حياة لا تحلم بها فعندما تفقد آخر ذرة من الشغف عندها ستتركني وهذا لن يحدث ابداً.

طلبت منها ان تأتي إلى بيتي وتحضر ليّ الأكل البيتي الذي لطالما كنت محروما منه. رفضت بشدة في البداية ولكنها وافقت بعد إلحاح

مني. كانت تسـمح ليّ ان افعل بها ما شـئت بشـرط ان لا أمس كنزا ثمينا لها من قريب أو من بعيد وهو عذريتها التي طلبت مني أن أحافظ عليها حتى نتزوج.

في وصـفها لي كانت تسـتخدم اشـياء مادية ثمينة فتقول: "أنت كنز.. انت كالجوهرة النادرة" .أعتقد أنها لم تر الخير من قبل.. عيناها فارغتان وكنت أرى نظرة الأنبهار وزغللة ولمعه بعينيها لكل شئ تراه هنا فأشعر انه سيخرج من عينيها.

- الشقه رااائعه ... أنت غنى جداً يا شريف إذن..

إتجهت ميار إلى المطبخ وفتحت الثلاجة، أرادت أن تعرف ماذا بداخلها لتطبخ من الموجود فنظرت بأستنكار إليها.

- لا تبحثي كثيراً، فلن تجدي هناك سـوى عصـائر وبعض المعلبات.

ذهبت وأحضـرت لها الكثير من الطعام من السـوق لتطهيه وفور وصـولي، فتحت ليّ الباب وتحركت نحوي بخفة وسرعه وأخذت تمسك بالأكياس من يدي وتضعهم على المنضدة الرخام في المطبخ. وطبخت لي كل ما اشتهي وبكميات كبيرة حتى لا أضطر لأكل الخارج. ونظفت

المكان كما دخلته ووضــعت الطعام بعلب في الثلاجه، وطلبت مني أن أخرجه وأسخنه فقط. وهو ما أثار تساؤلي:

- ما إن أحتاجك، ستأتين.. صحيح؟
- حركت ميار رأسها بشرود بالموافقه: صحيح.

كنت افعل كل شــئ يجعلها تشــعر دائماً بأنها أميرة متوجة تتربع على عرش الأميرات؛ كنت أقبل يدها وجبهتها وأنحني لها لأخلع لها حذائها عندما تصـل للبيت. ولم تأت لشـقتي يوماً إلا واحضـرت لها هدية كأنه عمل روتني ولا يرتبط بالضــروري بمناســبة معينة. كنت أرى في عينها ســعادة كبيرة حتى لو كانت الهدية صــغيرة كباقة من الزهور او وردة واحدة حتى أو شـيكولاتة. واحياناً كنت أفاجئها بهدية ثمينة باهظة الثمن للتعبير عن حبي لها من وقت لآخر واظهر لها أني اقدر كل ما تفعله وتتنازل عنه من أجل إســعادي وأن كل تلك التنازلات لها مردود إيجابي لديّ.

***

الجمعة ٢٨ يناير ٢٠١١

لم أكن في حاجة إلى أن أعيد إحصـــاء رزمة النقود التي يرســـلها إلي والدي شـــهرياً فكانت نظرة واحدة منِّي إلى تلك الرزمة كفيلة بما فيه الكفاية أن أســـتشـــعر أن يدا ماً قد عبثت بالأســـتيك المطاطي الذي يجمعهم ســـوياً و عندما أمســـكت بهم تأكد شـــعوري و عددت الأوراق فأيقنت أنه تم بالفعل ســـحب أوراقٍ كثيرة منهم. قد أحتاج إلى أي مبلغ في أي وقت.. فتلك الأموال احتاج إليها تحت يدي وأســـحب منها لزوم تعاملاتي التجارية ولوازم المنزل وأتركها دوماً في أي مكان ظاهر في المنزل وليس لها مكان محدد خفي. ولكن ســـرعان ما تفهمت الأمر.. أعلم جيداً شـخصـية ميار وأدرك أن كرامتها وعزة نفسـها لن تسـمح لها بأن تكشـف لي تفاصـيل أي ضـائقة مالية تمر بها أسـرتها ولذلك فإنها تأخذ من مالي ما يكفيها و تمني النفس بأن تنهي اختها الفاشلة دراستها الجامعية وتعاونها في رفع حمل مصـــاريف البيت ولو قليلاً لكن تم فصـــلها من جامعتها لأنّها رســـبت ثلاث مرّات متتالية. فميار لن تدع أســـرتها تجوع و هي تراني أرفل في شـــبعي وتبذيري. ســـرقاتها الأولى كانت طفيفة وتكاد لا تذكر؛ غير ملحوظة وغير منظورة بالمرة، ولكن من الواضح أن سكوتي جعلها تتشجع وبمرور الوقت إستمرت في شفط

المزيد من الأموال. هذا بالإضافة إلى الأموال التي تتحصل عليها مني عن رضـــا تام.. فهذا بالطبع يكفي لإعالة أســـرتها الكبيرة وبزيادة. لن أتعمد في يوم أن أغير مكانهم او اضعهم في درج مكتبي الذي لا يملك احد مفاتيحه سـواي بل بالعكس كنت أتعمد دائماً ان اضـعهم في مكان ظاهر للأعين كنت اريد بذلك ان أوصـل لها رسـالة بأنني أعرف أنها تعرف أنني أعرف أنها تسـرقني ومع ذلك لا شـئ يتغير سـوى أنني طلبت من والدي ان يرسـل لي المزيد. وظننت أنه بذلك سـيزداد حبها وتقديرها لي. حتى أتى يوم أجازتي والذي لمت نفسـي كثيراً بعده عندما اكتشـفت أن الفتاة التي كنت أعتبرها أقرب الناس لقلبي سـرقت منّي أغلى وأقيم ما أملك. كنت أتمنى لو أن أكون وضـعتهم في مكان محدد فأبحث عنهم ولا أجدهم في مكانهم فأضـطر إلى البحث في المنزل كله ثم اجدهم في نفس المكان الذي بحثت بـه في أول الأمر؛ هذا كان يحدث ليّ دائماً ولكن لم يحدث هذه المرة.. فتَّشـتُ في كل مكان في الشـقة ولم أجدهم.. لم أجد أغراضـي الثمينة التي لا انقلها معي يومياً للحفاظ عليهم وهم سـاعتي الذهبية التي أهدتها لي هايدي وسـبحتي المطعمة بالياقوت التي اهدها لي أبي واحضـرتها معي من السـعودية. تلك هم أغلى الأشياء عندي.. كنت مُتعصّبا جداً و أخذ دمي يفورغضبا وحزنا على المفقودات؛ أردت أن أتصل بمبار لأثور عليها ولكن سرعان

ما أيقنت ان عصبيتي تلك لن توصلني لأي شئ.. أخذت بعض الوقت حتى هدأ صوت ضربات قلبي ولكن مازال دمي يفور.. أتصلت بها بعد صلاة الجمعة مباشرة خشيةً أن تتصرف في تلك المسروقات وتبيعهم ويكون من الصعب استرجاعهم فتحدثت معها بلهجة حاولت كثيراً أن أجعلها طبيعية حتى لا تشعر بأن هناك مكيدة بإنتظارها عندما تأتي للشقة ولكنها شعرت أن صوتي متغير وهذا ما دفعها أن تسألني:

- ماذا بك يا شريف؟ صوتك متغير ويبدو عليه الإرهاق او الحزن..

- لا أنا فقط مرهق.. احتاجك بجانبي يا صغيرتي فهل تأتين لي الآن؟

- سيكون من الصعب جداً الآن يا شريف.. ألم تسمع عن المظاهرات والقلق في الشوارع؟

كانت مصر تشهد حالة من الإنفلات الأمني في الآونة الأخيرة ولكن إزدادت وتيرته في ذاك اليوم. لكني كنت مصمما أن تأتي يومها بأي سبيل حتى لا أمنحها الوقت الكافي لتبيع المسروقات.. عزمت أن أغريها بما تحب:

حسناً يا صغيرتي سأنزل الآن إلى الصرافة.. فقد أرسل لي أبي حوالة جديدة بالدولار منذ أيام وأريد أن أحولها بالجنية المصري خشية ان يتم إغلاق الصرافات ولا استطتيع تحويلهم فيما بعد.

- لا يا شـــريف، لا تذهب بعيداً قد أنهي ما أفعله وتجدني على باب شقتك لأطمئن عليك يا حبيبي.. إنتظرني.

- ولكني لا املك من المال بالمصري يا صغيرتي..

- لا تقلق بشأن ذلك يمكن ان أحصل منك بعض الدولارات وانا سأتولى أمر تحويلهم للمصري بمعرفتي..

خَيَّمَ الصَمْتُ على المكالمة كنت مذهولا لا أعرف ماذا أقول ولا اصدق ما أسمعه. فضحكت ميار ضحكة صغيرة مزيفة «تسليكية». أيقنت انها وضعت نفسها في مأزق وأرادت الخروج منه فضحكت ضحكة تسليك واســـتطردت: "او ربما أخبرهم في البيت بأن زبائن المقهى اليوم كانوا «خواجات»".

- لم انطق بكلمة تخص المفقودات ولكن بداخلي تأكدت أن ميار «كلبة فلوس» وتمنيت لو انها مازالت لم تبعهم بعد. بالفعل جائتني في مساء نفس اليوم كما توقعت ترتدي عباءة سوداء طويلة تغطي بها كل جسدها ونظارة شمس كبيرة تغطي كل وجهها وصعدت من سلم الخدم

الخلفي إلى المطبخ وإســـتقبلتها بعناق كالمعتاد ومضـــينا إلى غرفتي وواصـلنا عشـاءنا وكأن شـيئاً لم يكن. لم أكن أنتوي أن أفتح الموضـوع معها ولكني أخذت اســـرح وأفكر وكل ما فكرت فيه هو أن لا أحد يســـتطيع أن يدخل الشـــقة ويمرح فيها ويأخذ بعض المال ثم بعض الأشـياء الثمينة إلا ميار. ظننت أن فتاة الأسـرة البسـيطة سـتقبل بحياة القليل وليس لديها طموح.. صـــحيح أن ميار رغم فقرها كانت تملك عزة نفس وكبريـاء ولم تكن يومـاً متمردة على حـالها لكن طموحها كـان بلا حدود. دائما ما كانت تنظر إلى النجوم وتريد أن تلحق بها.

يجب أن أفاتحها قبل فوات الأوان.. لقد رتبت كلاماً جميلاً ولائقاً ولا يجرح المشاعر ولحسن الحظ هي من فتحت الكلام من ناحيتها:

- ماذا جري لشقتك لتملأها الفوضى بهذا الشكل يا شريف؟
- ضـاعت مني اشـياء مهمة جداً يا ميار. فكنت أفتش عنهم في كل مكان كالمجنون الذي لا يرى أمامه شيئاً.
- وهل وجدتهم في النهاية؟
- لا، لم أجدهم..
- هل بحثت عنهم بعناية؟
- نعم، لم أترك شبراً في الحقيبة إلاّ وفتشت فيه.

- بالتأكيد قد تمت سرقتهم ولكن لا يوجد مشلكة! ألم تسمع من قبل عن أشياء تمت إعادتها بعد سرقتها؟

- ما هذه الأشياء التي تتحدث عنهم ومن سرقهم؟

- أنت من ســـرقتهم! لماذا ســـرقتني يا ميار؟ تعرفين ما يؤلمني ليس أنك سرقتني ولكن لأنك لم تطلبي منِّي أي زيادة. وأقسم أنني كنت سأعطيك كل ما تطلبيه.

- هل تمزح معي يا شـــريف؟ إذا كنت تمزح، فأنا لا أحب هذا النوع من التهريج.

- إهدئي ولا تثوري يا صـــغيرتي أنا فقط أقول أن كان عليَّك أن تسألي قبل أن تمدي يدك علي مالي واغراضي.

- أنا لم آخذ شيئا منك ولم أسرق وليس من طبعي السرقة. أنا لم أسرق سوى بؤسك وأحزانك. هل جننت؟

- ميار انصتي لي جيداً.. الأموال بالنسبة ليّ أشياء تافهة الثمن والقيمة، ليس لها معنى عندي ولســـت بحاجة أن ترديها لي ولكن أنت سرقت مني أقيم ما أملك ولن أتنازل أبداً عن إسترجاعه..

- ردت ميار بسخرية وحدية:

– أموالك؟ هل كنت تتصـــدق بهم؟ كنت أعطيك مقابل لكل مليم أخذته منك. إني أكرهك ولم أحبك قَط يا شريف.

لا أصدق عيني، لا أصدق أذني . لا أتخيل أنني بعدما ظننتُ أن ميار تحبني بأخلاص وصلت إلى هذا الدرك من الإنحطاط والخسة والحقارة.

- تجاهلت كلامها وأقتربت منها ومسكت يدها ودفعتها نحويّ بقوة وهمست في أُذنيها.

- يالك من فتاة غبية. خسـرت ثقتي فيك وخسـرت كل ما كنت أعطيه لك.. وإذا إستمريت في هذا الغباء، سوف تخسرين المزيد.

قمت بالإمســاك بها من رقبتها وخنقتها وأســقطها أرضــاً فنظرت إليّ وحاولت الدفاع عن نفسها:

- كيف أســـرقك ثم أجيء إليك لبيتك على قدمي يا غبي؟ هل فقدت عقلك؟ قف مع نفســك لحظة وفكر بعقل.. اســأل نفســك.. من يدخل شقتك؟

- لا أحد غيرك.. ولا تحاولي فلن تســتطيعي خداعي أبداً.. إنك وبكل غباء إعتقدت أنني لم اكتشـف السـرقة بعد ولكني أعلم منذ فترة..

منذ أن كنت تسرقين من روزمة النقود وكنت أجدها ناقصة في كل مرة تأتين لي لمنزلي.

- أنت مجنون.. مريض.. مش طبيعي! هيا إذهب لدكتور نفسى يعالجك..

- لا تجعلي لسانك يلقي بقوالب طوب دون مبرر يا ميار.

- وإلا؟؟ أنت لا تَستطيعُ أَنْ تفعل أيّ شئ..

- لا تدفعيني أن أجرجرك من شعرك وأمسح بكِ الأرض إذا استمريت معي في قلة أدبك. إذا تملكني الغضب، ستخسرين أعز ما تملكين؛ عذريتك. وربما تخسرين عمرك كله وتكون مقبرتك في نفس المكان الذي سرقت منه..

فزعت ميار وشعرت بيدها ترتجف: لا أصدق انني سأموت الآن وانا لازلت لم أحقق احلامي.. أرجوك تمالك أعصابك يا شريف.

فشلت محاولاتي في التفاوض لرد ما أخذت، فصفعتها على وجهها حتى سقطت أرضاً مرة أخرى وسحبتها من يدها زاحفة على بطنها إلى دورة المياه وكنت مازلت اسألها:

– هل قمتِ ببيعهم؟ ولمن؟؟ أنطقي أيتها العاهرة.

بكت دموعاً لم تطفئ حرقة قلبي ولكن يبدو أنها مصـــممة على الإنكار فصرخت بعزم ما فيها:

– أنا لم اسرق أنت من تحاول ان تسرق جسدي.. أرجوك صدقني أني لم أسرق شيئا أقسم أنني لم أسرق شيئا وحسبي الله ونعم الوكيل فيك يا ظالم.. ربنا ينتقم منك ويكسر قلبك.

– تجاهلت كلامها وأخذت أجرها من يدها حتى وصلنا إلى باب غرفتي فركلت الباب بقدمي ليتفتح كنت أراها تزحف حتى امسـكت بقدمي وهي تبكي:

– لاااا أرجوك سـأفعل أي شـئ لكن أرجوك لا تأخذ مني أغلى شـيء أملكه؛ شرفي..

– وأنت أخذت مني أغلي أشياء أملكها.

– أهون عليّ أن تقتلني يا شـريف لكن أتوسـل إليك أتركني.. هل تعلم كم عانيت في حياتي؟

– إنحنيت لأكون بمستوى نظرها ونظرت إلي عينيها المتألمة وقلت لها:

- لا.. لا أعلم ولا أريد أن أعلم ولستِ أنت فقط من تعانين.. لست أنت وحدك من تشعرين بالألم.. أنا اشعر بالحسرة على أغراضي التي سرقتيها.

- حسناً أرجوك يا شريف دعني أذهب وسافعل كل شئ لك لكن دعني أذهب وأحضر كل شئ سرقته منك إذا كان ذلك سيجعلك تتوقف عن إيذائي وسيجعلني أتوقف عن الشعور بهذه المعاناة والزل.

- لا يا صغيرتي كان زمان.. قبل أن أفقد الثقةَ.. الثقة الآن منعدمة تماماً.. سأذهب معكِ إلى مكان ما تخفيهم ولن أتركك تخرجين من هذا الباب إلا وأنا معكِ..

- سكتت ميار قليلاً ثم قالت: "حسناً.. إني اخفيتهم في بيتي. سأرجع لك كل شئ بشرط أني لا أريد ان اري وجهك مرة أخرى".

- هل تظنين أنني سأكون ممنوناً؟ من قال أنني سأموت أن لم أر وجهك القبيح ثانيةً؟

نزلنا وركبت سيارتي وإتجهنا إلى بيتها حيث تخبئ المسروقات.. لم نتحدث طيلة الطريق وهذا الأمر ضايقني كنت انتظر منها أن تعتذر ولكنها لم تفعل ذلك ولم تكف عن البكاء لدرجة ان نفذت علبة المناديل

في السـيارة ونزلت على الطريق لأشـتري لها مناديل أخرى وأكملت في السـير حتى وصـلنا إلى نفس المكان الذي أتركها فيه كل مرة كنت أوصـلها إلى بيتها وهناك طلبت مني أن أركن السـيارة فنظرت إلى بيت مجاور وأشارت لها:

- أهذا هو بيتك؟

رفعت ميار رأسها هزتها في أسف هزّةً خفيفةً وهي تقول: لا.

فنظرت بإتجاهها متعجباً: إذاً فلماذا توقفنا؟

- ستنتظرني هنا سأذهب للبيت ثم أعود لك بكل شئ سرقته.

- لا لن تغادري هذه السيارة إلا أمام باب بيتك.

- لا يمكن يا شريف لأن بيتي في حارة ضيقة لا تتسع سيارتك..

- إذاً «رجلي على رجلك».

- وماذا إذا رأنى أبي معك؟ عندما تود الرحيل لا تخلق المشـاكل ليّ يا شريف كفى بهذا الحد.. أنت حقاً دكتور مريض وتحتاج لعلاج!

- تأدبي يا ميار وأنا أعدك أني لن أتسبب لكي في أي مشاكل سأنتظرك أمام بيتك بالخارج حتى تخرجي ومعك الأغراض وانصرف فوراً.

فتحت باب السيارة ونزلت منها وهي تقول بعصبية: «لآبوك لآبو اللي جابك لآبو اليوم الـ قابلتك فيه».

أخذتَني ومشيتَ بي في حوارى ضيقة، لا تتسع سوى للمارة الذين كانوا ينظروا إلينا وسط ترقب شديد مني. ملابسهم ممزقة، يلعبون فى القمامة، ثم يضعون أيديهم فى أفواههم ويحدقون فينا كأننا قرود في الجبلاية، ربما يعتقدون أننا عاشقين مراهقين أو متزوجين في شهر العسل لكني لا أهتم. أصبحت ميار تسبقني في السير بخطوة وفجأة أخذت تركض كالمجنونة، فهرعت وراءها وأمسكت بها فبدأت تصرخ وتجمع الناس علينا: ونظرت لي نظرة غضب مخرجة من عينها شرارة إنتقام: سأجعل رجال المنطقة يسلخوا جلدك.. «ألحقوني يا عالم ألحقوني». ففوجئت بستة أشخاص يبدو عليهم الإجرام بعضهم يرتدي بيجامات وينتعل شباشب، تقدم واحد منهم بإتجاهي وكان يبدو أنه أكبرهم سناً وقال ليّ بتهديد شديد اللهجة:

- أليس من العيب أن تتشطر على حرمة؟
- هذا ليس من شأنك.. تنح عن طريقي.
- لماذا يعلو صوتك؟ أنا فقط أسألك بهدوء.
- هل أنت أطرش؟ ليس من شأنك والآن تنحوا كلكم عن طريقي.
- أتملك الجرأة أن تسبني؟ انت يا «آمور».. نحن لا يهمنا جسمك المعضل ولا شعرك المغطى بالچل الفاخر ولا لباسك الباهض الذي تشتريه من بلاد الخارج ولا سيارتك التي احضرتها لك أمك.
- عفواً، انا لم اسب أحد أنا قلت لك ليس من شأنك وتنح عن الطريق. أبتعد عن سيرة الأم وإلا دفنتك في مكانك أنت ومن معك.

نظر إلى بعضهم وضحكوا ضحكات إستهزاء بي ولم يترددوا بقذف نظارتهم الحارقة المرصوعة بالحقد والكراهية والنيران عليّ ثم تحدث هذا الشخص إلى ميار:

- ومن أين أنت يا آنسة؟
- من «أرض الجنينة».
- وهل تعرفين هذا الشخص؟

رمقته نظرة حادة وقلت له: "ليس من شأنك يا بني آدم".

- أنا موجه الكلام لها ليس لك.. أتعرفينه؟

تراجعت ميار خطوات للخلف ثم نظرت إليّ باشمئزاز وردت علي مضض: لا أعرفه.. لأول مرّة ارى فيها كلب على شكل إنسان.. إنه يسير خلفي ويتبعني منذ أن خرجت من مكان عملي ويريد إختطافي.

لم اصدق ما سمعت لم أتمكن من أن أكظم غيظي فنظرت إليها شزراً وقلت لها: إخرسي يا إبنة الـ"..." ستعيشين لصة وستموتين حقيرة.

- قالت إنها لا تعرفك، إذاً فلا تقترب منها في منطقنا.. دعها وشأنها وإلا نشقك نصفين.

- لن أتركها.. انها لصة محترفة سرقتني.. تعيد لي المسروقات، أتركها ترحل في سلام.

- لكن لا يمكنك ان تسب الفتاة بأهلها أمامنا.. هذا خطأ كبير إذاً سنربيك ونعلمك كيف تحترم أهالي الناس.

ما كانت إلا ضربة واحدة شديدة على رأسي بواسطة جسم قوي لا أدري ما هو، فَإِذَا بي ساقط ارضاً وفقدت الوعي. بعد ساعات فوقت ووجدت نفسي ملقى على رصيف الشارع الذي أوقفت سيارتي به.. مشيت قليلاً إلى الأمام فلم أجدها. تمت سرقة سيارتي وتم الإستيلاء على هاتفي

وساعتي. نهضت مسرعاً فوجدت محفظتي في الشارع كانت ملقاة بجانبي على الأرض وبها الكارنيهات ولم أجد ما كان بها من نقود. كان الوقت متأخراً ولم اكن اعرف أين أنا في البداية لكن سرعان ما عرفت أنني في حي الوايلي.. وضعت محفظتي في جعبتي ومشيت بعيداً عن هذا المكان وخرجت على شارع رئيسي كبير سيراً علي الأقدام.. لم أكن أعرف الوقت حينها ولكني ظننت أنه بات متأخراً جداُ لدرجة أني كنت الشخص الوحيد الذي يسير على طول الطريق ولم أجد سوى مدرعات للجيش تقف على بعد أمتار قليلة وعندما وصلت لها كان قد تم ايقافي وسؤالي عن سبب إختراقي حظر التجوال المفروض على شوارع القاهرة ليلاً منذ الساعة الثامنة مساءً، اظهرت لهم بطاقاتي وأبلغتهم بتعرضي للسرقة وأتصلت بحسام فجاء لي هو ووالده في الصباح الباكر.

– يا للهول! ماذا حدث لك يا شريف؟ هل أنت بخير يا صديقي؟

– ابداً يا حسام، مجموعة من البلطجية قاموا بسرقتي وسرقة السيارة أتذكر؟ مر خمس سنوات فقط على شرائها..

– فداك يا صديقي.. أهم شئ أنك بخير.

– الحمد لله، انا لست حزينا بشأنها يا حسام خاصةً ومع حلول أيام الإمتحانات لا أفكر وأبالي فى أى شئ آخر.. سأذهب إلى الجامعة بالـ«تاكسي». وستصبح أي مصيبة لينة لطالما أن الأمتحانات تمر على خير.

– لا تقلق من هذا الشأن يا صديقي.. فقد صدر قرار بتأجيل جميع الأمتحانات هذا العام إلى اجل غير مسمى.

***

السبت ٢٩ يناير ٢٠١١

المشـكلة التي أواجهها الآن هي أنني اكتشـفت بعد كل تلك الفترة أنني لا أعرف عن ميار سـوى أن أسـمها ميار عثمان وتسـكن في منطقة تدعى أرض الجنينة. عدت إلى منزلي في صـباح يوم السبت ووصـلت إلى شـقتي فكـانـت «مكركبـة اخر كركبـة». من جراء بحثي عن المسـروقات بكل جنون.. سـأبدأ مهمة التوضـيب بعد الأمتحنات ولكن المهم الآن أين ذهب شريط الـباراسيتامول اللعين.. عندي صداع أو ألم في الرّقبة أشـعر برأسـي وكأنها سـتنفجر من أثر الضـربة. بحثت عنه في كل مكان وصـرت أفتش في كل الأركان. ثم توقفت مذهولًا، جمدت أطرافي ولم أعد اشـعر بذاتي.. إرتجفت روحي وتزعزع كياني.. شـككت بنظري ولا أكاد اصـدق عيني عند رؤياي والدموع أخذت مجراها من عيني. ركضـت وأنا لا أسـتطيع أن أفهم شـيئا.. هل كنت احمق لهذه الدرجة؟ هل أرى الأشياء على غير طبيعتها؟ هل اكون وضعت الساعة والسـبحـة في مكـان محـدد وبحثت عنهم ولم اجـدهم في هذا المكـان واضـطر إلى البحث في المنزل كله ثم اجدهم في نفس المكان الذي بحثت بـه في أول الأمر. لمـاذا ظلمـت الفتـاة بظنونني فيهـا؟ لمـاذا اسـتعجلت الحكم عليها؟ ياليتني وجدت ضـالتي قبل أن أتهمها وأسـحلها

بتلك الطريقة المذلة. ربما كانت ستجد نفسها محمولة على أعناقي. لم أعد أشعر بنفسي ولا بأي شيء سوى أني لم أعد أملك الدنيا بيدي الآن كما كنت أمتلكها من قبل. كأني كنت ملكا على عرش غرامي ولكن يا لغبائي فقد كنت حقاً بذاك المكاني العالي وبعد فقداني لأشـــيائي، يا حسرة على تلك الأيامي كأنني أغبى مخلوق في هذا الزمان. ولكن ليس أمامي سوى ترك كل شيء جانباً والتركيز فقط على إمتحاني.

كانت أمامي فرصـــة كبيرة لكي الملم اوراقي بعد تأجيل الإمتحانات وقررت أن لا اســـافر إلى الســـعودية بحجة تلأحم الســـنين القادمة وأصبحت السنة الدراسية اثنا عشر شهراً بدون فواصل تذكر. وإكتفيت بإجراء محادثات عبر الإنترنت شـــبه يومي مع أبي وأمي كان كلامهم مملا ولا يتغير أبداً تغيراً ملحوظاً حتى أصـــبح كأنه لغة جديدة خاصـــة أحفظ كلمات قاموسها جيداً كلمة كلمة لدرجة اني احياناً لا أسمتع لكلام أبي إلى النهاية وأركز في أي شـئ آخر اثناء محادثي معه لأني أعرف تماماً ما سيقوله:

- إلتزم بحضور كل المحاضرات يا شريف وأحرص على تدوين ملأحظاتك أثناء المحاضـــرة واســـأل فيها أســـتاذ المادة. لا تعتمد على

تصـــوير المحاضـــرات من زملائك. فمن الوارد أن تتضـــمن تلك المحاضرات، معلومات خاطئة أو ناقصة يا شريف.

- سأفعل ذلك يا أبي.

- ولا تكتف بالكتب الجامعية فقط يا شـــريف.. يجب أن تبحث عن معلومات إضافية سواء عن طريق الاستعانة بالإنترنت او تمضي ساعات أكثر في المكتبة، هذا ما سيميزك عن باقي زملائك يا بني.

- سأفعل ذلك يا أبي.

- وإحرص على المراجعة اليومية لجميع محاضـراتك يا شـريف حتى في حالة عدم وجود إمتحانات، فالمراجعة ســـتثبت المعلومة في رأسك. أسمع كلامي يا بني فالمحاضرات تكون بمثابة ملخص للمقرر كله، مراجعتها لن تستغرق ساعات قليلة من وقتك.

- أريد أن أذهب للنوم، أشعر بنعاس يا أبي.

***

الخميس ٧ يونيو ٢٠١٢

اليوم هو إمتحان مادة النســـاء والتوليد العملي وهو إمتحان صـــعب و شـديد الأهمية بالنسـبة لي وسـيؤثر فى حياتى تأثيرا بالغا إذا نجحت فيه إن شـــاء الله؛ ولكنى فعلاً لا أســتطيع أن أذاكر لقد اســتمرت الدراســة طويلاً هذا العام لدرجة الملل أو أنى أدخلت نفسـي فى شـيء أشـعر من البداية أنه سيكون شديد الصعوبة عليّ.. حالتى النفسية ليست على ما يرام من أحداث كثيرة حدثت ليّ وأصـبحت كسـولا جداً وأضـيع سـاعات كثيرة فى التفكير في حالي ولا أســتطيع التحكم في هذا، الحزن يلازمني ولا أعلم كيف أكون نشـــيطا وأعود للتركيز فى المذاكرة. صـــحيح أني أنزل كل صـــباح إلى المقهى لأشـــرب فنجان القهوة بعيداً عن جدران المنزل الكئيبة. وأقضـي مساء يوم الخميس من كل أسبوع بصحبة حسام وأصـــدقائه ولكن عندما أعود للشـــقة أكون ســـأموت تعباً وتكاد رأســـى تنفجر. هذا ليس دلعا ورفاهية و لكن هذا ما يحدث ليّ وعندما أضـــغط على نفســـى حتى أذاكر يحدث شـــيء من الثلاثة أو الثلاثة معاً أما السرحان أو النوم أو الجوع **الشديد**.

طلبت منه أن يوقظني في صباح الخميس.. سمعت خَبَطَه الهستيري عَلَى الْبَابِ، فتهضت من فراشي وفتحت له الباب فدخل كعادته مندفعاً ومتكلماً:

– ماذا عن إمتحان اليوم يا صديقي.. هل استعددت له جيداً؟

أجل يا حسام، إنه إمتحان مادة النساء والتوليد.. هذا التخصص من التخصصات الخاصة جداً؛ تخصص مستقل بذاته بعيد عن الباطنة والجراحة، لست مُضْطَرّا أن أعرف كل تفاصيلها.. تحفظها جيداً نظري وتمتحن والعملي الخاص بها سهل.. Clinical examination ليس له اي فائدة وتأخذ لها Sheet و History و Follow up؛ نفس الأعمالِ الروتينية المعينة تفعلهم كل مرة وشكراً.

غمز حسام بطرف عينه وهز رأسة وإبتسم إبتسامة تعبر عن خبث صاحبها ولا تعكس ما بداخله ولكني افهمه جيداً: تحب النساء يا شريف؟

– كم أكره التعامل مع النساء يا حسام وكم اكره النساء بشكل عام.. المرأة مخلوق شيطاني.. جسد جميل يؤوي بداخله أرواحا فاسدة يسكنها شعب كامل من بنات إبليس.. بل هي كائن يتمرغ في أوحال الحقد

الأسـود والكراهية الظالمة.. هي إنسـانة لا أمان لها.. غادرة، مخادعة، ظالمـة.. هي الحيـة التي تلدغ بلا رحمـة.. وهي السـم الذي يقتل بلا هوادة .. هي الطاعون والسـرطان والحمى وكذلك هي النار التي تحرق العظام وتشوي اللحم وتعذب الروح.

– لن تحلو الحياة إلا بالنسـاء يا شـريف.. انت فقط تنظر لها من الجانب المظلم. أخرج من قوقعة الماضـي وانس سـيادة وهايدي وسـترى أنهم مختلفون تمامـاً عن ما تفكر فيهم. ولكن أليس غريباً يا صـديقي أنك تسـاعدني وتسـاعد كل أصـدقائنا بحل مشـاكلهم العاطفية بجدارة ولا تسطتيع مساعدة نفسك!

أردت ان اشـرح له أن المسـألة ليسـت كما يظن وإنما إكتفيت بأن أنظر له نظرة خيبة الأمل وقلت له:

– إمتحان مادة النسـا والولادة بالنبسـة ليّ نقطة تحول في حياتي بعد أن عزمت النية أن أحضـر كل المحاضـرات وكل سـكاشـن مادة أمراض النسـاء والتوليد ومن أول يوم احاول أن أسـتفيد بكل معلومة تقال فى الكلية نظراً لإني إتخذت قراري النهائي أن اتخصـص في هذا القسـم.. فكان عليّ ان اجني ثمار ذلك..

– من الواضح يا شريف أن أمراض النساء من أكثر التخصصات المربحة لذلك انت تهتم بإمتحانه ها؟

لا يا حسام أنا لست بشخص مادي مثلك كنت سأحصل في السعودية على خمسة عشر ألف ريال كأول مرتب ولكن القصة ليست قصة ماديات..

ضحك حسام ضحكات هستيرية رنانة ونظر إليّ نظرة بلهاء لا تعني أي شيء او ربما تعني انه يدرك كم أصبحت أفهمه جيداً. كنت قد لبست ملابسي وأكملنا حديثاً ونحن ننزل معاً درجات السلم ذاهبين إلى الجامعة بسيارته حيث أصر ان يوصلني إلى إمتحاني اليوم.

- الحكاية وما فيها يا صديقي أني لا أريد العمل او العيش من الأساس في السعودية.. فقررت أن أختار تخصص النساء والتوليد. ففي السعودية تخصص المسالك البولية يطلبون أطباء ذكورا فقط والنساء والتوليد يطلبون إناثا فقط وبالتالي سأفرض الأمر الواقع على والدي الدكتور شهاب وأهرب من جحيم مجتمع السعودية بحجة عدم توفر وظيفة لي هناك.

- يا خسارة أموال الخليج..

- ألم اقل لك أنك شخص مادي؟

- ولكن هذا جنون يا شـريف.. سـتهرب من نار السـعودية إلى جحيم دراسة تخصص النساء الذي لا تهواه.

- تخصص النساء هو وسيلتي الوحيدة للهروب من هذا المأزق.

- وكيف لا تطلب السعودية رجالًا من اطباء النساء! كنت أسمع دائماً أن أفضل أطباء النساء والولادة من الرجال..

- هذا صـحيح ولكن عادات وتقاليد مجتمع غريب؛ الرجل السـعودي منهم يقصـر وينشـد الكمال فيأتي من يمنع إبنته او أخته او قريبتـه بـأن تعمل طبيبـة او حتى ممرضـه ويدعي بحجج الإختلاط وغيرها ثم يأتي بزوجته الحامل او اي قريبة له ويطلب بأن لا يقربها إلا طبيبة ولا تكشـف عورتها لرجل لأسـباب أخلاقية وأحياناً في تخصـص آخر يطلب طبيبا بشـرط أن يكون معه ممرضـه، إذاً فمن أين تأتي الطبيبة والممرضـة إذا كنت أنت نفسـك قد منعت أختك او إبنتك او قريبتك من هذا العمل، لم أر مثل ذلك في حياتي.

- معقول لهذه الدرجة؟ أنتم الصفوة! أنتم الأخلاق..

- « هأو.. قالك صفوة!» لا يا حسام لسنا بائعي سبح.. الدكتور فالأول والأخِرُ إنسان ليس ملاكا سخره الله.

- عرض عليّ كثيراً أن أقف في كشـــك الولادة وأولد النســـاء طبيعي.. أنه سـهل للغاية، وحالياً أقوم بتوليد النسـاء طبيعي من الألف إلى الياء وأساعد النواب في حالات القيصرية.

- الله يوفقك ويسهلك كل صعب لك يا شريف.

- أطير أنا عالكلية.. شكراً على التوصيلة يا حسام.

- مع السلامة يا شريف..

- أراك ليلاً في المقهى.. مع السلامة.

وصلت إلى عنبر النساء والمعيدين كانوا يرددوا تلك الجملة كثيراً:

"ممنوع الكشف عالـــ حالات يا داكترة، آخَرُكوا الـــ history وتطلبوا investigationsلو احتجتوا .."

كانت الحالة التي سـأكشـف عليها سـيدة بسـيطة في الثلاثينات ترتدي عباءة وطرحة سوداء..

مازال الإستشاري يمر على الحالأت ويعطي تعليماته..

- غير مسموح للطلاب أن يكشفوا PV..

- تمام يا بيه.

أسم حضرتك وشكوتك؟

زينب.. أنا متزوجة منذ سبع سنوات وحتى الآن لم يحدث اي حمل.. زوجي أخبرني بأنه خضع لتحاليل ووجد أنه لا يعيبه شيء.

– كم سنة عمرك يا مدام زينب؟

– ثَمانٍ وعشرينَ.

–هل تعانين من أي مرض مزمن؟

لا الحمد لله.

– هل تتناولين أي دواء أو أعشابا بصفة مستمرة؟

– لا.

هل لديك فكرة إذا كانت هناك أية أمراض وراثية أو خلقية بالعائلة؟

لا يا دكتور لا يوجد أي أمراض وراثية والحمد لله..

– أي مرض قد أصبت به وتم تشخيصه؟

– كان هناك حمى روماتيزمية كل تأثيرها كان آلآم الظهرمنذ ســنوات مضت.

– هل قمت بأي بعمليات جراحية سابقة؟

– لا يا دكتور.

–هل لديك تحسس من أي دواء أو مادة معينة؟

– لا يوجد.

– هل الدورة الشهرية منتظمة أم لا؟

كانت تتغيب ويتم نزول قطرات من الدم المشــابة للقهوة.. فكان الدكتور يشـك في حمل رغم عدم ظهوره في التحاليل ولكن هذه المرة متأخرة منذ عشرة أيام مع العلم أنها منتظمة منذ أكثر من ستة اشهر .

هل تشــعرين بمغص يكاد يشــابه المغص الذي يحدث مع انتفاخ البطن وهذا بالطبع مع عدم وجود إنتفاخ؟

نعم يا دكتور كل ما اشــعر به هو مغص أحيانا وغالباً مع المجهود ألم شــديد في أســفل الظهر مع العلم أن على الغالب وجود ألم في ظهري كله وأيضاً اشعر بافرازات بسيطة ولكن لها رائحة..

– أخر سؤال: هل فقدت وزنك بشكل مفاجئ مؤخراً؟

– نعم فقد فقدت نصف وزني فَجْأَةً..

–لا تقلقي يا مدام زينب قمنا بإجراء الفحوصات الطبية اللأزمة.

– لكني يئست من إجراء التحاليل يا دكتور، فماذا أفعل؟

– إن شــاء الله ســيتحدد كل شــئ بعد الإطلاع علي إشــاعة الرنين المغناطيسى على الرحم لا تقلقي.

بعد إطلاعي على تحاليل المريضـة جاء لي الأستاذ الكبير وسألني: ها يا دكتور ما تشخيصك للحالة؟

– حالة Infertility.

– وما الـInvestigations اللأزمة؟

– الموجات فوق الصـــوتية على البطن والحوض يا دكتور حيث يقوم طبيب النسـاء بوضـع جهاز السـونار فوق البطن. او الأشـعة بالصـبغة على الرحم والمبايض: يسـتخدم فيها صـبغة لإظهار التجويف الرحمى، بإســتخدام أشــعة إكس. وفي النهاية يمكن أن نلجأ للكشــف بالمنظار الرحمى: و حينها ســـيتم إدخال منظار خلال عنق الرحم إلى داخل الرحم، ثم تقوم الأنبوب بإطلاق ونشـر سـائل لتمديد الرحم، مما يسـمح بفحص جدار الرحم وفتحات أنابيب فالوب. ولكن في هذه الحالة سنبدء بـ الرنين المغناطيسي فهو الوسيلة الأكثر دقة للتفريق بين سرطان بطانة الرحم وســـرطان عنق الرحم، الأمر الذي لا يكتشـــفه حتى الفحص المجهري.. وهنا الرنين يا دكتور أظهر خلايا غير طبيعيّة على عنق الرّحم، وتبدأ في النموّ بشـكل غير طبيعيّ. على الرغم من أن سـرطان الرّحم من الأمراض التي لا يصـاحبها أيّ شـعورٍ بالألم إلا أن الحالة تم تشخيصها بسرطان الرّحم.

- وماذا عن خطة العلاج يا دكتور؟

هذا السـرطان هو من أكثر أنواع السـرطانات إنتشـاراً في الآونة الأخيرة بين النّســاء في جميع أنحاء العالم، لذلك يُنصـــح دائماً بإجراء الفحص الدوريّ لتجنّب ظهور هذا المرض. كان يمكن أن يُعالج بنجاح إذا ما

تمّ اكتشـافه مبكّراً لكن سـنحاول السّـيطرة عليه عن طريق القيام بعملية جراحيّة، يتمّ فيها العمل على القضـاء على تلك الأورام، وذلك من خلال نزعها من الرحم، وفي حال لم يتمّ الشّـفاء الكامل، فإنّ الطبيب الجراح سيضـطر إلي إستئصـال الرّحم بأكمّله لتجنب إنتشـارة في بقية أعضـاء الجسـم او المعروف بمرحلة الـــMetastasis. خطة العلاج سـتكون كالأتي: اســتئصــال الرحم، المبيضــين، وقنوات فالوب. وإذا ما وجد الطبيب الجراح إنتشــارا آخر لســرطان الرحم، عليه إزالته. فحص العقد اللمفاوية وإذا ما كانت مصــابة بســرطان الرحم ســيتم اســتئصــالها وإستخراج سائل من جوف البطن، وإختباره لفحص وجود خلايا سرطانية فيه.

- ما اسمك يا دكتور؟
- شريف شهاب الشنبوري.
- أنت إبن الدكتور شهاب الشنبوري أستاذ المسالك البولية؟
- أجل يا دكتور.
- ممتاز يا شــريف هذا الشــبل من ذاك الأســد.. مُر عليّ في مكتبي.
- شكراً يا دكتور هذا شرف كبير لي.

مدام زينب هي الحالة اللي تعاطفت معها او أشـــفقت عليها كثيراً بداخلي.. فبعد كل ذلك سألتني سؤالا غريبا وغير متوقع:

- هل سأنجب يا دكتور؟

- يا مدام زينب لم يكن هناك أي صعوبة في تحديد بداية موضع السـرطان. فمعرفة موضـع بدء السـرطان يسـاعد في وصـف العلاج الملائم لك وكان قد يعفيك من جراحات غير ضـرورية ولكن في حالتك غالباً سنحتاج جراحة لإزالة الرحم لمنع إنتشار السرطان وإنقاذ حياتك.. أنا آسـف حقاً أني سـأقول لك ذلك ولكن سـيكون من المسـتحيل أن تنجبي..

- فزعت وصـــرخت بصـــوت عال: لاااا لن أزيله وأرفض ذلك تماماً..

لم تتقبل المرأة المسكينة لفكرة الحرمان من نعمة الإنجاب ورفضت أن تخضع لأي جراحة لأستئصال الرحم. كانت سعادتي بالغة بعد تجاوزي هذا الإمتحان بأمتياز وبكل سهولة ولكن كالعادة سعادتي لم تكتمل ليس حزناً على ميار بقدر ما كانت عيني تدمع كلما تذكرت كلمات المرأة العقيم التي كانت تعني مدى إهتمامها بمســئلة الإنجاب اكثر من قدر

اهتمامها بحياتها. ما أصـــعب حال من إبتلاهم الله بالحرمان من نعمة الإنجاب.

أوقفت سيارة أجرة «تاكسي» ليقلني إلى بيتي بعد إنتهاء الأمتحان.

تحرك السائق، وبعد أقل من ربع الطريق نَظَرَ إِلَيّ وقال بإبتسامة سمجة ربما كان يحاول جعلها خبيثة:

- تكون الشـــوارع مزدحمة يوم الخميس.. علأوة على أن هذا موعد خروج الطلاّب من مدارســهم بعد نهاية اليوم الدراســي. لذا يا حضــرة سنجد الطريق بالكاد يتحرك.

كان الإتجاه الذي نســير فيه مزدحما جداً ويُرجع ذلك إلى وجود مدارس على جانب الطريق ولكن الطريق العكســي كان يســير بشــكل جيد. الطريق مزدحم والجو خانق والكتل البشرية لا تترك موضـع قدم للتحرك بحرية.

في البداية كنت احاول أن أتجنب فتح أي حديث مع الســائق العجوز لكنه كان مشتاقا لـ انفاس الكلام:

- لـك أن تتخيّـل أنّ هـذا الكمٍ الهـائـل الـذي تراه من الطلاب

يحرصون على الحضور للمدرسة ليصابوا بكل أنواع الاكتئاب النفسى والإنهاك البدنى بعد يوم دراسى طويل، وبتحصيل علمي صـــفـــر.. أحفادي مثلهم وآلان يطلبون مني دروسا خصوصية!

أردت أن أشاركه في اي حديث حتى لا يشعر انه يُحَدِّثْ نَفْسَهُ:

– أجـل، كـل الطلاب في النهـايـة يعتمـدون على أخـذ الـدروس الخصـوصـية لعلها تسـاعدهم في تحصـيل دروسـهم وفهمها والمدرسـون باعوا ضمائرهم أمام الدروس.

– الله ينور عليك. للأسف هكذا أصبح واقعنا ثم ضـــحك الســـائق العجوز فى سخرية وإستهزاء؛

– يا ليتهم كانوا باعوه بطريقة ما، لكن في النهاية حدث ما حدث.

– لم أفهم الأمر، ماذا حدث يا حج؟

– أنـا زوجت إبنتي لمـدرس تعيش معـه ولا يعمل منذ ســـنتين؛ عمل خلالهما ثلاث مرات في كل عمل لا يمر عليه عدة أشـهر ويترك عمله ويرفض أن يعطى دروسا خصوصية، يعتمد عليّ وعلى راتبها في تدبير أمور البيت والأولاد مع أنه ليس لديه مانع صحي أو جسدي..

احمرّ وجهي من شدة الخجل فهذه أمور شخصية وذات طبيعة سرية، ثم نظرت له نظرة حانية وقلت له في محاولة للتخفيف عنه:

-أفهم أن الأمور ليست كما تبدو عليها.

لم ينتبه لكلامي وكأنه لا يسمعه، جز على أسنانه واكمل حديثه:

- طلبات بيتهم لا تنتهي يا أســتاذ، ويدفعني ذلك إلى تحمل الديون في رقبتي.. تَرَى! هذا هو حال الخوجة، - وهي كلمة قديمة كان يطلقها الناس على المعلم -.

-ولماذا لا تتحدث معه كأب؟

يرفض أي حديث في الموضوع، لا يسمع لأحد، ولا يطيق مناقشتي أو مناقشة والده في الأمر.

وكيف تتصرف مع إبنتك يا حج..؟

إبنتي يضـــيق بها الحال بين الفينة والأخرى وتشـــعر بالذل والمهانة. تخاف أو بالأحرى تخشى من المناقشة الحادة بينها وبينه.

- الحقيقة يا حج ليس أمامك إلا الصبر.

-الحمد لله على كل شئ.

وقوفي على ثقافة ذلك السائق العجوز وإتقانه القيادة أنساني مشكلتي. تكاد تكون الرحلة الوحيدة في سيارة الأجرة التي لم أقرأ فيها ولم أنظر فيها إلى الساعة ولا حتى إلى العداد؛ ويكاد يكون المسار الوحيد في شوارع القاهرة الذي لم اتبرم خلاله مللاً وكرهاً من كل ما يحيط بي. ظننت انه يحاول كسب تعاطف ليغاليً في الأجرة التي من المفترض أن يتم دفعها وفقاً لطول المسافة التي تظهر على العداد في نهاية الطريق، حاله كحال سائر سائقي السيارات الأجرة فى مصر. لم يكن معي فكة، ليس معي سوى ورقة بمائة جنية، أعطيته إياها ولكني فؤجئت عندما توقفنا عند شارع بيتي، بأنه رفض أخذ مال زائد عن حقه وأرجع لي الباقي كاملاً وانصرف.

- تمر علينا أوقات طويلة فى رحلة قطار او طيارة أو سيارة أجرة تنقلنا من مكان لآخر، وفجأة نبدأ فى التحدث مع شريك الرحلة دون سابق إنذار، بل ونسرد له أسرارنا الخاصة جداً لنفترق بعدها مرة أخرى، ولكني تسألت ما السبب وراء ثقتنا فى الغرباء إلى هذه الدرجة؟

سؤال تردد كثيراً فى ذهني، ما الذى يجعلك تتحدث إلى الغريب عن

التحدث للمقربين لك، وأتضح لي بعد تفكير عميق أن السبب يتمحور فى الخوف من إفصاحهم لأشخاص آخرين قريبين، ولذلك نتواصل مع الغرباء بدافع أنهم فقط لا يعرفوننا، ومن ذلك تأتى الثقة فى عدم الافصاح لآخرين يعرفوننا، لنحصل على الراحة النفسية دون أن يُفضح أمرنا.

***

كعادتي كل يوم خميس، عدت إلى المنزل مرهقًا من يوم شاق، فالضغط غير المعتاد الذي تعرضت له اليوم في الأمتحان كبس على أعصابي وأدى إلى إنضغاط الأوعية الدموية التي تغذي كل جسدي وهو ما يجعلني أشعر بتنميل في جسدي ككل. كنت في حاجة لقسطً من الراحة.. إرتميت على فراشي من شدة التعب وهول المعاناة التي خضتها للحصول على مقعد مهترئ في سيارة أجرة متهالكة كي أصل إلى منزلي لأنزل بالمساء إلى المقهى.

إستيقظتْ على صوت منبة هاتفي وكأنه صوت ملائكى رقيق على الرغم من إزعاجه الشديد.. فتحت عيني بسرعة.. أشكرك أنك أيقظتنى فى الموعد المحدد تماماً يا هاتفي العزيز إنى أحبك جداً ولن أعمل

على إستبدالك طالما أنت توقظني فى مواعيدى وخصوصاً مواعيدى الهامة. فاليوم يكون المقهى ممتلئا على أخره بالفتيات الحسناوات.

ظللت أحدق قليلاً فيما لدي من ملابس.. أفاضل وأختار ما بينهما.. هذا قد رَأَوْنِي به كثيراً من قبل.. حسناً كل الثياب قد رأوني فيها من قبل، فما العمل؟ نعم إنه هذا الطقم الذى إشتريته حديثاً يروق لي كثيراً وسيجعلنى أبدو متالقًا بشكلً كبير. أخرجت زجاجة العطر التي كانت قد أحضرتها لي هايدي وأخذت استنشقه مثل السباح الذى كاد أن يغرق واخيراً وجد الهواء.. أخذت الزجاجة ونظرت إليها بفخر لحسن ذوق حبيبتي السابقة في الإختيار، هذا مؤكد، فكنت أنا نفسي أحد إختيارتها في يوم من الأيام. أدخلت الزجاجة فى درج مكتبي ثم تذكرت كم أحببت تلك المريضة وساعدتها وتملكتني ضحكة بائسة. وبالرغم من أن هذه المره الخمسون التى افعل فيها ذلك، إلا انني لم أملُّ الإنتظار ابداً؛ نزلت على درجات السلم فى إتزان وحذر شديد وكنت لا أدرى من سأقابل وما سأفعل..

عندما وصلت للمقهى وجدت حساما كعادته يجلس في الركن البعيد الهادئ وتجَتمَّعُ من حَوْلَهُ الفتيات وكان يبدو عليهم الملل وضيق الصدر، لدرجة أن العديد منهم غادروا ثم عادوا ليجدوا أن الملل مازال

كما هو عليه.. لم يأت بعد من يكسره. قلت لهم مساء الخير، ولكن كان ردهم فاترا.. كانت الطاولة تبدو فوضى غير عادية، طفاية السجائر غَوِيطه فضية اللون مليئة بأعقاب السجائر، تكاد تكون ممتلئة على أخرها ،تظهر بجانبهم شيشة.. وأمامهم بعض المجلات.

وكان الجميع منشغلاً بلعبة بينجو للتغلب على الوقت، رد حسام بحماسته المعتادة:

– شريف كيف كان امتحانك اليوم؟ دعوت لك..

– كان أمتحانا حزينا. قابلت حالة عقم حزينة.

– كان حسام مستعجباً متسائلاً: احك لنا ماذا حدث؟ هل كان أصعب ممّا توقّعت؟

–الحمد لله يا حسام لكني أتيت هنا بعد يوم طويل لاستجم وأنسى قلق الأمتحان.. دع ما حدث في القصر العيني يبقى في القصر العيني.

– حسناً، لمن لا يعرفه يا شباب.. هذا هو الدكتور شريف.. تعالَ يا شريف إجلس بجانبي وإستخدم ذكائك للعب هذه اللعبة وإستخدم قوة

ملاحظتك فى تذكر أماكن الأرقام لتختارها مره اخرى لتحقق زمنا مناسبا فى اللعبة و نتحدى معاً هؤلاء الشباب.

نسيت آعرّفك.. رأفت، شلبي، شادي، مدحت، ندى، سارة، مودة، ولاء، ريفان، شاهي، دنيا، نسمة.

فردوا جميعهم بدون اهتمام فى نفس آن واحد: "Hi شـــريف.." وكأني مسمار صديء دخل عليهم.

لم أكن أعرف سـوى شـلبي وريفان ولكن الباقين وجوههم لم تكن غريبة عليَ فجميعهم من زبائن المقهى الدائمين وسكان ألماظة، أطلقت عليهم بداخلي أسـم الغرباء المألوفين. يعرفون حسـاما جيدًا، ويحرصـون على أن يربطهم به علاقة طيبة حفاظاً على المصـــلحة وأذكر أنه حكى لى أنه ذات مرة ســافر معهم إلى الســاحل، و عندما وصــلوا وأدخلهم إلى فيللتــه التي يمتلكهـا والـده هنـاك اختفى وتفرق عنهم بـدون إبلاغهم بالســبب، لم يهتم أحد منهم وربما لم يلاحظوا غيابه من الأســاس ولم يحاول ان يتصـــل به أحد منهم إلا عندما أرادوا العودة بســـيارته كما جاءُوا بها؛ حســام ليس ســاذجا ويعرف ذلك جيداً لكنه ســعيد بوجودهم حوله ومحاولة ارضائه.

– انسوا تلك اللعبة المملة، فلنلعب لعبة غيرها..

– «أشجيــنا» يا شريف يا عبقري..

- حقيقة لم ألعب وأنا صـــغير إلا لعبة الغميمة او الإســـتغمّاية كما تقولون عليها في مصر..

- الغميمة! اين كنت تعيش يا شريف؟

- في السعودية.. وأرجوك لا تذكرني بتلك الأيام السوداء.

- فرد أحدهم ضـــاحكاً: لماذا هل كانوا يمارســـون معك الرذيلة هناك؟

- لا أنــه مجتمع ممـل ومحـافظ وغير مفتوح ولا يوجـد بــه أي إختلاط من أي نوع.

- يا شـــريف لا تلعب دور الطبيب الذي لا يعرف اللهو علينا، فلن يعجبنا هذا الدور.

- صـمت قليلاً لأعطي لنفســي فرصــة للرد على ســخريتهم مني فقلت بداخلي أنهم بالتأكيد يعانون من عقدة النقص.. ذهبت بتفكيري إلى بعيد في شـــئ آخر غير ما يدور على هذه الطاولة لأمنح نفســـي مَزِيداً من الوقت للتفكير في الرد المناســـب، فلم يكن في بالي ســـوى ســـائق ســـيارة الأجرة العجوز، أريد أن أخرس ألســـنتهم وليس لدي أي

تصـــور لما يمكن ان يُلعب! في هذه الأثناء قلت لهم: "جاءتني فكرة غريبة عنكم بعض الشيء ولكن ستساعدنا أن نتعرف على بعض بشكل أسرع وتحتاج فقط إلى شجاعة".

- لو عالـ شجاعة؟ انها موجوده والحمد لله.. ما اللعبة؟

– نقسم الورقة على عددنا وكل منكم يأخذ ورقة ويكتب عليها سر عن نفســه لا يعرفه أحد غيره ونجمع الورق، نفنطه ويتوزع علينا.. كل واحد يقرأ سر غيره وهو لا يعرفه ولا يعرف حتى أين يجلس على الطاولة.

– كان الجميع يبحلق فيَ حتى يتم استيعاب اللعبة، فنظرت لـــ حسام وقلت له ما رأيك يا صديقي؟

– تمهل قليلاً، أنا لا أفهم ما هو الغرض من أن تخبر أســـرارك لـ أشـــخاص لا تعرفهم إلا عن طريق كوب القهوة الذي عادة ما نتناوله معاً كل ليلة خميس؟

– لقد وضعت يديك للتو على نقطة هامة جداً، فلمن تبوح بأسرارك؟ لن يعرف أحد عن أسرارك، حتى وإن أفشوا السر، لن يعرف أحد أنه أنت مهما حدث ولن يؤثر ذلك على نظرة الأخرين لك ولا على الطريقة التي يعاملونك بها.

– كلنا نحمل في طيآتنا أســـرارا لم تحك. تجعلنا نشـــعر بأننا مقيدون بسـلاسـل من حديد تلتف حول رقابنا وتقيد أيدينا. كل شـخص منا يريد فقط العثور على شخص غيره ليبوح له بـــ تلك الأسرار الثقيلة حتى تُفك سلاسل يديه فـــ يستطيع ان يحرُّر قيود رقبته بيده. الأسرار تجد وستجد دائماً الســـبيل للوصـــول إلينا والإيقاع بنا، لذلك علينا أن نجد ســـبيلا للتخلص منهم ومن توابعهم المميتة. وعندما تعرف أســـرار الآخرين، ستجد أسرارا بداخلك كنت تخبئها حتى عن نفسك. ستشعر انك لست وحيداً الذى تملك أسرارا وتخبئها بداخلك وكم هو شعور مريح أن تشعر بإنك لست وحدك من تشعر بشعور ما وإنما يشاركك أخرون ويشعرون معك نفس هذا الشعور. التخلص من أسرارك يمنحك الحرية ويخلصك من قيود الزمان.

أتدرون ما المشكلة؟ أن كل شـخص منكم لديه سـر يحمله بين أجنابه ويخفيه حتى أصـبح السـر مدفونا وعليه طبقة من الأتربة فقامت حرب داخلية في رأســـه و لكنه لا يهتم بهذه الحرب بقدر إهتمامه أن لا تكون مرئية للأخرين وتبقى بداخل رأسه فقط.

رد أحدهم مقاطعاً بسخرية: فنقول لك مبروك إتفضح سرك؟

– لا، ســـوف تجعله يرى بنفســـه أن الناس جميهم لديهم نفس الحرب الداخلية في رُؤوسِـــهِمْ مثله تماماً وجميعهم لا يفكرون ســـوى في نفس الشئ وهو هل يراها أحد أم لا؟

– أحدهن تلوح بيدها عليَّ: لا أعرف.. لكنها وجهة نظر.

– دعونا فقط نجرب فليس لدينا ما نخسره.. طاوعوني.. وإذ لم تعجبكم، لا تلعبوها ثانيةً.

– أعتقد ان لا ضرر في ذلك.. بل هذا سوف يفتح آفاقك بيننا.

صـدر حسـام قبضـة يده وهز رأسـه لي كإشـارات بالقبول.. الفكرة نالت إعجاب حسـام وهذا ما يعني اننا سـنلعبها بلا شـك والباقي هم مغلوبون على أمرهم، رأيت بعضـــا منهم من المتحمســـين قد بدأوا بالفعل في تنفيذها..

كنت أول من كتب سرا في ورقتي وطبقتها ولكني لم أضعها في الطفاية لكنها كانت مليئة بأعقاب السـجائر فطلبت من حسـام أن يحضـر نادل المقهى ليغير الطفاية وهنا صـــاحت في وجهي أحداهن وكانت تتكلم بشكل مأساوي وكأنها ممثلة على خشبة المسرح ثم انحنت إلى الأسفل ووضعت يديها على عينيها وقالت:

- لا شـئ كان يقززني أكثر من منظر تلك الطفاية.. I have to close my eyes; it's so disgusting, and the smell and everything YAAAY!

لم تتح لنفسـها الفرصـة أن ترى كيف كان النادل يغير الطفايات حيث وضـع الطفاية النظيفة على المتسـخة ثم امسـك بهما على هذا الوضـع وأخافهم خلف ظهره، ثم اخرج بيده الأخرى الطفاية النظيفة ووضـعها في منتصف الطاولة تاركاً الطفاية المتسخة خلف ظهره ثم انصرف.

على الفور وضـعت ورقتي في الطفاية ووضـعت القلم بجانبها في منتصـف الطاولة؛ وفعل الباقون مثلي بما فيهم من كانوا معارضـين للفكرة في بداية الأمر وأخذوا وقتا كثيراً يفكرون.. ومع كل مرة كان يقوم فيها أحدهم بوضع ورقته كان يشجع الآخرين على فعل نفس الشئ.

عندما اكتمل العدد ووضـع كل منهم ورقته، أخذت طفاية السـجائر وبها الورق المطبق ووضـعت يدي عليها لأحكم غلقها وأخذت ابَعْزَقَ الورق؛ فتحت أول ورقة وقرأتها ثم اعطيت اياها لمن كان يجلس علي الكرسـي بجانبي وجلبت ورقة آخرى، وأخبرت من بجانبي أن يقرأها ثم يعطيها لمن يجلس بجانبه وهكذا حتى ننتهي عندما لا يتبقي ورق على الطاولة

ويكون كلً منا قد قرأه كله.

شَـــعرت للحظة اني خارج دائرة الواقع وكأني أنا من كتبت تلك الورقة من شـــدةَ الأندهاش بقرب وتطابق كل تفاصـــيلها لما يحدث معي، إستوقفت للحظة ذهاباً للوراء واستحضرت كل مخزوني الشخصيّ من الذكريات.

بعد نفاذ الورق وأنتهاء اللعبة أشارت بعيني وبحاجبي الإيسر لحسام بما يدل أني أريده فى أمر لا يســـمح للتأخير لكنه نظر لي بلا مبالاة وتحدث إلى الجميع؛

- كانت لعبة رائعة.. وعندما سأل أحدهم عن مصير تلك الورق فأشار حسام لـ جمعة بأن يأتي ليرمي بالورق في حاويات القمامة.

جلســـت أفكر بحظي الغريب اقلب كفي بكفي فكيف أجدها هنا وبهذه الطريقة وكيف تكون بهذا القرب مني وأنا لا أعرف حتى من تكون! إنها تماماً كما تمنيتها أن تكون.. كنت أتمنى بأن تشعر بما أشعر به الآن. فهى بالتأكيد الإنسانة الوحيدة التى لن تتركني أبداً.

مع قرب نهاية اليوم، وكان قد بدأ بعضـــهم بالرحيل.. فكرت في شـــئ مجنون ولكن لم يبق أمامي غيره. إســـتاذنت للذهاب للحمَّام. لكني فور

الإبتعاد عن مرمى أنظارهم، ذهبت مسرعاً إلى ممر ضيق لا يسمح للمرور فيه إلا العاملين بالمقهى، ويوصل إلى المطبخ الرئيسي وهناك وجدت حاوية القمامة عند مدخل باب العاملين من جانب المقهى؛ كان صندوقا كبيرا رمادي اللون وله غطاء اخضر، توقعت أن أجده مملوءا بالقمامة من إلقاء بقايا الطعام فيه، حيث غالباً ما يترك الزبائن نصف طعامهم.. ولكني فوجئت أنهم يجمعون الطعام الفائض ليأكلوه ولا يرموا منه إلا القليل. حيث لا يسمح لهم حسام محمد بتناول البروتين في وجباتهم من المطعم إلا مرة ف الأسبوع.

لم يستوقفني أحد، فجميع العاملين يعرفونني وعندما سألني جمعة عن سبب وجودي داخل المطبخ أخبرته أن شيئا ما قد فُقد وجئت أبحث عنه ربما إختلط بالمخلفات عن طريق الخطأ.. عرض عليّ المساعدة ولكني رفضت ووقفت وحدي أمام حاوية القمامة، لأبدأ رحلة العمل ما بين الفرز، ورائحة الطعام المقزّزة، ولكن هذا لا يهم، أريد أن أحصل على الورقة بأي ثمن.. وسأعتبر ذلك إختبارا شاقا وقاسيا في القدرة على التحمّل لأحصل في النهاية على المراد.

كنت أشعر بسعادة بالغة لا وصف لها عندما وجدتها، الآن فقط إستشعرت مدى تعبى رغم صعوبة المهمة. مشاعر الإحباط و الحزن

بدأت تتوقف وتتلاشى شيئا فشيئا عن ذي قبل. اتخذت أول خطوة في طريق الوصول إلى كاتبة تلك الورقة الصغيرة التي تحمل معنى كبيرا..

في صباح اليوم التالي، الجمعة ذهبت إلى حسام وكانت تبدو عليّ علامات السعادة البالغة مما دفع حسام لسؤالي عن السر وراء ذلك؟

- إليك يا حسام وإلى كل من يدعوني بالمتشائم؛ لا تقلقوا عليّ بعد اليوم.. فالأيام السعيدة قادمة لا محالة..
- لا تقل.. هل وجدتها؟
- نعم، وأنت تعرفها..
- من هي؟

أخرجت الورقة من جيبي وأعطيته إياها وقلت له بنظرات شموخ: صاحبة تلك الورقة.

- انت حقاً مجنون يا شريف! كيف حصلت عليها؟
- – حسام، إسمعني جيداً لا يهم كيف حصلت عليها؛ المهم أنك انت فقط من يستطيع أن يساعدني أن أوصل لكاتبة الورقة.. هذه الفتاة جربت الشعور بألم الفراق، فهي بالتأكيد لن تسعى إلى تكراره مرة أخرى وهذا ما ابحث عنه.
- يا صديقي، صدقني هذه مهمة مستحيلة، من الصعب جداً

تحديد شخصيتها من حبر على ورقة .. لا أريدك أن تشعر بالمزيد من خيبة الأمل ولكن دعني أخبرك بالحقيقة.. قد يكون صعوبة ما تريد بمقدار غلاوتك عندي.

- إذا كنت غاليا عندك فعلاً فلتسمعني إلى النهاية وسأخبرك بما توصلت إلية من حبر على ورقة!

سهرت طوال الليل حتى أحلل كل شئ في تلك الورقة الصغيرة وتوصلت إلى أن الحروف كانت واضحة وبارزة ولكن نمط الضغط لم يكن منتظما في كل الكلام؛ فالحروف كانت واضحة وبارزة في أول كلامها، وهذا يعكس ضغطها بسن قلمها على الورقة وهو ما أثقل حروف الكلمات الأولى وجعلها أغمق من باقي الكلام حتى نهاية الجملة، هذا يعني أنها عندما بدأت تكتب كانت تعاني من توتر وعصبية وقلق شديد، الضغط الخفيف بسن قلمها في النهاية يعكس فرط الحساسية أو التردد و فقدان الشعور بالإستقرار. الخط كان واضحا جداً ومقروءا بشكل تام وهذه إشارة واضحة على أنّها شخصية منظّمة ومخلصة إلى حد كبير وترسد أمور حياتها للأخرين بوضوح بدون تزييف لواقعها. بالإضافة إلى اهتمامها بوضع نقاط بهذا الشكل الدائري فوق الحروف مباشرة لا قبلها ولا بعدها، إنما موضوعين في أماكنهم

بكل دقة بخلاف الهوامش العريضـــة فهي تعكس وتؤكد نظرية أنها شخصية عاشقة للنظام. أما بالنسبة للهوامش المبالغ فيها بآخر الجملة فإن دل على شـيء فإنما يدل ترددها الشديد عند بداية مشروع جديد. إتسعت حدقة عين حسام فى دهشة وقال: "«يا ابن الجنية» كل تلك المواصفات تنتبق فقط على ثلاتهم شاهي ومودة وسارة".

– أنظر ايضاً هناك أخطاء إملائية فادحة! إنها تكتب "خزلني" –وأرجو ألا يصحح المراجع اللغوي حرف الزين بالذال–.

– و لكن هذا لا يعني أي شئ يا شريف.

– بلى، أنه يعني الكثير؛ وكأنها طفلة في الصـــف الرابع الإبتدائي هذا يعكس بالتأكيد ضعفها وعدم إجادتها اللغة العربية.

– مودة! هي مودة.. مودة خريجة مدارس أمريكية وبالكاد تعرف العربي.

– تقصد الفتاة التي كانت «تبرطم» بالإنجليزية طوال الوقت؟

هز حسام رأسه طولياً من أعلى إلى أسفل، فقفزت عليه لأعانقه ولكنه كان جافا و لم يتفاعل معي بالشكل المطلوب.

– شـــكراً لك يا صـــديقي لقد فعلت ما لم يُفعل هذا لم يكن من شـــأنك ولكنك ساعدتني، لن أنسى لك ذلك.

– شريف بكل صراحة أنا قلق بشأنك.. تبدو سعيدا جداً بأكتشافك هذا ولكني أريد أن أعطيك وجهة نظري وأعذرني إن كانت الحقيقة صـــعبة التحمل.

– تحدث يا حسام من فضلك ولا تخبىء شيئا..

– أنظر، ربما انا لا اعرف مودة عن قرب ولكني على الأقل انا اعرفها أكثر منك.. إنها اكثر شـخصـية مثيرة للجدل ومحيرة كانت تجلس معنا على الطاولة إن لم تكن الأكثر على الأطلاق فكل من تعامل معها عن قرب يؤكد أنها شـــخصـــية درامية تضـــع من يتعامل معها في حيرة وتناقض شـــديد. تغري كل من يهتم بها اولاً بالحب ولكنها لاتمنحه له وتعد ولكنها لا تفي ابداً وتعيش فقط على أحزان الماضـي الأليم. تظهر حرارة عاطفية شـــديدة في الخارج في حين أن داخلها بارد كالثلجً وغير قادرة على التلويح بالحب الحقيقي الذي يســـتمر وهذا ما يهمك يا صـــديقي أن يســـتمر. ألم تر كيف كانت تتحدث؟ هذه هي طبيعتها.. تبالغ في كل شـــئ وتحوله إلى دراما لتجذب اهتمام وعطف من حولها

فقط. لها علاقات سابقة كثيرة كلهم فشلوا فشلا ذريعا. في بدايات العلاقة تراها شديدة الحماس وترفع من تحبه للأعلى في السماء ولكن بعد وقت ليس بالطويل يفتر حماسها وتنطفئ عواطفها الوقتية الزائفة.. ثم تعود لتبكي على من تركها وتشكو الوحدة وتدعي أن لا احد يفهمها على وجه الأرض وهذا صحيح إلى حد كبير فلم يتمكن أحدٌ من فك شفرات رأسها حتّى الآن. تنال إعجاب الكثيرين من الرجال لجمالها وشياكتها، ولكن سرعان ما ينفروا منها فهي غير قادرة على الحفاظ على من احبها وكلهم يتركونها بسبب تقلبها وسطحيتها وجنونها وبالتالي فأنا احذرك يا شريف إذا كنت تسعى أن تكون لك شريكة العمر، فالحياة الزوجية معها مستحيلة وستكون زوجة فاشلة وأما فاشلة. أما بالنسبة للإيجابيات فدعني اقل لك ايضاً بحق انها شخصية منظمة في حياتها من الدرجة الأولى وتكره أي شئ يعكر صفو حياتها. تحب النظام وتحرص عليه، ولا ترتاح عيناها لرؤية الفوضى والإرتجال وتسعى دائماً وراء تغيره. بعيدة تمام البعد عن الكذب والتزييف هي شخصية صريحة كالكتاب المفتوح وهذا ما يجعلها محبوبة من المحيطين بها فهي ترى ان لا شئ يدعو للكتمان أو مجانبة الحق.

- عظيم! مدهش.. هذا هو تماماً ما أحتاجه وكنت أبحث عنه.

أنت تشـــعر أنها غريبة لأنها تركت عالمنا و عالم الأحياء وأصـــبحت داخل متاهة الأحزان.

- نظر لي حسام نظرَة يأس لم تصب أعماقِ أمَلي وقال: "الويل لك يا صديقي".

- ثق بي، انا امتلك خبرة كبيرة في التعامل مع هذا النوع.

رد حسام بسخرية: نعم صدقت، إنها حقاً خبرة يا صديقي ولكن مع حذف حرف الـ"ب".

- يا أخي لا تكن سطحي التفكير وتحكم على مودة من قشورها وظواهرها فوراء كل ما تظهره قصص قد حدثت لها وأدت لظهور ذلك. لا يوجد شـــخص كامل وأنا في حاجة أن ارتبط بفتاة بتلك العيوب وعرفت حقيقة قصصها الفاشلة السابقة وأنها ربما مصابة بفوبيا الرحيل. هذا تماماً ما كنت أبحث عنه.. هذه هي الفتاة التي ســـتفهمني ولن تتركني أبداً.

- اتمنى لك من كل قلبي يا شـــريف أن تكون مودة هي أخر مغامراتك العاطفية.

- يبقى فقط أن تكمل جميلك معي مشكوراً لا مأموراً وتدعوها أن تأتي للمقهى في الركن البعيد كعادة كل خميس وتتصل ببقية «الشلة» وتخبرهم انك خططت لسفرية في نفس اليوم.

- حاضـر يا صـديقي سـأطاوعك للنهاية وسـأفعل كل ما تقول فلأول مرة أفعل شيئا غير مقتنع به.

***

الخميس ١٢ يوليو ٢٠١٢

كل شـــئ صـــار كما خطط له تماماً كنت في المقهى من بعد غروب الشـمس وجاءت مودة وجلسـنا في الركن البعيد الهادئ وكنت ارى قلوبا تخرج من عينيها وهي تنظر اليّ بعد حديثي معها الذي تعمدت فيه أن تكون ردودي قصـــيرة وبـاردة وفي نفس الوقت هـادفـة وفي صـــميم الموضوع ولا تحمل أي معنى سيئا حتى انجح في إستفزازها وقد كان..

- Hi شريف، أمازال لم يأت الباقون بعد! وأين حسام؟
- Hi مودة.. لا أدري.. انا اجلس بمفردي بإنتظارهم..

كانت مودة قصيرة القامة فشدت كرسيا طويلا من كراسي البار وجلست أمامي على الطاولة وظهرها للباب. بينما كنت أجلس على كنبة مريحة والحائط من خلفي. كنت منشـــغلاً بهاتفي ولم أبد لها اهتماما وظللت أراقبها بطرف عيني فلاحظت أنها تركز في الأغنية التي نســـمعها في المقهى وتغني معهـا. بعد دقـائق قليلـة من الصـــمـت، توقعت أنهـا ستسألني عن حسام وباقي «الشلة» مرة أخرى، لكنها خالفت توقعاتي:

هل تحب سماع الموسيقى الهادئة؟ –

- لا، أحب الإستمتاع بفنجان القهوة فقط. قد اضطر إلى سماع الموسيقى في المقهى وقد أطلب من حسام أحياناً إيقافها.. لكنها لا تعلق بذهني على أي حال.

- تعرف؟ أنا ايضاً أحب الجلوس بمفردي.

شربت من فنجان القهوة ثم قمت بإطفاء إضاءة هاتفي وضعته أمامي على الطاولة في هدوء شديد يكاد يصل لدرجة البرود المستفز، فكم من فتاة انجذبت لشاب لمجرد انه جعلها تشعر بعدم اهميتها. ثم سألتها: "لماذا؟".

- لا تسئ فهمي يا شريف.. هذا ليس لأنني احب الوحدة وليس لأن لا احد يحبني ولكن لأن لا احد يفهمني ويعرف ما بداخلي سوى نفسي.. كل مشاكلي أدفنها داخلي لأنني لا أجد من يسمعني ويفهمني. جميع أصدقائي يروون لي مشاكلهم وأنا أساعدهم في حلها ولا يحدث ابداً العكس. يحاولون سماعي لكنهم لا يفهموني.. يقولون أنني Drama Queen..

- لا تلتفتي كثيراً لكلام الناس عنك وتقييمهم لك يا مودة.. لأنه من الخطأ الكبير أن تجعلي حياتك ردة فعل لما يقوله الناس عنك..

– خطأ.. خطأ.. خطأ! لا أحد يفهمني و أي شيء أفعله يقولون لي خطأ حتى أصبحت لا أفرق بين الصواب والخطأ إلا بعدم المبالاة والصمت تجنباً للتأنيبات حتى بداخلي أصبح شبه ميتة. حتى أمي تتهمني بالأنانية وهي في قمة الأنانية معي. هل أنا فعلاً أنانية يا شريف؟

– لا أنت لستِ انانية.. أنت فقط مكتئبة.. والشخص المكتئب يكون أكثر قلقاً واهتماماً بنفسه.

– أجل، انا كذلك تماماً..

– وكل ما عليك أن تحاولي أن تلتزمي بالتعامل مع كل من تتحدثين عنهم بشكل جيد.. ولكن في النهاية لا تلقي باللوم والتأنيب عندما يسئ الآخرون فهمك إلا على نفسك.

نظَرت مودة لشريف شَزَرًا وقالت: انا الخاطئة.. كنت أعلم أني الخاطئة في كل شئ.

– حاولي أن تسترجعي الآن كل المواقف من تلك التي تتحدثين عنها، وكيف تعاني من عدم فهم الاخرين لك..

ردت مودة بإستهانة و نصف إبتسامة كسولة: أسترجعت بعضهم.. أنهم مواقف كثيرة.

- الآن إسألي نفسك لماذا لم يفهموك؟ وكيف وصلت بكِ الأمور إلى هذه الدرجة من إتهامهم بعدم الفهم؟

- لا أجد إجابة.

- كل ذلك يا مودة يعود إلى ســـبب مهم لأبد من أن تنتبهي له قبل أن تســـوء علاقاتك بمن حولك اكثر من ذلك.. إن الســـبب يكمن ببساطة في تفاوت وتنوع إستراتيجية الإدراك بينك وبينهم.

- معذرة.. لا أفهم شيئا يا شريف! ما معني ما تود أن تقوله؟ لا أستطيع أن استوعبه..

- أعتقد أن ما قلته للتو واضح جداً وسهل الإستيعاب والفهم.

- ولكن هذا ليس الأمر بالنسبة لي.

- بالظبط. ليس هناك ما يؤكد أن كلامي مفهوم لدى الجميع والدليل أنكِ لم تفهميه.

– كانت مودة تحدق في أظافرها وتحرك اصابعها بقلق: "ماذا تقصد"؟

– لماذا تتوقعي من كل شخص يتعامل معك أن يكون على نفس درجة الفهم أو الإدراك التي أنت عليها؟ لماذا لم تسألي نفسك غير ذلك من أسئلة؟ لماذا لم تتفكري في أنك قد تكونين مختلفة بعض الشئ عن الآخرين من حولك؟

– إستمرت في تحريك أصابعها وقامت بالنقر بهم على الطاولة بشكل إيقاعي: فهمتك.

– أنت تفهمين أمراً ما بطريقة ما، ويفهمه غيرك بطريقة ما أخرى، ويفهمه شخص ثالث ورابع بمليون طريقة أخرى مختلفة بحسب علم وخبرة كل منهم وتأثره بالبيئة المحيطة به والأفكار التي اكتسبها من حوله.. فليس عيباً هذا الأختلاف، وليس الأمر معيباً أو مغيظاً أن لا يفهمك الآخرون بالطريقة التي تتوقعينها أو تريدينها.. والأمر قد يحدث معك أنت أيضاً وفهمك لهم بشكل لا يتوقعونه أو يرغبونه.. هكذا مثلما لم تفهمي كلامي قبل أن أوضحه لكِ.

إبهار مودة لم يتطلب مني الكثير من المجهود. فالورقة التي كتبتها كانت تقول كل شئ عنها علاوة على ما قاله حسام عنها. هي كانت

متعطشـــه لشـــخص يفهمها من طريقه نظراتها وتفكيرها وتصـــرفاتها ويسـمعها ويطمئن قلبها وترتاح لكلماته وهو يوصـف ويلخص مشـاكل حياتها وما تشعر به في كلمتين؛ كم اشتاقت كثيراً لسماعهم لتشعر كم هي صـــغيرة أمامه. فتعطيه مفاتيحها بكل إســتســلام؛ هي في النهاية مجموعة من الأمور الصـــغيرة التي تجعلها تشـــعر بهذه الأحاســـيس العاطفية وتفتح قلبها ليّ، فأنطلقت وقالت ما بداخلها بأريحية وعفوية وكأنها تعرفني منذ سنوات، الأمر الذي دفعني إلى تعديل طريقة جلوسي على الكرسي بوضع ساق فوق الأخر واسندت ظهري للخلف ووضعت يدي الأثنتين متشبكتان خلف رأسي حتى أكون بموازاتها وأستطيع النظر إلى ملامح وجههـا الهـادئـة دون أن أُجهـد رقبتي أكثر من ذلـك ثم استدركت:

ودعيني الآن أرتب ما قلته للتو؛ لا احد يفهمك لأن لا احد يستمع إليك ويبقى معك إلى النهاية.. دوماً ما ينتهي الحديث قبل ميعاده بســـبب شعوره بالملل منك او بسبب حنانك عليه وإستسلامك السريع.

- أجل، هذا صحيح.
- لأن لكي تفهم شخصا فيجب ان تستمع له إلى النهاية.
- Awww exactly You got me. كانت إبتســـامة الأمل

تملأ وجهها.

- اعرف أن بداخلك كنت تتمنين لو أنك كنت ولداً..

- يا إلهي! كيف عرفت ذلك عني؟

- ردت بفمي: " استطيع ان اقرأك مثل صفحات كتاب مفتوح". بينما كنت اقول لنفسي: "هذا أمر بديهي.. فلا توجد فتاة تحب الحرية في مجتمعنا هذا ولم تتمن ذلك يوماً".

- هل أبدو لك ككتاب مفتوح؟

- أنتي ككتاب الفسيولوجيا المرضية مكتوب باللغة اليابانية، ولكن لا يزال كتابا مفتوحا لي..

نظرت مودة إلى ساعتها: غريبة! كيف لم يأت أحد منهم حتى الآن..

- لا أدري.. وحسام هاتفه مغلق!

- ردت بفمها: "لعلهم يأتون تباعاً بعد قليل". بينما كانت عيناها تقولان : "ليتهم لا يأتون أبداً".

- الساعة الثانية عشرة إلا ربعا! لم أشعر بالوقت معك يا شريف..

- ياااا مر الوقت بسرعة فعلاً. وكأن الساعة تضاءلت لدقيقة.. نحتاج لعمر كامل حتى نكمل حديثنا.

- يجب أن أكون في البيت قبل أن تدق الساعة الثانية عشرة.
- تسمحي ليّ أن أوصلك؟
- ردت بفمها: "Mommy سترسل لي السائق". بينما كانت عيناها تقولان : "يا ليتك توصلني أنت".
- هل سنتقابل مجدداً وقريباً يا مودة؟
- قالت بفمها: "إن شاء الله" بينما كانت عيناها تقولان : "يا ليتنا نتقابل كل يوم".

الخميس ٢ اغسطس ٢٠١٢

ظللنا نتواصل بشكل مستمر و نتقابل كل خميس ونجلس بمفردنا بعيداً عن طاولة حسام حتى جاء يوم خميس إستثنائي حيث شهد إعترافنا بحبنا وأظهرناه علناً في نفس المكان الذي تقابلنا فيه أول مرة، ولكن بعد فترة زادت همومي جداً، وهمومها هي أيضا، تحدثت معي، وصارحتني بما أحست، وقالت:

- مشكلتي ليس مع كل الناس بل معك انت وحدك يا شريف.
- ما هي المشكلة يا مودة؟
- المشكلة أنني لا أستطيع التحكم في أعصابي وضبط إنفعالاتي معك ولعلك تلاحظ أن ردود أفعالي تكون مبالغا فيها أحياناً، ولكن صدقني هذا ليس مع كل الأشخاص بل معك أنت فقط. أشعر بضعف معك. هل كنت على علاقة بفتاة من قبل؟
- لا لا.. ابداً.
- كيف ذلك! يا الهي! انت مدهش.. كيف لأحد أن يكون بهذه المثالية ولا يكون ارتبط عاطفياً بفتاة على الأقل مرة؛ وفتاة من تلك؟ ففتاة واحدة لن تكفى! لابد أن أكون أكثر الناس حظاً على هذا الكوكب!

ابتسم شريف إبتسامة ثقة: انا الأكثر حظاً بكِ.

- أنا لا أريد أن أدخل في قصة حب فكل قصصي السابقة فشلت ولا يبقى منها سوى دموعي وبكائي على كل شخص أحببته وتركني بدون أي سبب.
- أنا لن أتركك يا مودة وأعلمي أن من تسبب لكِ بجرح سيعيش عذاباً اكثر مما عشته بسببه.
- ردت بإهتزاز: ولكني أعلم أنك ستتركني علي أي حال.
- كيف أتركك يا مودة وأنت من علمتني كيف أحب بصدق!

***

كانت مودة ترتجف بعد أيّ موقف يحدث او مناقشة حادة تحدث بيننا، ترتعب من فكرة فقدها لي، تصل لدرجة انها لا تتحمل الموقف فيحدث لها أعراض هستيرية كالإغماء وتشنج هستيرى غريب واحياناً لا تستطيع فيها التنفس وتبكي وتشكو بان أعصابها تؤلمها بشدة وبالتالي هي كانت من تصالحني حتى لو كنت أنا المذنب في حقها. ولا تملك القدرة على أن تقول "لا" في أي شئ حتى إذا منعتها من أداء الأعمال التي تحبها أو إعتادت على فعلها.

أخيراً باتت حياتي مليئة بالحب والسعادة وخابت توقعات حسام. كنت أتقاسم مع مودة كل مشاعر الحب الصادقة. لم أكن أقدر على فراقها يوماً. كنت أعاملها كطفلة أخاف عليها من النسيم الطائر. ودائماً ما أنصحها وأرشدها للتمييز بين الخطأ والصواب، كنت لها حبيباً وصديقاً وأخاً وأباً فلم أتطلب منها يوماً أن تصعد معي لشقتي كما كنت أفعل في الماضي من أفعال مراهقة، وعزمت أن أحافظ عليها علاقة نظيفة ويباركها الله. كنت ممتناً من أن هذه هي الفتاة الأمينة على محبة حبيبها، فكانت الثقة بيننا عالية جداً لدرجة أنني لم أفكر في الشك أو الغيرة عليها يوماً وخاصةً أنها مرت بتجربة واحدة سابقة على الأقل وعانت كثيراً من عواقبها. كنت أغيب عنها أيام الأمتحانات لكنها لم تلبث أن تتصل بي وتطلب أن نتقابل دائماً في الركن البعيد الهادئ، فهي لا تستطيع فراقي ولو حتى لفترة قصيرة. حتى إن كان هذا يزعجني ويعطلني كثيراً خاصةً إنني كنت في سنة البكالوريوس، فلجأت أن أحصل على الملخصات والمحاضرات من زميلتي «الدحيحة» نهي.

الركن البعيد الهادئ، السبت، ٢٠ اكتوبر ٢٠١٢

- احـــــــــم.. شريف، أيمكنني ان أفتح لك قلبي وأنقل لك بكل وضوح صورة لما يحدث في عقلي؟

- افتحي قلبكِ وفضـفضــي يا مودة، سَـأَسْـمَعُكَ بدون كلام لأن كلامك لا يُسمع بل يُشعر به وسأرد عليك بعين العقل.

– متأكد من ذلك يا شريف؟

– نعم بكل تأكيد يا صغيرتي..

– لطالما أحببتُ أن أســـمع كلامك، إنه يقويني ولكن يعاودني القلق والخوف ويضعفني. ساعدني كيف أتخلص منهم؟

– افتحي لي باب قلبك يا صغيرتي ولو حتى قليلاً..

– انا نوعاً ما أنا.. حسناً سأترك لك الباب مواربا الآن..

– هذا يكفيني..

– حسناً، انا خائفةٌ..

– وما هو سبب شعورك الداخلي حيال هذا الخوف الذي وصفته لي يا

صغيرتي؟ انا اسمعك وكلي آذان صاغية.

سكتت مودة قليلاً ثم أردفت بخوف وتردد: "لا لا لا أستطيع وصف ما بداخلى.. أستطيع أن أشعر به فقط لأنه في أعماقي لكن أنا لا أستطيع أن أحكيه".

– هل تخافين من أن كل شيء حدث بيننا كان سريعاً؟

– لا يا حبيبي لســـت هكذا، ولســـت خائفة من واجبي إتجاهك ولا في الثقة فيك.

- أنا لا أقول الأشـياء الصـحيحة في الأوقات الصـحيحة. ولا اعرف بدقة ماذا أقول لكني لســـت مرتاحة داخلياً. هل يمكن أن تساعدني؟

سكت شريف للحظة يفكر وقد وقع في حيرة ثم إنتبه لمودة وهي تقول:

- هل تتذكر لعبة الأسرار التي لعبناها في المقهى عند حسام؟
- في تلك الأثناء دق قلب شريف قلقاً فكان يخشى أن تكون هذه هي النهاية مع مودة وأن حسام قد أخبرها بكل شئ.
- نعم، أذكرها جيداً. ماذا عنها؟

كان شـريف على نار متشـوقا ليسـمع ماذا سـتقول وظل فى حيرته هذه وهو ينتظر مودة وقد قام بشرب نصف فنجان القهوة مرة واحدة من شدة توتره.

- كنت سعيدة جداً بها.

فآطمأن قلبه وأيقن أن ظنونه لم تكن في محلها وأخذ يفكر وقد جاءت له فكرة جهنمية طرحها عليها ونالت استحسانها:

- فما رأيك يا صـــغيرتي أن تذهبي الآن وخذي ورقة وقلم واكتبي عليها أحساسك الداخلي وكأنك ترسلين ليّ جوابا؟

هزت مودة رأسها بالقبول وتبعتها بـ كلمة: موافقة.

- ولكن هل من الممكن ألا تقرأها هنا أمامي حتى لا أشـــعر بالحرج.. يمكنك أن تأخذها معك البيت وتقرأها هناك كما شئت.
- بكل تأكيد.. أتفقنا يا صغيرتي.

فطلبت من جمعة أن يحضـر لي ورقة بيضـاء وقلما. حضـرت الورقة والقلم، ولكن لم تسـتطع مودة إحضـارالكلمات فعند وقت التنفيذ أخذت

مودة تبحلق في الورقة ثم نظرت إليّ نظرة بؤس وقلة حيلة وقالت بلهجة متقطعة وتأتأه.

- لا.. لا أستطيع.. لا استطيع التعبير عن ما بداخلي بشكل غريب، نعم أستطيع الإفصاح عن كثير من الأمور معك لكن تلك التي أحتاجها لا أستطيع الإفصاح عنها بأي طريقة.
- حسناً، هل تسمحين لي أن أكتب أنا هذا الجواب لنفسي بالنيابة عنك.

أخذت الورقة من أمامها ووضعتها أمامي وأمسكت بالقلم فنظرت مودة إلى الورقة وسألتني بفضول: ماذا ستكتب يا حبيبي؟

- ستعرفين في وقتها. وتذكري أننا أتفقنا أن لا يتم فتح الورقة هنا على أي حال.
- حسناً، سأذهب إلي الـــToilet حتى تنتهي من كتابتها فخذ راحتك يا حبيبي.

طبقت الورقة ووضعتها على الطاولة فلما عادت مودة أخذتها ووضعتها في حقيبتها ثم أخذنا نواصل شرب قهوتنا. كان شريف يثق تماماً بأن

مودة ســـتفتح الورقة وتقرأها فور خروجها من باب المقهى وفعلاً فعلت ذلك بعد أن ودعتني وسارت بضعة خطوات فوجدته قد كتب:

عزيزي شريف،

أعرف أني أقلق أكثر مما ينبغي، لكنك تعرف دائما كيف تتعامل مع هذه المشـكلة. أنا اسـأل نفسـي مرات عديدة في اليوم والإجابات تبدو معدومة. أنا أشعر من كل قلبي أنك تود أن تفعل أي شيء من أجل أن أكون سـعيدة وأنت تقوم بإسـعادي حقاً. ولكن في الماضـي تعرضـت للخيانة وتم إسـتغلالي بشـكل سـئ، ومازال هناك هذا الجزء المرضـى المظلم بداخلي يهمس في أذني بأن ذلك سـيتكرر. الناس يقولون أني سـاذجة للغاية ومن السـهل أن يتم خداعي. حبّي لك يجعلني مكتئبة في حالة بعدك عنّي، مع حزن، وبكاء طول اليوم، وسهر في الليل، ولا آكل ولا أشرب، ومتعبة نفسيًا. وحينما تتصل بيّ أبقى في السعادة لكن اعود واسـأل نفسـي ماذا إذا ذهبت بعيداً مثل من ذهب من قبلك ولم تعد وتنسـاني وأنا لن أنسـى أبداً. أخاف طول الوقت أن تتركني، وأعيش طول الوقت بخوف وقلق! وأكره ضـعفي جدًّا، وأخاف أن تسـتغل ذلك.. وأتمنى أن لا تستغل ذلك.

المخلصة دائماً، مودة.

فإنتظرها شــريف حتى عادت مرة أخرى والدموع تتســاقط من عيونها اللامعة وقالت لي بلهفة شديدة:

- كيف تفهمني إلى هذه الدرجة! لن أجد من يفهمني مثلك ابداً.. يا إلهي! وكأني أنا من كتبته.. أنت مثالي! كم أعشقك..

إبتسم لها شريف بحب وقال:

- أستطيع بالفعل أن أقرأ بضـع صـفحات فقط من خلال النظر إلى عينيك، لذلك لا شـيء تقولينه يهم حقاً بالنسـبة لي يا صـغيرتي فأنا اعرف ما بداخلك.

- هذا هو تماماً ما أشـــعر به وكنت أود أن أقوله لك ولكن هذا ليس كل شئ فحسب، مازال هناك المزيد بداخلي..

- أخبريني بما يدور بداخلك يا صـغيرتي وأعدك أني سـأتفهم كل ما تقولينه.

ظلت مودة شــاردة حائرة مترددة وتفكر هل أخبره؟ هل سـيتركني بعدها او سينفذ وعده لي؟

- حسناً، سأخبرك بكل شئ وأمرى لله.. قبل ثلاث سنوات التقيت بشاب في النادي اسمه إسماعيل.. كان يدرس في الجامعة في سنته الأخيرة. أحببته حباً كبيراً، وكنا نقضي معاً جميع أوقاتنا. أعلم أن هذا قد يجعلك تفور غضباً، ولكن كل ذلك يا حبيبي حدث وإنتهى قبل ان أقابلك. كنا نعد في حكم المخطوبين وأكتر، كان فيه كل الصفات التي كنت أحلم بها في فتى أحلامي، لم أشعر يوماً أنه غريب عني كان هو الوحيد الذي لم أخجل منه، وهو هكذا كان إنسانا تتمناه كل فتاة. كنت ضعيفة مضى الوقت وقمنا بارتكاب الإثم.. فكنا نتعانق وقبلني من قبلك مرات عدة، قمنا بعمل ما لم يخطر ببالي أني سأفعله يوماً من الأيام ولكن لا تقلق انا مازلت عذراء. هذا الإنسان منحته الكثير في الوقت الذي كان يجرحني فيه وكنت راضية. كان يظلمني يجرحني فكنت أخاف أن أفصح له عن ضيقي لأنني كنت دائما أخاف من ذلك الشبح الذي يسمى بالفراق. قرر فجاة أن يبتعد وصدنى وبكل قوه وخرج من حياتى وقال لى لا استطيع أن أكمل معكِ وتركني وأنا لا استطيع أن أفكر بغيره شعرت بجرح كبير عندما تركنى ولكني كنت وأظل أقول لنفسي انه سيعود. كنت أشعر أنى أسعى وراء شيء مستحيل فقد أغلق كل الأبواب في وجهى ورحل وكنت لا استطيع أن اكمل حياتى من غيره حتي قابلتك.

- أعرف يا صغيرتي ان ما تشعرين به شئ مؤلم جداً.

- لاااا انت لا تعرف شيئا ولن تشعر بشئ.. فحزني لن يشعر به إلا من جربه فعلاً وعايشه بنفسه. كل شيء يبدو لك سهلاً للغاية عندما يبقي خارج أسوار قلبك.

أشد الألم أن تتألم ولا تتكلم حتى لا يشعر الآخر بألمك. كنت اتمنى أن أصرخ وأقول لها أنا مثلك وأكثر ونبكي معاً على أحزان الماضي لكني تماسكت فكنت قد أتخذت قرارا مسبقاً بأن لا أحكي لمودة أي شئ عن الماضي لدرجة أني ذات مرة حلفت لها كذباً بانها أول فتاة في حياتي حتى أتجنب ان تقول ليّ يوماً انني سأتركها مثلما تركت أي فتاة أخرى من قبلها وأزيد من شكها وقلقها المستمر الذي لطالما وددت أن أمحوه من الوجود.

- أنا اسفة، أنت بالتأكيد تكرهني هل ستتركني وحيدة؟

- رجاءً، إياك أبداً، أبداً، أبداً يا مودة أن تشكّي يوماً في إخلاصي لكِ.

- شريف صدقني هذا ليس شكً في إخلاصك لي ولكنك ستتركني هذه حقيقة..

- لا يا مودة.. أنا أحبك ولن أتركك.

- لم اشك لحظة في حبك لي ولا بأنك ستتركني..

- يا رباااه! حسناً، ما الذي يجعلك متأكدة لهذه الدرجة؟

- سامحني يا شريف انا أسفة ولكن أنا فقط على يقين من الزمن الذي جعلني أعتاد أن كل شيء أحبه ويرتبط بي، يتركنى.

- أنا لن أتركك او أفارقك أبداً يا مودة لاني حقا أحببتك.. فأنت حبيبتى وصاحبة قلبي.. كيف اتركك وانت كل شيء في حياتي؟ ومن له مثل صغيرتي!

- بحق يا شريف؟

- أجل يا مودة.

- انت بالطبع غاضب من ما حكيته لك، انا اسفة.

- لا تتاسفي يا صغيرتي؛ انا لا ألومك ولا أحتاج منك تفسيرا وتبريرا. ستكون الصراحة دائماً مجدية ومفيدة وأساسا لنجاح علاقتنا.. أحرصي دوماً على قول الصراحة ولا شئ إلا الصراحة ولا تندمي عليها.

– !!Awwwww ماذا فعلت في حياتي لأستحق شيئا جميلا مثلك؟ أتمنى لو أنك كنت بجانبي عندما كنت أحاول أن ابتسم لإخفاء تلك الأوجاع في قلبي والتظاهر بأن كل شيء على ما يرام.

الركن البعيد الهادئ، الثلاثاء ٢٢ يناير ٢٠١٣

عندما كنا نتقابل كنت أول شـــيء أنظر إلى قدميها. وعندما نبدأ في الســير، اكون مازلت ناظراً إلى قدمينا وهما يســيران معاً. كنت أجدهم يتحركان معاً على التوازي على نفس النســق وتســير خطواتنا المتتالية بإنســجام وتطابق غريب حيث لا توجد خطوة أكبر او اوســع من أخرى ويلمســـان الأرض في نفس الجزء من اللحظة. عندما أســـرع او أفتح خطوتي كانت خطواتها تقلدني بشـكل تلقائي وبالكاربون ودون أن تتعمد فعل ذلك او تدري حتى. كنت عل يقين أن هذا إن دل على شـيء فيدل على إنها تحبّني بحق وســعيدة جداً لرؤيتي ولكونها تسـير بجانبي وإننا نصل سوياً إلى أسمى درجات الحب بمنتهى الإنسجام والتفاهم والتوافق والحرص على ســـعادة كلا الطرفين. الأمر الذي لم يحدث هذه المرة فكانت أرجلنا تســـير بخطوات مختلفة وغير متناســـقة وهو ما زاد من شــعوري بالقلق حيال تلك المقابلة وترقبي الشــديد بما قد تحمله لي من مفاجآت وصــدمات؛ الأمر الذي بات يقينا لديّ خاصــةً بعدما لاحظت أنها تقوم بلمس وحك انفها ووجهها كثيراً.. وقد كنت قد تعلمت من كتب لغة الجسد أن الشخص دوماً يفعل ذلك بطريقة غير إرادية عندما يكذب او يغفل حقيقة بالتزامن مع إرتفاع ضــغط الدم أثناء الكذب. لذلك كنت

دائماً أبعد يدي عن وجهي اثناء الكذب او إخفاء الحقائق.

- إزداد القلق على مودة وهي تقول بإهتزاز: شــريف حبيبي أريد أن افصــح لك بســر ولكن ارجوك لا تجن وتصــرخ في وجهي، ولا تفقد اعصابك وتتركني..

- أبداً لن يحدث، إفتحي لي قلبك يا صـــغيرتي ولا تخافي مني، أخبريني ما الذي يجول في خاطرك ولا تترددي .

- حسناً أنا.. أنا قابلت إسماعيل.

- احتفظت بأصـــابعي مضـــمومة وبيدي أســـفل ذقني: بالتأكيد تقابلتم صدفة في النادي! وكان لقاؤكم جافا كلقاء الغرباء. أليس كذلك؟

- لا يا شريف لم تكن صدفة.. وكانت.. كانت مقابلة حارة فـ فـ.. بيته وتحدثنا وتعانقنا.

- حاولت جاهداً أن أتحدث بهدوء: لماذا فعلت ذلك؟ لماذا تبذلين قصارى جهدك لإظهار أسوأ جانبك؟

- انا أسفة يا شريف.. انا حقاً تعلمت من خطئي.

- نعم، يجب أن تكوني كذلك.. ســـامحتك على ما فعلته قبل أن تقابليني ولكن أنت مذنبة هذه المرة وأنت الآن في نظري مجرد عاهرة.

- أرجوك لا تقل ذلك، أنا بحبك يا شريف..

- أنا لا أحبك.. أنا أكرهك. و مازلت ملتزما بأقصـــي درجات ضبط النفس حتى الآن..

- دعني فقط اقول لك شيئا أرايت درجة إخلاصي له.. أنه تركني وكســر قلبي ولكنه عندما إحتاجني.. اتصــل بي واعتذر لي عما فعله معي فذهبت له على الفور دون تردد.. كل هذا لا يعطيك مؤشراً إيجابياً اني سأظل مخلصة لك مهما فعلت بي.

- أتُصـــدقين ما تقولين؟ كل هذا كلام الفارغ لا يهدف لشـــيء ويمكنك ان تخدعي به أي شخص آخر أحمق.. انا لا.

- أرجوك يا شريف.. أعطني فرصة أخيرة ونفتح صفحة جديدة.. هذا كل ما أريده منك.

تجاهلتها كأنها كرسي وطاولة وإكتفيت بالرد بفتور: هل سمعت أن رجلا سامح فتاة خائنة؟!.

و ما لبثت أن بدأت الحالات الهيســتيرية تظهر فكانت تبكي بحرارة ولا تمسح دموعها وتحاول أن تأخذ نفسها بصوت عال مع رفع رأسها إلى الأعلى لكي تظهر كم بصــعوبة تأخذه وتحاول أن تبرر ما حدث: كان بإمكاني ألا أخبرك بشئ.. فهل يكون تركك ليّ جزاء صراحتي؟ أتريدني

أن أعيش بعدك بقية عمري كارهه للصـــراحة بدل من أن أكره الكذب وبسببك أنت؟.

فزيت من الكرسي فزة وأخذت سلسلة مفاتيحي وضربت الطاولة بقبضة يدي ضـــربة قوية وأنا أقول بغضـــب: كرهت معنى الصـــراحة عندك، صـــراحتك أصـــبحت وقاحة بعدما تعدت الحدود المشـــروعة يا مودة.. صـــراحتك قاســـية ومؤلمة وتحمل بين طياتها تحاملا وإشـــارة إلى نقطة حساسة.

أمســكت مودة بيدي مثلما يمســك الطفل بيد أمه، فشــعرت بها ســاقعة وترتجف، فجلســت وانتظرلأســمع ما كانت تقوله وهي تبكي: لاا لاااا تتركني يا شـــريف أتوســـل إليك لا تتركني وحيدة أرجوك أرحم دموعي Please.. و لا تنهل علي بما لا أتحملـه.. أرحم قلبي الذي يحبك.. أرحم ضـــعفي بدونك، أنا لا أتحمل بعدك عني ليوم واحد.. لا تتركني بعد كل ذلك في ضـــياع ما بعده ضـــياع.. لأول مرة أطلب منك هذا الطلب لا تتركني جســداً بلا روح. لا تدع هذا الكلب يتســبب في دمار حياتي! لا تتركني حبيبي فأنا رأيت الدنيا جميلة من خلال عينيك.

- لا أريد أن أدمر هذه العلاقة وفى نفس الوقت عقلي يحاول أن يبعدني عنها ويقول لي أنها خانتك يا «قفل». حياتي ستتحول إلى جحيم إذا تركتها وفى نفس الوقت أن بقيت معها، فلا أستطيع أن أسامحها أو أغفر لها وهي عانقت وقبلت رجلا آخر. كانت مودة نادمة أشد الندم وكرهت هذا الشيطان بشدة، فهي لن تقبل أن يتسبب لها بالجرح مرتين. كان بداخلي ميل شديد أن أسامحها واغفر لها، بل بداخلي قد غفرت لها بالفعل عندما رأيت دموع الندم تتساقط من عينيها، أما النيران التي تتوهج في صدري، فما هي إلا من أثر شعوري بكرامتي المجروحة. إحساسي بجرح كرامتي يأبي أن يريحني من العذاب. فأنا أعذب نفسي لإحساسي بأنها خانتني وفي نفس الوقت مازلت أحبها ولدي استعداد كبير لأفتح صفحة جديدة معها وألتمس لها في ذلك أعذارا كثيرة منها أنها باتت تكره هذا الشيطان بشدة. ولعل ذلك يكون درساً قاسيا لها يعيد إليها صوابها من جديد ويمنعها من العودة مرة أخرى إلى تصرفات المراهقة غير المسئولة، مع أنني لا أعرف السبب الذي دفعها إلى الذهاب إلى بيته من الأساس! هل هو تقصير مني؟ لا، بالتأكيد إنه إستهتار ورعونة وطيش منها.

- شـريف.. لا تتركني أعيش هذا العالم وحدي بعد أن دخلت فيه وملأته بحبك.. حبيبي أنا تغيرت وأصـــبحت فتاة أخرى على يديك.. أرجوك لا تقسو الآن علىّ قلبي بعدما أحبك وتدعه وترحل.I beg you

- عهد من رجل بكى وذاق مرار الفراق أكثر منكِ: سـأسـامحك ولن أرحل وأتركك أبداً يا مودة ولكن أرجوك لا ترتكبي الحماقات التي تدفعني للرحيل ثم تأتين لتسأليني بكل غباء لِمَ رحلت.

***

المقهي، الماظة، الأربعاء، ١٣ فبراير ٢٠١٣.

- مساء الخير يا دكتور.
- مساء الخير يا جمعة..
- الفتاة التي تجلس دائماً معك، جاءت في الصـــباح وتركت لك هذه الورقة ورحلت..
- فتحت الورقة فجاء نصها:
- "I'm sorry.. You deserve someone better than me, hope you find her soon. Good Luck."

دخلت بنوبة ضحك هستيرية فـــرسائل الوداع اللعينة مثل هذه فقدت دهشتها لديّ، لم تعد تصدمني كما كانت في السابق من فرط تكرارها معي. أصبحت اعشقها وتعشقني أصبحت ارتاح بين أحضانها.. فهي ملاصقه لي لا تفارقني. لا يوجد جديد، أصبح المعتاد أن أستيقظ يوماً عليها، من الطبيعي أن أصـــاب بالحزن والإحباط، ولكن كالعادة ليس هناك وقت حتى للحزن والإندهاش والتســـأول. إنه تلك الشـــعور الذى يصـــحب نهاية كل علاقة مع فتاة كنت أحبها بصـــدق يأتي مجدداً بالتزامن مع امتحانات البكالوريوس التي تطرق باب مســتقبلي ولســت

جاهزًا لاســتقبالها وأحتاج إلى منقذ.. فلم أجد امامي ســوي نهى التي تسعد بمساعدتي.

المقهي، السبت ٢٣ مارس ٢٠١٣.

نهي دفعتي وصـــديقتي ولكنها متفوقة وتفوقني دراســياً بمراحل.. كانت من أول ١٠٠ طالب على الدفعة. أما انا فكنت اكتفي بالحفاظ علي مقعدي بالطبقة الدافئة التي تؤهلني لتخصص في قسم النساء والولادة بصـــحبة نهي التي كان بإمكانها أن تتخص في الرمد او المخ والأعصاب لكنها إختارت قسم النساء إيضاً. تعرفت عليها اثناء وجودنا معاً لنتدرب في كشك النسا. وكنا على تواصل مستمر مع قسم أمراض النســاء والولادة فى المســتشــفيات التابعة للقصــر العيني وحتى بعد البكالوريوس لم نقطع التواصـــل بيننا أثناء فترة الأمتياز حتى نبدأ تخصصنا الذى من خلاله سنقوم بتحضير دراساتنا العليا من ماجستير إلى الدكتوراة.

كانت نهى من الفتيات اللاتي لم يتمتعن بجمال لأفت في مرحلة المراهقة وحتى إلى هذه اللحظة فهي محجبة، متوسطة الجمال و القوام، وترتدي ملابس غير ملفتة بالإضـــافة إلى نظارة نظر كبيرة، يبقى لها فقط أن تمسك بجريدة في يد وتمسك بطيخة في اليد الأخرى ستشبه تماماً موظف الضـــرائب! كل هذا ما لم يضـــعها في مكانة إجتماعية عالية وسط أصدقائها ومن حولها من فتيات آخريات في مرحلة الثانوية

العامة.. ففقدت ثقتها في نفسها. أصبحت تقتبس جزءً من شخصية كل فتاة تقابلها؛ كانت وكأنها نسخة من نسخة تفتقر إلى وجود الشخصية الأصيلة بداخلها. لذا إتجهت لإثبات نفسها وتحقيق الإرتقاء في المرتبة الإجتماعية عن طريق التفوق الأكاديمي. وبالفعل كانت تكتسب ثقة وسعادة كبيرة عندما تجد نصف الدفعة تلجأ إليها من أجل مساعدتهم على فهم المنهج وتلخيص المحاضرات.. الأمر الذي جعلها تتحول إلى نجمة إجتماعية في الكلية. كانت أيام الثانوية مشغوله فقط بالمذاكرة على عكس باقى زملائنا، ونفس الوضع إستمر معها في الكلية. فلم تهتم بمظهرها معلله ذلك بأن وقتها لا يسمح بذلك كنت دائماً أحب أن «أنكشها» في ذلك الأمر وهي تجلس معي في الركن البعيد الهادئ لنذاكر سوياً قبل الأمتحانات:

- تدرين يا نهي؟ أحياناً ارى نموذجا نادرا لفتاة في كلية الطب تكون جميلة و«شيك» ورقيقة في نفسها..

- في النهاية هي طبيعة شخصية بغض النظر عن الكلية يا شريف. بالنسبة لنفسي، فالمجهود الذي أبذله يجبرني على التقيد بطريقة لبس وأسلوب معيشة معين، وجود شخص فى كلية الطب إذا كان جاداً ويجب أن تضع تحت كامة جاداً ١٠٠ خط يفضل دائماً أنا يرتدى

ملابس مريحة وعملية، بمعنى أن كوني فتاة تسير طوال النهار وحتى الليل بكتب وأدوات قد تصل إلى ٥ كيلو يومياً فى الكلية بين المحاضرات والسكاشن والمعامل والعيادات شيء غير مشجع على أن أرتدي كعب ٨ سم مثلاً. لذلك أرتدي ملابس «مرحرحة» وحذاء رياضيا. ثم إن كل من معي في المستشفي غربان.. فلما يرفعوا هم من مستواهم اولاً، ربما سأفكر في تلك الأمور لاحقاً.

- هذه مجرد مبررات وليست حقيقة والحقيقة الفعلية أن كل فتاة تتخصص في النساء والتوليد تكون في الأغلب «مسترجلة» وتتحجج حججا فارغة لانها تحاول فقط أن تقنع نفسها داخليًا بما تقوم به من التجرد من أنوثتها والتشبه بالرجال.

- ردت نهى بغضب شديد: شريف لو سمحت لا تغفل الأولويات وعامل الوقت، ولك عذرك على ذلك فغالبية الشباب الذكور مثلك لا يُطلب منهم أن يفعلوا أى شيء غير النزول إلى الكلية والمذاكرة ورغم ذلك غالباً ما أجدك ترتدي نفس الملابس لأيام متتالية، فى حين أني مطالبة بمساعدة والدتي فى الأعمال المنزلية وبالتالى لا أملك الرفاهية كل يوم أن أتجهز للكلية كأني ذاهبة لفرح إبنة خالتي.

- نهى، أنا أيضاً لا أملك تلك الرفاهية.. أنا أعيش بمفردي في مصر منذ ست سنوات، والأعمال المنزلية التي تتحدثين عنها اقوم بها

لنفســـي وفي النهاية لا أجد حتى أما أعود إليها بعد يوم شـــاق في الجامعة تســـمعني لأحكي لها كيف وجدت أن تلك البلد جميع أهلها متشابهون في كل شئ.

- شــريف. أنا أســفة لم أكن اعرف ذلك.. لدي فضــول لمعرفة أســرار حياتك لكنني لن ألح عليك بالكلام يبدو أنك غير مســتعد للبوح لي بأسرارك الآن.

- لا بأسَ يا نهى، سأحكي لك كل شئ. لقد سمعت الجميع من قبل بما فيه الكفاية والآن أتى دوري.

وحكيت لها كل شيء، وكأني كنت أرمي حملا ثقيلاً من صدري حتى إنتهيت من الكلام وشـــعرت بالراحة، كانت تستمع وتســـتمتع وعندما إنتهيت إبتسمت وقالت: "أعدك أن غداً سـيكون يوماً أفضــل وأجزل إن شاء الله".

***

الخميس ٦ يونيو ٢٠١٣.

كنت اقضـــي فترة الأمتياز في عيادة الأطفال وحديثى الولادة.. أرســلني النائب النباطشـي بـــــRequest إلى النائب النباطشـي بقسـم الجلدية والتناسلية لوصـف العلاج المناسـب لحالة طفح جلدي على شـكل طبقة حمراء على بشرة طفل صـغير؛ بارزة قليلاً عن الجلد وكانت على شـكل بقع حمراء مع رأس أبيض وتنتشـر بأماكن مختلفة من الجسـم حيث نها تظهر بمنطقة الحفاظ والوجه وخلف الركبة وبمنطقة الرســـغ باليدين وتظهر أيضـاً بمنطقة الصـدر والظهر.. عندما عدت إلى عيادة الأطفال بعد أن كتب لي نائب الجلدية العلاج المناسـب وجدت النائب صـعد إلى سـكن الأطباء فذهبت أبحث عن «أم الحالة».. فإذا بسـيدة تناديني: يا دكتور.. يا دكتور، فاســـتدرت لأرى من ينادي فوجدت بالفعل أن تلك السيدة توجّه الكلام لي:

- يا دكتور.. هل تذكرني؟ ربما لن تتذكرني.. انا زينب جئت لكم منذ فترة طويلة وأخبرتني انني لن انجب أبداً.

– أجل، أذكرك جيداً كان بيننا لقاء أعتقد في منذ سنتين في عنبر النسا كنت حالة إمتحاني فكيف انســاكِ! كيف حالك؟ ما شــاء الله صــحة جسدك الجيدة تنعكس على وجهك ومن هذه «الأمورة»؟

–هذه نعمة بنتي..

– ما شاء الله، تبني طفل يتيم عمل انساني عظيم ورائع..

– لا هذه بنت بطني وجسدي.. انجبتها بقدرة الله ولم أتبناها.

لا زلت واقفاً في مكاني كأني تجمدت لهول ما ســمعت ورأيت. فتلك الفتاة الصـغيرة حقاً تشـبهها كثيراً كأنها هي مثلما كانت في عمرها.. لا أعرف هل اسألها ولا اترك عقلي شارداً مذهولاً هكذا:

– أعذريني على السؤال يا مدام زينب.. لكن هل تتكلمين بصـدق فعلاً! كيف ذلك؟

– لقد أعتدت على أن يدهش كل من يعرف يا دكتور.. أنا نفســي لا اصــدق ما حدث.. فكنت متأزمه من حالتي وأســودت الدنيا في وجهي لكن ولاد الحلال دلوني علي شيخ مبروك عالجني وحملت..

– يا سيدتي الفاضلة ويا أختي للكِ مني كل التقدير والإحترام لكن انا لا أصدق ذلك، شيخ من هذا الذي يعالج السرطان؟

- يا دكتور لم يكن سرطانا من الأساس..

ابتسم شريف إبتسامة باهتة ثم قال بنبرة ساخرة :

- إذن أنا أريد أن اتواصل مع هذا الشيخ لكي أرسل له حالات عقم مثل حالتك يعالجها..

اعطتني زينب رقم هاتفه وقالت عليك أن تتصل به اولاً وتحجز ميعاد قبل الذهاب له واعطتني عنوانه بـ قرية شبرمنت.

استأذنت النائب السينيور وذهبت لقسم النساء والتوليد لأقابل نهى.

– كيف حالك يا دكتورة نهى؟

– اهلاً يا شريف..

– لن أطيل عليك في سؤالي، أودّ فقط ان أعرف هل من الممكن أن تحمل مريضة سرطان الرحم لأني سأفقد عقلي قريباً.

– كما تعرف يا شريف الحمل يقلل المناعة ويزيد انتشار السرطان

فبالتالى لايمكن أن تحمل المريضة وهى مصابة بأى مرض خاصة الأورام السرطانية، لأنها إذا حملت وهى مريضة بالأورام السرطانية وخاصة سرطان الرحم يحدث تشوه للجنين لأن كما تعرف علاج للأورام الخبيثة هو العلاج بالإشعاعات ويكون فى ذلك خطر على صحة الأم أيضاً.

– فهل ممكن ان تشفى منه وتلد؟

– من الصعب بل من المستحيل أن تحمل السيدة المصابة بالأورام الخبيثة قبل علاجها أو حتى بعده وخاصةً عندنا في مصر السيدة عادةً لا تكتشف الورم مبكراً وبالتالى عندما تكتشفه وتعالج منه غالباً ستكون قد تجاوزت عمر الأربعين عاماً فبالتالى فرصة حملها تكون ضئيلة جداً فعندما تذهب لتقوم بعمل أطفال أنابيب ترفض لأنها إذا وصلت إلى عمر خمسة وثلاثين عاماً تكون نتائج الحمل غير جيدة، فتوجد صعوبة فى ولادتها.

– فما رأيك بسيدة ثلاثينية تلد بعد إصابتها بسرطان في الرحم من الدرجة ثالثة؟

اثارت الجملة هيستيريا من الضحكات السخرية المتقطعة من نهى

وأجابتني بكلمتين اثنين: مستحيل طبعاً.

- Merci يا نهى..

عدت إلى البيت بعد يوم شـــاق من العمل والمشـــوار بين العيادات والأقســام منهكاً والتعب قد هلكني لأخذ نصـيب من الراحة، إذ برأســي الشـــاردة لا تتوقف عن التفكير كيف لهذه المَرأة أن تنجب؟ هل هذه حقيقة! امسـكت هاتفي وتشـجعت قليلاً وإتصـلت بالرقم التي اعطته ليّ زينب فردت سيدة مسنة بصوت غليظ ولهجة فلاحي:

- الو.. سلامه عليكم.
- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- أليس هذا رقم الشيخ؟
- نعم هو. من انت؟
- انا الدكتور شريف.. هل تسمحين لي أن اتحدث معه؟
- وانت من دلّك عليه؟
- أنا من طرف زينب..
- زينب مين؟
- زينب أُم نعمة.

- وكيف حالها هي وإبنتها؟
- بصحة جيدة الحمد لله..
- يمكنك ان تأتي لمقابلة الشيخ إذا أردت..
- غداً موعد مناسب؟
- غداً الجمعة والشـــيخ لا يقابل أحدا يوم الجمعة إلا عند الضرورة..
- أنا أجازتي يوم الجمعة فقط ولن أســـتطيع أن أتغيب عن المستشفى في يوم وسط الأسبوع.. هل لكِ ان تستأذني الشيخ انـ..

فقاطعتني: حسناً.. ولكن بعد إذنك لا تتأخر عن بعد صلاة الجمعة لأن الشيخ يستقبل أولاده بعد صلاة العصر في تجمع عائلي خالص.

- شكراً.. سأكون هناك في الموعد إن شاء الله.

***

الجمعة، ٧ يونيو ٢٠١٣.

وصـلت إلى طريق سـقارة السـياحي متجهاً إلى قرية شـبرامنت وهي إحدى القرى التابعة لمركز أبو النمرس في محافظة الجيزة. وصلت أمام البيت حسـب الوصـفة وهو بيت قديم متهالك يتكون من طابقين.. والطابق الثاني به غرفة واحدة فقط في حارة ضيقة رطبة غير ممهدة لا يسـتطيع حتى التوكتوك السـير فيها. وقفت أمام باب حائط خشـبي مسـتطيل لونه أزرق مخضـر داكن وبارز يبدو شـكله من بعيد للغريب كأنه فتحة باب بيت. وجدت علية سقاطة باب وهو ما أكد لي أنه الباب كنت مترددا بعض الشـئ ولكني لم اقطع مسـافة ٩٠ كيلو متر عن مدينة القاهرة وأعود مرة أخرى «قفايا يقمر عيش».. فأمسـكت بمطرقة الباب النحاسية وضربت بها الباب ضربات خفيفة و حْذّره بعض الشئ وكأنى اريد أَلَّا يسمعها مَنْ بالداخل.

- إنتظرت قليلاً ثم ردت سيّدة صائحة:
- من على الباب؟
- انا الدكتور شريف يا حاجّة، إتصلت على الهاتف البارِحة.
- تفتح الباب: اتفضل..

- عُرقلت أثناء دخولى ببعض الأحذية أمام باب الشـــقة اعتبرتها رســـآلة تخبرني بآن عليك أن تخلع حذاءك قبل الدخول إلى البيت، لأنحني واقوم بخلع حذائي.
- عُرقلتْ يابنى؟
- قدَّر ولطف.
- أهلاً وســهلاً.. الشـيخ عادةً لا يسـتقبل أحدا اليوم ولكن هناك سـيدة أتت من بلاد بعيدة قبل قدومك.. أسـترح هنا سـأخبرهُ بقدومك في الحال..
- تَرَبَّعَت وجْلِسُـــت عَلَى حصـــيرة مفروشـــة عَلَى الْأَرْضِ To break the ice.
- تشرب شاي أو حاجة ساقعة؟
- شكراً يا حاجّة.
- ربنا يخليكِ لا أريد أي شئ.
- أو تشرب حلبة بالحليب؟
- فقلت لها للهروب من هذا الحديث: حسناً اى شئ..

دخلت الحاجّة إلى المطبخ؛ بينما نهضـــت بفزع على صـــوت صـــراخ وعويل حاد من سيّدة تنازع فى غرفة في الأعلى. يصمت صوت عقلى

وتعلو صوت نبضات قلبي كلما ازداد شدة الصوت، لتدق في أذني من شـدة الخوف وبصـوت متواصـل وعلى وتيرة واحدة BOM BOM.
BOM

وفجأة كان الصوت يتلاشى شيئاً فشيئاً إلى أن تلاشى تمامًا.. لم يخطر في بالي أني سـأسـمع أصـوات هكذا عند الشـيخ فحرّكني واسـتفزّني فضـولي لمعرفة ما وراء هذا العويل إلى ابعد مما كنت اتخيل.. فوجدت نفســي تلقائياً و دون أن أدري اتحرك بإتجاة الغرفة وصــعدت درجات السلم لأكسرالمألوف والمعتاد وأضـطررت إلى الإنتظار امام باب أُغلق دوني ساعياً فقط لسماع ما يحدث الآن وراءه وكان ما حدث أغرب من الخيال فسمعت صوت رجل يقول:

- آمل أن تشعري بتحسن الآن يا إبنتي..

ردت عليه سيدة باكية:

- آااه كان ألما لم أشـعر به من قبل، شـعرت بحرقان او نار فى الإصبع الكبير للقدم اليسرى وكائن سكاكين حامية وساخنة تقطع فيه..
- لا تبكي فلســت أنا من أوجعك.. كان قلبي يتقطع من الحزن عليك، إنما من تسببوا لك بتلك الاوجاع وكانوا يعيشون بداخلك..

- كانوا؟! هل كانوا كثيرين؟ ألم يكن واحدا فقط؟

- لا يا إبنتي كانوا رجلان وأخذا يتسابقان ويتنافسان على من سيفوز بكِ وينال منكِ أكثر..

- لا أدري ماذا أقول فكل كلمات الثناء والشكر لا توفيك حقك يا شيخ.. الله يسعدك دنيا وأخره.

- آمين يا بنتي.. علينا وعليكم بالرضا والقبول إن شاء الله.

- والآن أريد العودة لزوجي ولكني لا أعلم كيف أوضح له ما حدث..

- هو من سيحاول العودة لك مرة أخرى وإن شاء الله سيبقي عليك زوجة له ولن يكون هناك خلافات بينكم في المستقبل.. فكل الخلافات التي كانت بينكم كانت من صنع الشياطين. كانوا يسعون بكل ما أوتوا من حيل للإفساد والتفريق بينكم، فهم لا يرجون الصلاح ولا الإستقرار بينكم. وأعلى الشياطين منزلة عند إبليس، وأقربهم إليه، أعظمهم عنده فتنة وذلك الذي يفرق بين زوجين او حبيبين.

طغت حالة من السكون أُتبعت بصوت خروشة يقترب من الباب فتراجعت للوراء إستعداداً للنزول والعودة اينما تركتني الحاجّة زوجة الشيخ وإذا بصوت السيدة بالداخل تقول:

- هذه هدية بسيطه مني أتمنى أن تقبلها..

لم أستمع لرد الشيخ بوضوح لأني حينها كنت قد بدأت بالفعل في نزول درجات السلم الأدنى إلا أني سمعته يقول "لوجه الله سبحانه وتعالى وبدون أى مقابل".

جلست مكاني وخرجت من الغرفه سيّدة ترتدى عباءة سوداء ومعها طفل صغير ومضت مسرعةً في طريقِها للخارخ، فجلست وحدى حتى أتتني الحاجّة ومعها كوب من الشاى فوقفت إحتراماً لها.

- نَظرت لى مبتسمة، ثم قالت: اتفضل ستشرب الشاى عند الشيخ.

- قدماي لم تحملاني؛ ذاهباً إلى غرفة الآهات في خُطُوَاتِ مهتزه غير واثقه. الشعور بالقلق عندما تستعد للتكلم أمام شخص غريب لأول مرة أمر طبيعي جداً. ولكن كان هناك حالة إستثنائية من الترقب الشديد فرضت نفسها عليَّ؛ فتحت الحاجّة الباب أمامي فأخذت ابحلق بعيني وأخطف نظرات سريعة على جدران الغرفة الخضراء ثم دخلت الغرفة ونظرت إلى الشيخ وكان ظهره للباب فهو رَّجُلَ يبدوعليه الحكمة والبساطة فى عقده السادس بلحيةٍ يكسوها الشيب وعليه علامات الكبر وكان معه عكاز أسود ويرتدي نظارة نظر وملابس بيضاء؛ جلباب أبيض وسروال أبيض ويرتدي خاتماً بفص أسود لأمع وبارز. كنت

متعجباً سائلاً نفسي ومستشيراً عقلي: إين الطبول والرق والكاسات النحاسية وآلات الإيقاع الآخرى وصينية البخور والأبخرة التي تتصاعد منها وطلاء الجدارن الرمادي ولواصق الأرضيات الشهيرة؟ إين العدة؟ لكن سرعان ما تحول القلق إلى رهبة من هيبة الشيخ، وإن كنت اصبحت قوياً، أما القلق الذى شعرت به فى البداية فكان من ضعفى وذلك خشية من المجهول.. شعرت بإطمئنان كبير عندما رأيتها غرفة عاديه جداً مثل أي غرفة بسيطة والشيخ رجلا عاديا ووجه وملامحه طيبة.

- فتوجهت إليه لأُصافحه وأُسلم عليه وكان سلامه قريبا من القلب: السلام عليكم..

- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. يا مرحب، كيف حالك يا بني؟

- نهدت بأرتياح: الحمد لله يا شيخ.

- أنا شريف دكتور أمراض نساء وتوليد وكنت قابلت حالة في الكلية منذ سنتين وكانت قد تم تشخيصها بسرطان في الرحم من الدرجة الأقصى واوصينا بإستئصاله.. ومرت الأيام وشاء القدر أن اقابل نفس الحالة ومعها ابنتها التي انجبتها بعد شفائها على يدك.. فكيف ذلك؟

- أذكر حالات كثيرة من هذا النوع.. أذكرهم حتى بالأســـم ولكن بعض حالأت العقم تأتي لي وأقول لهم ان علاجكم عند أهل الطب.

- وكيف تعرف إذا كان علأجها عندك او عندنا؟

- بالكشف عليها.

- لا تؤاخذني لكن هذا شئ غريب.. هل لك أن تخبرني بتفاصيل أكثير يا شيخ كيف يحدث ذلك؟ وكيف يتم الكشف علي المريضة؟

- بأسـمها و أسـم والدتها وليس ككشـفكم عليها في المسـتشـفى. وهناك أكثر من طريق لإصـابتها فاحياناً يقوم الشـيطان بإسـقاط الحمل في الأشـهر الأولى من الحمل وذلك عن طريق إخافة السيدة الحامل أو عن طريق إجبارها على القيام بعمل شاق مما يؤدي إلى إسقاط الجنين. أو عن طريق رؤيتهـا لمنـام مرعـب جـداً يكون هو أحـد أبطـالـه فيتم الأسـقاط من شـدة الخوف. والطريقة الأخرى وهي الأسـهل بالنسـبة له فهو يقوم بالســكن في رحم المرأة ويقوم بســد الحبل الناقل للبيوض مدة فترة الإبـاضـــــة مما يؤدي إلى إتلاف جزئي للبيوض وبعد ذلك يترك الحبل الناقل للبيوض فتنزل البيضـــة وتعشـــعش ضـــمن الرحم إلا أنها تكون تالفة وغير صـالحة للتلقيح وبعد يومين أوثلاثة أيام تسقط البيضـة مما يؤدي إلى كمية طمث ضـــعيفة لدى المرأة أضـــف إلى أنه تتأخر لديها الدورة مدة مقدارها خمسـة عشـر يوما تعتقد فيها أنه تم الحمل. إلا

أن هذا التأخير كان ناتجاً عن ربط الحبل الناقل للبيوض لفترة زمنية مقدارها مدة تأخير الدورة.

- تذكرت كلام الشيخ مع السيدة التي كانت تجلس مكاني من قبلي: عنديّ سؤالٌ آخر إذا تكرمت..

- اتفضل طبعاً..

- معني كلام حضرتك أن الشيطان يمكن أن يسكن جسم الأنسان؟ أم كل هذا غير صحيح مما يشاع أن هذه خرافات ولا صحة لها؟

- نعم هناك دليل من الكتاب، على أن الشيطان يمكن له أن يسكن بداخل الإنس واحياناً الإنسان إذا تعرض لأذى فيكون لأسباب منها السحر ومنها الإنتقام ومنها دوافع أخرى كالحب أو الكره أو تحقق غرض وهدف عند الشيطان.

- وهل يمكن أن يتسبب في التفريق بين الرجل وزوجته على سبيل المثال؟

- أجل يا بني أنهم يسعون دائماً إلى التفريق بين الزوج وزوجته او خطيبته.. فهذا كفيل بأن يرضي قلوبهم القذرة التي تحمل بين طياتها الغل والحقد والحسد للأنسان. أغلب الحالات يكون الجن خادما لتفيذ أمر يرغبه من عمل السحر، وهذه الحالات تكون شبيهة بالحالات

المرضـية أو النفسـية، ويزداد معاناة الإنسـان المسـحور بتواجد الجن الخادم سـاكنً للضـحية، وتخف كلما فارق الجن الضـحية. بعض الحالات يكون الجن قد سـكن المنزل في طريقه وبحسـب مدة الإقامة يؤذي من يؤذيه. بعض الحالات الإنسـان هو الذي يجذب الجن نحوه دون أن يشـعر، وأغلب هذه الحالات تأتي عن طريق العزلة والتفرد. الشيطان بطبيعة الحال لا يسكن الجسد فقط وإنما يسيطر على العقل ويبقى بجوار الضـحية ويفرض عليه التصـرفات. وما هو أداة التحكم بك؟ عقلك. فعندما يمرض العقل، يصـبح خارج السـيطرة ويتحكم الشيطان بك وفي كل تصرفاتك. فمثلاً في حالة السحر إذا كان المراد أن يمرض الضحية فلا يقدر أن يعمل أو يذهب ويؤثر الجن على عقل الضـحية بما يشـعره بالآلام دون وجودها في الحقيقة وهذا يفسـر عدم وجود الأعراض في التشخيص الطبي. كذلك بالنسبة للمزاج الشخصي عند الضـحية حيث تكره ما تحب أو تحب ما لا تحب في الحقيقة وهكذا.

- وكيف لك أن تعرف إذا الشخص ملبوس من شيطان؟
- قلت لك يا بني اكشف عليه..
- وكيف يحدث ذلك؟
- حسناً، دعني أريك ذلك بنفسك..

- قل لي ما اسم والدتك؟
- أسمها ملامس.

أرحت رأسى على مسند الكرسى الخشبى وأغمضت عينى وإذا بالشيخ يقول أســـمى فانتبهتْ له .. فى البداية ظننته ينادينى ولكنى ســـمعت الجملة الى النهاية: " يا مبارك.. شريف إبن ملامس هل معه شئ؟ إذا كان معه شئ، يطول هذا القَصَلَ..".

مد الشيخ يده ليمسك جلبابه فإذا بالمكان الذى امسك به الشيخ يطول قرابة طوله نصف مرة او ربما اكثر!

- أخذت ابحلق بعيني، ادقق واتفحص فى كل شـــبر من جلباب الشيخ فودة ثم وضعت يدي فوق رأسَى وقلت فى دهشة وفزع: ما معني هذا يا شيخ؟
- فسألني: هل هناك توتر في علاقاتك مع الآخرين وخصوصاً مع الجنس الآخر؟
- أجبته مهتزًا: أجل، مشكلتي يا شيخ دون أن أُطيل عليك تكمن في أنني كلما أحببت فتاة تركتني وأختفت بدون ســـبب وبدون أي

مقدمات مع العلم أني لم افعل اي شـيء يضـايقها.. لا ادري إذا لسـت بالحب جيد او ربما لست لأحد.

- هل تصلي يا بني؟

- بصراحة لا.

- حسناً، أنصت يا بنى المس نوعان لا ثالث لهما؛ مس بالمرض و مس بالعشـق؛ وانت لديك النوع الثاني الجن العاشـق بمعنى أن هناك جنية تسكن جسدك وتعشقك.

- فَابتَسَّمَت ضَاحِكًا وقلت له: انا لا افهم شيئا!

- عندما تحتضن الوسادة كل ليلة عند النوم، إنها تتلبس الوسادة لتلامسك مباشرة وتنام الليل بجانيك وتحرم عليك بنات حواء ولن تسمح لك ان تُعمر مع أى فتاة ولن تتزوج او تنجب لطالما هي معك.

- أدمعت عيني على كلامه ردّيت عليه بإبتسآمـــة وانا أبكي فأنا لا أصدق من هول الصدمة: لا اصدق.. كيف ذلك!

- هى تماماً كأنها فتأة تحبك وتتحكم فيك.. كلما تعرف عليها فتاة أخرى، ستفرق بينكم.. ستفرق بينك وبين العالم لتكون وحيدا معها.. ربما تجعلك تتصـــرف بشـــكل غير معتاد أمام من تحب فتجعلها تنفر منك ولا تطيق التغيير الجذري السريع والتقلب غيرالمبرر في تصرفاتك،

يمكن أن تجعلك عصبيا وغاضبا فجأة ثم تهدأ وتضحك بعد لحظة، أهذا ما يحدث لك يا شريف؟

- نعم ولكني كنت اظن ان هذا يعود إلى أن برج الجوزاء في الأصل متقلب المزاج..

- لا تصدق بالأبراج يا دكتور حتى إن تصادف شيء مما يقال حدث بالفعل معك.

- و من الذي وضع تلك المتيمة في طريقي!

- هذا ليس سحرا وليس عملا معمول لك.. هى تلبس جسدك بمحض إرادتها و كامل إختيارها، ولذلك خروجها من جسدك سيسغرق بعض الوقت والمجهود..

- إبتسمت له وأنا أرمقه بعينين لأمعتين: وكم يستغرق من الوقت لإخراجها؟

- حسب استجابتك للبرنامج.

- لم أكن مصدقاً للأمر في البداية ولكني لم استطع امساك دموعي فقُلْتُ له منهمراً في البكاء: أي برنامج؟ أرجوك هل يُمْكِنُكَ مُساعَدَتي في ذلك إذا أَمْكَنَ؟

- بكل تأكيد ولكن عليك أنت الآخر أن تساعدني وتساعد نفسك فأنا لن أســـتطيع بأي حال من الأحوال أن أُخرجها منك الآن وبدون مساعدتك..

رد شريف بتنهيدة حسرة ومرارة ممزوجين بأيمان بقضاء الله:

- لا مستحيل! لن أعود لبيتي إذاً ولن أستطيع أن أعيش وأمارس حياتي الطبيعية يوما واحدا او أنام ليلة واحدة على فراشـــي وحيداً وهي معي.. لِم ليس الآن؟

- أريد أن أخرجها منك اليوم قبل غد ولكن للأســف انها تســكن جســدك منذ فترة طويلة وتمكنت من الســيطرة عليك؛ بمعنى آخر هي اقوى منك الآن فإذا حاولت أن أُخرجها منك وهي الأقوى ســتؤذيك عند خروجها وستنتقم منك أشد إنتقام وانا لا أريد ان اتسبب لك بأذى. إخراج الجن يســـهل أمره كلما كان مبكراً وقبل أن يتمكن مثله مثل أي مرض آخر في صعوبة علاجه بعد التمكن وخاصةً أنها ألعنهم.

- من هي؟ من تكون؟

- انها عائنة إبنة إبليس الأحمر.

- لا يمكن لا يا شـيخ فودة! لن أسـتطيع! أهلي مسـافرين في الخارج وأنا أعيش بمفردى فى منزل كبير. أتوسـل إليك يا شـيخ أن تخلصني منها حالاً.

- لا تخاف يا بني واستعذ بالله.

- هل متأكد أنها لا يمكن تأذينى حتى أتوقف ع الخوف؟

- وهل هناك أذى اكثر من انها تبعدك عن الله وعن كل فتاة تحبها!

- يا شيخ فودة أنا أقصد هل من الممكن أن تؤذيني أذى مباشرا مثلاً تظهرلي؟ ترعبني؟ اشياء من هذا القبيل..

أراد الشيخ أن يطمئن شريف: "مستحـيل، هي تعشقك فلا يمكن أن تؤذيك ابداً او ترعبك وتظهر لك بشكلها الحقيقي؛ لانها ستخاف عليك من الفزع.. هل يمكن أن تؤذي شـخصـا تعشـقه؟ تعامل معها وكأنها أنس تحبك مثل أي فتاة احبتك. ثم إنها ليسـت بثلاثةٍ أذانٌ وقرون حيوانات وشقٌ حوافرِ وشكلها مفزع كما تتصورها أن تكون لأنّك يا بني ليس في وِسْع مخيّلتك أن تتصوّر بشاعتها. ولكنها في الحقيقة صاحبة شـكل جميل؛ ويمكن أن تظهر على هيئة بنت جميلة والعياذ بالله ولكن لا تقلق إنها لن تظهر لك على أي حال من الأحوال".

- أعذرني إن كنتُ اســأل كثيراً ولكن ما الذي يجعلك متأكدا جداً من ذلك؟

نظر الشيخ فودة لشريف نظرة لوم وعتاب تشير إلى إنه قد إرتكب خطأ كبيرا بسأله هذا.

- أعتذر على سـؤالي لا أقصـد أعذرني يا شـيخ. أنا أقصـد أني أريد فقط أن يطمئن قلبي.

دخلت زوجت الشــيخ علينا الغرفه فى لهفه شــديدة لتخبره بقدوم أبنائه فأشــار الشــيخ فودة لها بيده أن تنتظر قليلاً وأدركت حينها بأن عليّ الإنصراف.

- فماذا أفعل الآن لأكون الأقوى يا شيخ؟

- ينســى الشــباب الصــغير الصــلاة لانهم يعتقدون أنه لا يزال الوقت مبكرا أو أن أمامهم بقية حياتهم للصلاة.

إرجع إلى الله قبل فوات الآوان يا شـــريف.. عُدّ وتب إلى الله.. حافظ على الصـــلاة وقراءة الأذكار. عُدّ من الذاكرين لله كثيراً.. ولا تنس أن تدهن كل جسدك يومياً من أصبع قدمك إلى رأسك بالمسك الأسود لانها تكره رائحتة وتشــعر بالإختناق أثناء شــمه وركز على منطقة الصــدر

والعنق والجبهة والعضـو التناسـلي وذلك لسـكنها وتأثيرها عليه ولا تقلق الحاجّة ستعطيك إياه أيضاً..

- فرددت مبتسماً فى محاولة لإخفاء دموع الحسرة :
- شكراً يا شيخ سلام عليكم ..
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أراك بعد شهر إن شاء الله..

وقبل أن أهم بالذهاب وقف الشيخ فودة وأمسك بيدي وقال لي:

- نصيحتي لك لا تهمل ولا تتكاسل حتي تنتهي من هذ القصة بسلام وأمان..
- سأفعل كل ما طلبته مني يا شيخ..

أخذ الشيخ يصيح: يا حاجّة يا حاجّة..

- جائت الحاجّة: نعم يا شيخ..

إعطيه من المســك الأســود وأوصــليه إلى الباب.. فى رعاية الله يا شريف.

- معذرة يا حاجّة لكن الزجاجة ثمنها غالي جداً وليس لدي ما يكفي من المال وأمامي سكة سفر.. فهل يمكن أن أشتريها من أي مكان أخر؟

- لا يمكن فهذا مسك المدينة الأصلي.. اما الأنواع الأخرى تكون مخشوشة؛ لا تنفع ولا تضر.. خذ هذه الزجاجة الآن وأحضر ثمنها المرة القادمة..

نظرت لها بكل ممنونية وأنا انظرإلى الزجاجة: شكراً يا حاجّة.

- الشكر لله يا بني..

نزلت من الغرقة وإذا بالصالة مملوءة عن آخرها من أبناء الشيخ واطفالهم الصغار يتشاجرون مع بعضهم البعض فكلً منهم يريد ان يصعد لجده اولاً وينظُرُونَ الي نظرة عتاب ولوم ربما لأننى مَكَثْتُ معه لفترة طويلة.

فى طريقى مسرعاً للعوده للمنزل كنت بحالة مزاجيه غريبة؛ لا استطيع أن أحدد إذا كنت سعيدا أم حزينا؛ حزين على خسائر الماضى و سعيد على قوفى أخيراً على مشارف الطريق الصحيح.

فور وصولى قمت بإنارة كل غرف الشقة بتشغيل جهاز الكمبيوتر والتلفزيون على أفلام ومسلسلات والراديو على مباراة كرة قدم على

إذاعة الشـــباب والرياضـــة وكل منهم في غرفة وقمت برفع الصـــوت وتركتهم.. ســـماع صـــوت أي شـــئ بجانبى يطمئن قلبى وينقيه من المخاوف. أشـعر بالخوف قليلاً وربما هذا الخوف يفسـد متعة سـعادتى بلقاء الشـيخ فودة وتحديد سـر العقدة التى لطالما حيرتنى كثيراً لمعرفة سرها. ولكن بدأ الليل يفترس ويقاتل ليصبح سيد الموقف. كنت اشعر وكأن هناك أشياء تتحرك حولي وكأني ألمح خيالها بطرف عيني فأنظر نظرة سـريعة نحوها فلأ أجد شـيئا كنت أخاف أن أذهب في النوم لكنه يغلب ولا يُغلب السـاعة كانت قد تجاوزت الثانية عشـرة والنصـف بعد منتصف الليل، صليتُ العشاء وغلبني النوم.

***

السبت، ٨ يونيو ٢٠١٣.

أريَـــــد أن أتَحدث و أتحدث و أخرج ما بدَاخلي و لكنَ لمن؟ الجميع سينفر مني بـــمجرد معرفته فربما يبدأ البعض في أخذ الحيطة والحذر من التعامل معي وقد «يشـطح» البعض في تعاملهم معي، فيعاملونني بإستعلاء وربما بشماتة فلن أخبر أي شخص بحقيقة ما حدث. لا اريد أن أهدر حقي في المعاملة الحسـنة بدون فظاظة في التعامل، ولا شـدة في المؤاخذة، ولا انتقاص من كرامتي الإنســـانية أو الحط منها، فقط لأني «ملبوس».

أخذتني قدماي إلى شـارع بطرس غالي وجلسـت في الإسـتراحة انتظر كثيراً حتى خرج آخر مريض عنده حتى أدخل لـه لأني لم أكن حاجزً ميعاد مســـبق.. أنا بعتذر يا دكتور علي القدوم بدون ميعاد ولكن هذه مسألة لا تتحمل التأخير.

– تفضل يا شريف.. إجلس.. خير؟

– أعتقد أنني أدركت أخيراً السبب وراء كل ما كان يحدث ليّ يا دكتور.

إبتســـم الدكتور ممدوح إبتســـامته الســـاخرة التي لطالما كنت أريد ان

أمحوها من الوجود:

– إذا فأنت بالتأكيد ذهبت إلى طبيب آخر!

إبتسم شريف إبتسامة باهتة: لا ذهبت إلى شيخ صالح في قرية شبرمنت..

لم يتفاجأ الدكتور ممدوح وكأنه كان لديه علم مسبق بذلك وهو ما أدهش ودفع شريف لسؤاله:

– هل قلت شيئا خاطئا؟ ألست مستغرباً يا دكتور؟

– لا أبداً، أنت فعلت مثل كثير من المرضى يذهبون إلى مشايخ هم في الحقيقة دجالون ومحتالون وبعضهم يعمل بالسحر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

– أخبرنى إذاً بما حدث..

أجهشت في البكاء وأخبرته بأن إبنة إبيلس تعشقني وتمنع عني كل نساء العالم ولن أتزوج لطالما هي ترافقني.

أخذ الدكتور ممدوح يضحك بسخريته المعتادة التي قاطعتها هذه المرة

ونظرت له بصرامة:

– صدقني يا دكتور الشيخ فودة ليس له علاقة بالسحر وهناك شئ وحيد تذكرته وفكرت فيه وهذا هو الذي جعلني أقتنع بتفسير الشيخ واتأكد منه. شئ يحدث لي منذ فترة طويلة واهملته ربما لأني لم أجده مهماً.

– ما هذا الشئ يا شريف؟

– منذ نزولي مصر وبدأ يراودني حلم بل كابوس مزعج ويتكرر؛ يأتي بصورة متشابهة لدرجة قد تصل إلى التطابق، لا يأتي كل ليلة بل يتكرر على مدار شهور او ربما سنوات.

– احك لي ماذا ترى في هذا الحلم..

يحدث أنى اثناء نومي فوجئت بيد ناعمة توقظنى من نومى الطويل. فإذا بفتاه فاتنة أعتقد انها في منتصف العشرينات من عمرها، قصيرة القامه، رشيقة القوام، يبلغ طولها اقل من متر و نصف، شعرها ناعم أحمر اللون طويل وكثيف يغطى ملامح وجهها الداكن بالكامل ألمس منها حنانا عندما توقظنى من نومى. جاءتني ومعها رجل ملتح. جسده ضخم جداً لم أر في حياتى رجلا بهذه الضخامة! ليست ضخامه

عضلات بل ضخامة الجسد ككل، كانت رِجله مثل يده، عيونه واسعة جداً له أُذُنان تشبهان ما لدى القطط ولكن أكبر فى الحجم، له شعر كثيف لكنه خشن وقصير ملتف حول نفسه يشبه الوبر ويغلب عليه ايضاً اللون الأحمر، كان يقف وراء الفتاه تماماً مثل Bodyguard يلازم مطربة اثناء احياء حفلة وكأنه يحرسها خشية من أن يصيبها أى ضرر او سوء وهذا هو ما كان يكدرني ويعكر صفو الحلم ويجعله عبئاً ثقيلاً وضيفا أتنفس الصعداء بإستقباله رغم المتعة التى أشعر بها حينها.. كان منظره يجعلني خائفاً لا أستطيع أن أفعل شيئا سوى أن أستسلم إلى تلك الحسناء التي تقترب مني وتحاول أن تحتضنني مع تقبيل في بعض الأماكن، أشعر وكأني في كامل وعيي وليس في حلم ولكن في نفس الوقت لا استطيع ردها ربما لأني أجد لذة في ذلك خاصة بعدما تأتي المرحلة الأخيرة من الحلم عندما أبدأ في ممارسة الجنس معها. ولكن سرعان ما أستيقظ وأذهب للأستحمام وأمارس روتين حياتي اليومي وأنسى بسرعة ما كنت احلم به من الأساس.

– هل رأيت هذه الفتاة من قبل في الحقيقة؟

– لست متأكداً حتى إن كنت اعرفها أم لا.. شعرت إنها ليست بالغريبة عني ولكن لا استطيع ان أجزم فشعرها يغطى ملامح وجهها الداكن

وتكون غرفتي في ظلام تـام فلا يفرق بين وجههـا والظلام من خلفهـا شـــيءً. ولذلك حتى يبدو ليّ الحلم وكأنه حقيقة وليس حلما؛ من شـــدة واقعيته وحدوثه في نفس المكان والزمان والحالة التي أنام عليها حيث أكون نائمًا في غرفتي وعلى فراشـــي في الليل. في الحقيقة لا أدري يا دكتور، لسـت واثقًا من أني لم أرها ابداً من قبل. ولكن إذا رأيتها سـوف أســتطيع بكل تأكيد أن أميزها حتى لو وســط ألف فتاة لشــدة جمالها وحسنها.

– ولما تستيقظ هل تسمع أصواتا وترى خيالات وتسمع أصواتا؟

– أجل يا دكتور..

– هل تذكر منذ خمس ســنوات؛ هل مازلت واثقا أن هايدي جاءت إلى شقتك مرتين ونفت ذلك؟

– نعم، أنا متأكد.. ما حدث هو تماماً ما حكيته لحضرتك يا دكتور.

– حينها قلت لك أن الفتاة قد تكون مريضة..

وأستدرج الدكتور ممدوح: وبعدها، هل كنت متأكدا ان أغراضـك الثمينة لم تكن أمامك بكل وضـــوح قبل ان تفتعل تلك المشـــكلة الكبيرة وتتهم

ميار حينها؟

– نعم يا دكتور، متأكد.. كان ذلك أمرا غريبا جداً. ولكن ما فائدة تلك الأسئلة الآن يا دكتور؟ هل هذا يعني أنني المريض ليس هم؟

تأخر الدكتور ممدوح في الرد ثم سأل: هل تسمع أحدا يناديك بأسمك الآن؟ شريف.. شريف؟

– لا يا دكتور.. لا اسمع شئ سوى صوتك.

– وماذا إذا قلت لك أن أحدا ما يناديك الآن.. هل تصدقني؟

– لا، لن أصدق حتى أسمع بنفسي.

بالظبط يا شريف، لأن الحقيقة تكون على مرأى ومسمع من الجميع.. أما ما تسمعه وتراه انت وحدك، وهذا ليس حقيقي.

– لا أعرف يا دكتور لكني واثق مما اقوله لك، اخبرني ما هي الحقيقة الآن؟

– الحقيقة الوحيدة ان بقاءك فترة طويلة بمفردك بالإضافة لإستقبالك لمجموعة من الصدمات المتتالية باغتك فجأة دون أن تحسب لها

حساب. واحدة تلو الأخرى منذ نزولك مصر كان له تأثير سلبي عليك بشكل كبير وبالتالى أدى ذلك إلى تغير كيمية جسدك ووجود خلل كميائى داخل رأسك. يهيئ لك أنك تسمع أصواتا لأشخاص لا أحد سواك يستطيع أن يسمعهم او تَرَى أشياء ليس لها وجود فى الحقيقة وتظن أنك مراقب وأن هناك جنية موجوده معك تؤذيك مثلما تدعي او مثلما يدعي هذا الدجال..

– سأكتب لك عقار الأمفيتامين.. وأراك في نهاية الأسبوع وسأطلب منك طلبا أخر..إنتظر ولا تذهب إلى هذا الدجال حتى الزيارة القادمة حتى نتأكد من كل شئ أولاً. أتفقنا؟

– أتفقنا يا دكتور.

الأربعاء ١٢ يونيو ٢٠١٣.

- الدواء الذي وصـــفته ليّ لم تكن نتيجته إيجابية معي على الإطلاق يا دكتور بل كانت نتيجته عكسية.. فإزداد سماعي لأصوات غريبة تشبه صوت الرياح المتحركه فى فصل الشتاء كأن هناك شخصا يمضـــى بســـرعة الهواء من جانبي؛ لكني أعود واقول لنفســـي لأبد أن يكون الهواء المصاحب لبردودة الطقس فى عز شهر اغسطس. وأسمع احياناً دقا على الحائط وعلى الســـقف؛ فأظن أنه بالتأكيد ذلك الجار المزعج يدق مسماراُ فى الحائط المشترك بينى وبينه بالتزامن مع جارى المزعج الآخر الذى يقوم بجَر اثاث منزله اعلى سقف غرفتى؛ ولكن ما مصدر هذا الصوت الذى ينبعث من أرضيه غرفتى؟ هل أحضر جارى فى الدور الأسفل سلم ليدق مسمارا فى سقف شقته! وأعتقد أحياناً أني أرى خيالا لفتاة تناديني بأســـمى ولكن عندما أنظر خلفي او بجانبي لا أرى شـــيئاً واقول لنفســـى أِنى فقط قد هيئ لى رؤية ذلك وربما لأنني متعطش لذلك.

- أعراض الفصـام تظهر عندك بوضـوح شـديد نتيجة زيادة الدوبامين أو زيادة حساسية المستقبلات العصبية للدوبامين في جسدك. أنا كتبت لك عقار الأمفيتامين ذا تأثير دوباميني قام بزيادة نســـبة الدوبامين

وبالتالي إزدادت أعراض الفصـــام ولكننا بالتأكيد لن نســتمر في ذلك.. كان ذلك للتأكد فحسب وفي المقابل سأعطيك عقار الريسبردال المضاد للدوبامين وستتوقف هذه الأعراض تباعاً حتى تختفي تماماً وتشفي من الفصام.

– لأ أظن ذلك يا دكتور، قد يكون زيادة الأعراض أمر مربوط بخوفي الشديد أو زيادة حساسية إدراكي الحسي بترجمة أي صوت يحدث حوالي بأنه هي. ثم أن الجن حقيقة لا يمكن إنكارها وموجود بيننا ولكننا لا نشعر به، الجن موجود ومذكور يا دكتور ممدوح.

– أسمع يا شريف.. كل شئ لا تراه بالعين المجردة او تستطيع إدراكه بحواسك أو بوسائل إدراكك يُسمى عالم جن! وهناك فرق بين وجود الشئ وإدراكه.. ففى زمن مضى مثلاً لم نكن ندرك وجود الڤيروسات ومع ذلك كانت موجودة وتؤثر فى حياتنا فى صورة أمراض نشعر بأعراضها مثل إرتفاع درجة الحرارة والألم الشديد.. فكل شيء سُتر عن البشر يشتق من مادة الجيم والنون والميم سواء كان عاقلا او حتى غير عاقل. ومنه سميت الجنة لأنها مخفية عن الأعين تماماً، الجنين سمي جنيناً لأنه في بطن أمه مختفٍ، الجنون لأنه يستر الوعي، وبالتالي كل ما اختفى عن العين سميّ عالم جنّ.

الأمر يتجاوز فهمي للأمور وفي نفس الوقت الأمر يتجاوز الصـــدفة لكني كنتُ أقول في نفسي؛ الله يعينك على خيالك يا دكتور ممدوح! إذا جادلته سيقول عني عنيد وإذا جلست صامتًا سيقول عني غبي. فـــما جادلته مرة إلا وغلبني.

– لكن يا دكتور ممدوح أنا أيضاً درست الطب وأعلم جيداً أن البكيتريا من الممكن رؤيتها بالمجاهر الضـــوئية والفيروســـات بالمجاهر الالكترونية.. فصفه عدم القدرة على رؤيتها غير صحيحة!

– أجل يا شـــريف، لا تســـتطيع أن ترى الفيروس بعينك، ولكنك تراه تحت الأجهزة التي ذكرتها، وحتى تأثيرات الأرواح يمكن من خلال ترشيح الضوء أن تراها. هل تستطيع أن ترى البكتيريا على يدك؟ هل تشـــاهد الفيروســـات وهي تتحرك مثلاً؟ إذا لم ترها بعينك المجردة فهي تنتمي لعالم آخر وهو "عالم الجنّ".

– هل تقصد ان البكتيريا والفيروسات نوع او فصيله من الجن؟

رفض الدكتور ممدوح إعطاء إجابة قاطعة ولكنه كان مُصرّا تماماً على أن كل ما لا نستطيع أن نراه بعيننا المجردة يخضـــع لعالم الجن، لكن ليس بالجن المخلوق والمذكور بالقرآن ولكنها عوالم تنتمي إلى الجن.

– وما العمل يا دكتور برأي حضرتك؟

– لابد من العلاج الدوائي..

– من فضلك يا دكتور، انا الآن لا ارغب في بلبعة المزيد..

– العلاج الدوائي يا دكتور شريف سيجعلك لا تسمع أصواتا ولا ترى أى خيالات وستتوقف كل الهلاوس السمعية والبصرية..

صاح شريف مقاطعاً: ليست هلاوس يا دكتور!

– وتذكر أن التوقف عن الدواء سيؤدي الي ظهور رد فعل معاكس؛ ستفقد خلايا من المخ ويؤدى ذلك إلى مقاومة العلاج، وفي هذه الحآلة جسدك سيكتسب مناعة ضد العلاج، أرجوك لا تسيئ التصرف في حق نفسك وحق كل الناس المحطين بيك.

– أُصاب بالنعاس وأنام على غير وعي وأستيقظ ويتكرر معي ذلك إلى أن ينتهي يومي دون أن أنجز شيئا في دراستي!

مسك الدكتور ممدوح بالقلم وبدأ يكتب على دفتر الروشتات فإذا بالقلم لايريد أن يكتب، جلب قلما آخر فإذا بالقلم الثاني لا يكتب على الورق قطعاً. فهل هي مجرد صدفة!

يبدو أن الدكتور ممدوح تذكر الدرج الذي كان يحفظ به بعض الأوراق فأخرج مفتاحه من درج مكتبه وقام ليفتحه لعل وعسى يجد قلما يكتب.

إطمأننت إلى أن عقلي لم يذهب بعيداً ولم يُمسّه شئ بسوء عندما بدأ الدكتور بكتابة أسم الدواء على دفتر الروشتات بعد أن جلب قلما آخر.. نعم، إنها مجرد صدفة وليست لعائنة دخل في ذلك.

– أنت عمرك في بدايات العشرين – في هذه الحالات تكون الآثار الجانبية بسيطة جداً، بل قد لا تُلاحظها إذا ستبدأ بجرعة صغيرة، ثم نبدأ في بناء الجرعة. وأرجو أن تبدأ بخمسة وعشرين مليجرام، تتناولها يومياً صباحاً أو مساءً، استمر على جرعة الخمسة وعشرين مليجرام هكذا يومياً لمدة شهر، ثم اجعلها خمسين مليجراماً يومياً وهذه الجرعة جيدة، استمر عليها لمدة شهرين، بعد ذلك اجعلها خمسة وسبعين مليجراماً يومياً، تناول خمسة وعشرين مليجراماً صباحاً، وخمسين مليجرامًا ليلاً، استمر على هذه الجرعة لمدة ستة اشهر، ثم اجعلها مائة مليجرامًا يومياً منقسمين على فترتين خمسين مليجراماً صباحاً وخمسين مليجراماً مساءً لمدة ستة أشهر أخرى، ثم خمسة وعشرين مليجراماً يومياً لمدة شهرين، ثم خمسة وعشرين مليجراماً يوماً بعد يوم لمدة شهر، ثم توقف عن تناول الدواء وستكون شفيت بإذن الله. هذا الدواء

لا يُســـبب النعاس ولا الخمول، ولا يزيد من اليقظة، أي أنه دواء مُحايد من هذه الناحية. وكما ترى فعالية الدواء تُبنى بالتدريج كما إن التوقف عنه سيكون بالتدريج ايضـاً. ولا تنس إنك طبيب و لعلك تعلم أن بعض الحالات تســتوجب علاجا كميائنا ولا يوجد دليل علمى واحد على وجود جن وحسد وسحر وكل هذه القوة الخارقه لعالمنا.

مد يده ناحيتي يعطيني الروشــتة وقال؛ لن أقول لك ماتريد ان تسـمعه، ولن أوافقك فى الرأى هذه المرة.. اســـترخِ قليلاً وتمالك أعصـــابك يا شـريف، عليك أن تثق بى، لن أفعل كما يفعل أى طبيب آخر وأضـغط عليك، لن أســتخدم معك أى أســلوب من أســاليب الطب النفســى التي تعتقد أنك تعرفها جيدًا. لا وجود لأي خيار بديل عن العلاج الدوائي. كلنـا نؤمن بوجود الجن ووجود القرين وملـك على اليمين وملـك على الشمال و كل شئ مسجل وكل شئ الانسان سيُحاسب عليه وإيماناً بكل هذه الاشياء إيمانا عقائديا. ولكن فى النهاية، بلا دليل علمى واحد. اهم الأسباب التي أدت إلى شيوع تفسيرات الجن والسحر والشياطين والحسد هى أســـباب لها علاقة بالثقافة. و ما يحزني إنك رجل مثقف.. من الخِزْيِّ أن تلجأ لــدجال ومشعوذ. أنا في الحقيقة مندهش! عادة المستوى الثقافى عن الأمراض النفسـية يمكن أن يجعلك تلجأ إلى هذه التفسـيرات

بدل من التفســـيرات العلميه مثل وجود خلل كميائى مثل حالتك او ما شبه ذلك.

وســـائل الأعلام لعبت دورا يصـــورلك البطل ظهر له «عفريت» من الفنون. وكُتب تقوم بعض دور النشـر بنشـرها عن السـحر والأعمال ما أنزل الله بها من ســلطان وكيفية تحضـــير الجن، الكلام المكتوب فيها ليس بـكلام علمي. الأعلام هو أحد عوامل مرضك.. فالأفلام هى التى جعلتك تقتنع بالعفاريت وتاثيرها عالإنســان تماماً مثلما جعلتك تقتنع أن تدرس شيئاً لا تحبه.

الطب النفســى علم مبنى على دراســات طبية حاله حال أى تخصــص آخر فالـــــــطب. مفاهيمه وأبحاثه لا تثبت وجود الجن و تاثيرهم على الأنسـان. لا يمكن أن نثبت ذلك ولا يمكن أن ننفي ذلك لان هذه الأمور غير خاضعه للقياس ١+١ لا تساوي ٢. لا يوجد بحث علمي عليها ولا تعريف موحد لها. كطب نفســي، نحن لا نســتطيع الجزم بوجود جن او أعمال سـفليه وأمراض تنتج عنها وكذلك لا نسـطيع أيضـاً أن ننفى هذا الإحتمال. صـدقني يا شـريف علاقة الامراض النفسـيه بالجن هى نفس علاقه امراض الباطنـة بالجن. إذا حقاً توجد علاقة، فهى قائمه فى كل الأمراض الطبيـة. و إذا لا توجـد علاقـة، فهى غير قـائمـه فى كـل

الأمراض الطبية. كل الديانات تعترف بوجود الملائكة والجن. اما تاثيرها على الانسان، فالشرائع السماويه لم تفسر كيف يتمكن الجن من أن يفرق بينك وبين صديقتك او حبيبتك.

أخذت الروشته ولكني لم أصرف الدواء لعدم ثقتي في الادوية النفسية وعدم إقتناعي بإني مريض نفسي من الأساس ولأني لا أستطع الإستمرار عليه وخصوصًا لو طالت فتره العلاج؛ وإلى جانب ذلك، انا بالفعل وجدت التفسير الأقرب للحقيقة. ربما أرى أن كلام الدكتور ممدوح صحيح لكن ليس مئة بالمئة، أنه كلام متناقض يدل على جهله بالدين وأنا لا اثق فيه! فإذا جاءت الأديان كلها وحدثتنا عن وجود قوى الخير والشر مُتَمَثِّلِينَ في عوالم من الجن والملائكة. فلا يليق أن لدكتور في مكانة دكتور ممدوح أن ينفي وجود هذه الأشياء لمجرد أننا لانستطيع إدراكها فكلً منهم لهم تأثير فى حياتنا على الرغم من عدم إدراكنا إياهم.

خرجت من العيادة متجهاً إلى منزلي سيرًا على الأقدام: الطرق مزدحمة، كنت أنتظر الاتوبيس فى المحطة والتى كانت أيضا مزدحمة بعض الشيء وكنت أقف أراقب المارة والسيارات فى الشارع؛ ففي سعادة الآخرين أجد سعادتي وأما إذا كان الآخرون من حولي تعساء فبؤسهم

وتعاستهم تنعكس عليّ. كل من أراهم في عمري وحتى عمر الثلاثينات تبدو على وجوههم التعاسة وهذا شئ في قمة البؤس. الطلاب في الجامعة حتى كليات القمة تعساء من أساتذة الجامعة والمناهج وكل ما يتعلق بحياة «النفخ» التعليمية، أبحاث ومشاريع سد خانة، درجات الحضور والغياب هدفهم الشكل العام تمام والمضمون «أي كلام». أما الخريجون فالتعاسة بالنسبة لهم مصدرها أما نمط العمل التقليدي والحياة المهنية بلا تقدم او عدم وجود عمل من الأساس. فماذا أنت فاعل بكل هؤلاء يا دكتور ممدوح بعلمك وكتبك تلك؟

مهنة دكتور ممدوح دائما ما كانت تضحكنى. عالم نفسي كبير يقضي كل حياته المهنية بشكل مستقل فى عياداته الخاصة بعد التخرج من الكلية في محاولة فقط لمعرفة كيف يعمل العقل البشرى. كل تلك التجارب وجميع تلك النظريات والأبحاث، امضى سنوات في محاولة للحصول على شهادة ودرجة علمية، لكني أود أن اقول لك يا دكتور ممدوح أن كل تلك التجارب والنظريات والابحاث تأخذنا إلى الوراء ليس للأمام. أعتقد أننا كنا نعرف الكثير عن العقل البشرى قبل نشأة علم النفس. نحن الآن بالكاد نعرف شيئاً. لدينا المعادلات والنظريات لكنهم يوصلونا الى طريق مسدود ليس له نهاية. فعلى الرغم من الضربات

التى شـنها علم النفس ووجهت ضـد الاكتئاب والاضـطرابات النفسـية، خلال العقود القليلة الماضية متسلحاً بسلاح التجارب والنظريات تحوّل حيرتي وشكوكي إلى سؤال دائماً ما يأتينى وبكثرة؛ إذا كان علماء النفس والأطباء النفسـيون يعلمون الكثير عن العقل البشـرى هكذا، إذاً فلماذا يعيش الإنسـان حياة تعيسـة؟ قد لا أكون طبيبا نفسـيا، ولكن أنا متأكد من أن الأشـخاص السـعداء لا يقتلون أنفسـهم، و معدلات الإنتحار فى تزايد. يبدو أن علم النفس لم يفعل شيئا قد يسهم فى إحداث تأثير لعلاج تعاسـة الإنسـان ! كان علماء النفس لديهم دائماً هذا الفضـول الغريب لكى يعرفوا لماذا نقوم بفعل أشـياء محددة دون غيرها أو لماذا نفكر بعض الأفكار المعينة. ولكن فى كل هذا الوقت، لم يجمعوا أى مكاسب فى معرفة كيف يجعلوننا سـعداء. لقد حاولوا.. نعم حاولوا وبطبيعة الحال؛ مشكلة تعاسة الإنسان استعصت على الحل. ربما ساروا في الاتجاه الخاطئ. ربما ساروا على طريق جعلنا أكثر وأكثر إحباطاً مما كنا عليه حيث أرتفاع معدلات الإكتئاب والإنتحار والقتل. هناك شـيئ ما خطأ.. مجرد إحساس لكنه هو الأقرب لليقين. على الجانب المشرق، ما زال هناك أمل. يستطيع كل فرد يجد السعادة بطريقته الخاصة. هذا لا يعني أن كل المعلومات والإحصائيات والدراسات والنظريات التى قام بها علماء النفس والأطباء النفسـيين، مجرد نفايات. ولكن من الممكن

أن تُستخدم هذه المعلومات فى الطريقة الصحيحة التي يستفيد العالم بها بحق. كل تلك العقاقير التي تعالج الإكتئاب، والهوس الإكتئابي، و الأمراض النفسيه الأخرى تدفعنا فقط أبعد وأبعد من قهر تلك الأمراض والإضطرابات. هذا يزيد من سوء حالة الإنسان بدلا من مساعدتها.

أبحث عن هاتفى كالعطشان الذى يبحث عن ماء لنبتة الدبلان .. إتصلت بنهى سأخبرها بكل ما حدث. أثق أنها ستفهمني ولن تنظر للموضوع بمنظور ضيق وخاطئ وإن كنت اخشى فقط أن الحقائق ستكون مخفية وصادمة عليها.

- الو..
- الو كيف حالك يا شريف؟
- نهى أنا أريدك في أمر مهم لا يتحمل التأخير.. هل من الممكن أن أقابلك في الركن البعيد الهادئ بعد ساعة؟
- شريف قلقتني عليك..هل أنت بخير؟
- أنا بخير يا نهى.
- سأكون هناك إلى جانبك يا شريف.. إنتظرني.
- في إنتظارك.. لا تتأخري.
- شريف، هل احضر معي أي كتب؟

- لا يا نهى الأمر لا يتعلق بالمذاكرة، ستعرفين كل شئ عندما تأتين.

***

السبت، ٢٢ يونيو ٢٠١٣.

وصلت إلى المقهى سيراً على الأقدام حتى أصل بالتزامن مع وصول نهى.. لكنها تأخرت فتوجهت إلى طاولتي المعتادة في المقهى وطلبت قهوتي المعتادة مع حسام حتى تصل نهى وإنتظرتها طويلاً وشعرت بملل لدرجة أوصلتني إلي أن أفصح لحسام بكل شئ.. شعرت حينها أني سأجن إن لم أحك لأحد فأخبرته أنني كنت أذهب للدكتور ممدوح على مدار فترة طويلة ظناً مني أني مريض إلا أني تأكدت ف يوم جمعة أنني لست مريضا وهو ما صدق عليه وقال: أنت لست مريضاً يا صديقي، أنت فقط متأثرا من حالة حب.

- دعنى أكمل لك يا حسام وأخبرك ما الذي حدث في هذا اليوم وجعلني أتأكد من ذلك..

كدت أن انطق له بحقيقة الجنية إلا أن لساني توقف عن الكلام حينما رأيت نهى وصلت للمقهى وصارت بإتجاهنا بإندفاع فقدمها كانت تسبق الأخرى.. وإن كان يبدو عليها بعض القلق والتوتر فقالت كلامها بدون ترتيب:

- أسفة على التأخير يا شريف.. Hi حسام!

- لا يهمك يا نهى..
- هل لك أن تخبرني ما الموضوع؟

نظرت إلى حســـام ففهم أني أريده أن يتركنا.. فنهض وقال: ســـأذهب لتفقد بعض الأمور وسآتيك بعد قليل..

- هاا يا شـريف هل لك أن تخبرني او سـتتركني افقد عقلي وأنا في عز شبابي؟

حكيت لها عن الدكتور ممدوح وحكيت لها عن الشيخ فودة.. حكيت لها عن عذابي.. حكيت لها عن وحدتي.. حكيت لها كيف اعيش حياتي وسمعتني حتى النهاية وقالت:

- لا يا شـريف أنا لا اصـدق حرفاً مما تقول ولا أصـدق الكلام الذي قلته كله.. هذه قصَّـة خياليَّة سـخيفة أراها غير منطقية ولا تدخل العقل! ودعني احكي لك موقفا حدث معي..
- رد شريف وكان متربصا لها: تفضلي..
- اثناء حمل سيدة.. عملت لها سونار بنفسي ووجدت انها حامل في بنتين توأم.. واثناء ولادتها فوجئت بأنها واحدة وليس توأما. فوجئت السـيدة مرة اخرى بأن الطفلة ترفض الرضـاعة او شـرب أي شـئ

وتوجهت بها إلينا في القصـــر العيني. ووضـــعناها فى الحضـــانة ولم تتحسـن حالتها، فإتصـلنا بإسـتشـارى الجراحة، فطلب منى نقل الطفلة إلى قســم الجراحة وهناك أجريت عملية اســتكشــاف للطفلة أظهر كتلة متغايرة مع أجزاء متكيســـة و أجزاء صـــلدة وعثروا على ورم كبير فى بطنها، وأثناء استئصـاله، عثروا على جنين محاط بكيس، وقاموا بعملية لأستئصـال الكيس، وعند تشريح الكيس، وجدوا جنينا عمره ثلاث أشـهر بداخله وكان هذا الجنين به شعر وأسنان.

- هذه حالة غريبة لم أســـمع عنها من قبل! ولكن ما علاقة ذلك بموضوعنا؟

- تمهـل! انهـا ليس بـالغريبـة.. الأم كـان عنـدهـا Ovarian Teratoma وتكون شــعر واســنان في رحمها وهي حالة غير طبيعية لعيب ما لن نتطرق للحديث عنه ومن خلال ألام إنتقل لبطن الجنين. ولكن هذا لم يكن تفسـير المشـايخ الذي لجأت لهم هذه السـيدة قبل أن تعود إلينا.. فقالوا لها أن الطفلة مسـكونة وعليها «عفريت» وأشـياء من هذا القبيل. ما هي إلا تخاريف، ولا يجوز لشـاب متعلم ومثقف مثلك أن ينشرها ويهولها ويصدق فيها بأي شكل من الأشكال.

- حسـناً ولكن هذا ما حدث معي يا نهى وعليك أن تصـدقيني.. أنا لا أكذب رأيته بعيني يســـأل مبارك الجن الطيب الذي يحضـــره من

أجل مساعدته في أخراج الجن الشرير ثم طالت جلبابه وأخبرني بكل شئ كما حدث معي تماماً وكأنه يعرفني منذ زمن طويل.

- إلى هذا الحد اقنعك هذا الشيخ يا شريف إلى هذا الحد ترى كلامه منطقي للغاية ولا غبار عليه؟ ألا يمكن لهذا الرجل ان يشد جلبله فيتمدد ببساطة؟

- أجل يا نهى كان كلامه منطقي. كلامه كان منطقيا للغاية. أغلقت فمي ونفخت بقوة من العصبية ثم أخذت نفسا عميقا وقلت: أنا احتاجك أكثرمن أي وقت مضى يا نهى.. ليس أمامك سوى أن تصديقيني او تساعديني على إيجاد حل أو تفسير منطقي لهذه الظاهرة قبل أن أفقد عقلي.

- سيادة وهايدي وميار ومودة لم يكونوا ملائكة نزلوا من السماء. شريف من فضلك توقف عن إلقاء اللوم على الشيطان بسبب سوء إختيارتك. صدقني يا شريف كل بداية لها نهاية. وهكذا انتهت قصص الحب بينكم.. أنظر حولك فكم من حبيبين أحبوا بعضهم بعضاً ثم تفرقوا!

- بلى ولكن كل ذلك لم يحدث اعتباطاً يا نهى. وكيف انسى والقوس لا يزال مفتوحاً (.. كل شئ يكون مثاليا وأشبعت وعودا منهم بأنهم لن يتخلوا عني ابداً ورحيلهم كان بدون سبب.

- أرجوك هذا يكفي! أنس الماضي يا شريف فالماضي جراح.. الماضي عذاب.. الماضي آلام.. أنظر أمامك فالمستقبل أمامك وليس الماضي.. دع الماضي يذهب لحاله واتركه فلا نريدة ولانريد أن نتذكرة.. تفاءل بالمستقبل فان حياتنا ستكتمل في المستقبل وليس في الماضي الحزين..

- وأردفت: يجب أن تأخذ الدواء.. وصف الدكتور ممدوح السلمي وحده دليل قاطع على أنك في حاجة للعلاج، فأرجو ألا تهمل نفسك، ولا تتزعج من الدواء. وما دام هنالك وسيلة تزيله، فلما لا تستفيد من الدواء؟

- نهى! انصتي لي جيداً.. كل ما يريده الدكتور ممدوح هو إقناعي بأني مريض مع وضع خطة علاج طويلة قد تمتد لسنوات قادمة حتى يظل يتحصل مني على المزيد من الأموال يجمعها ويفتح بها مزيدا من العيادات لتكون جاهزة لأستقبال المزيد من الأبرياء لأقناعهم أنهم مرضى. ثم هل أبدو لكِ أني مريض أشد في شعر رأسي؟

- لا يا شريف ولكني متاكدة أن الدكتور ممدوح طبيب قدير ومحترم وأيضاً متأكدة أن قصة الجنية مجرد كلام فارغ.. هل تصدق كلام رجل جاهل؟ او ربما هذا الرجل يريدك أن تتقرب من الله فلم يجد سبيلاً إلا ان يوهمك بذلك ظناً منه أنه بذلك يخدم الدين.

نظر لها شـريف بخيبة أمل. وأراد أن يشـرح لها بطريقة ما أن المسـألة ليست كما تظن ولكنه عجز عن ذلك.

- يا شريف اسمع كلامي فحسب..

صـاح شـريف فيها غاضـباً: ومن أنت حتى اسـمع كلامك بعُمْيَانٌ كما ترديني ان افعل..

لا شـك أن كلام شـريف جرحها، فلقد تحول وجهها إلى اللون الأحمر وهي تقول بسخرية:

- ومن أنت حتى تترك تلك الجنية أجسـاد كبار مشـاهير ونجوم العالم وتختار أن تسكن تحديداً جسد شريف شـهاب وليس ليوناردو دي كابريو؟

- لم اقصـد إهانتك يا نهى.. أعتذرلكِ على أي حال على كلامي الجارح.

- يا شـريف من الممكن أن أغضـب منك او قد أنهرك وأصـرخ باكية في وجهك وحتى تصـل لدرجة أني قد اقاطعك لفترة، ولكن حينها تخرج أمام عيني كل صـور البراءة في تصـرفاتك وأفعالك الطيّبة، أندم على قراري وأغرس نفسي فيك من جديد.

- واستطردت نهى: هل شاهدت فيلم عفريتة هانم؟

- لا، ماذا عنه؟

- من الأفضل انك لم تره فمثل هذه السيناريوهات لن تشاهدوها أبداً إلا في الأفلام العربي القديمة.

- ومن أين جئت بهذا التأكيد يا نهي؟

سكتت نهى قليلاً ثم تحدثت بمنتهى الجد والصرامة بصوت هادئ ربما يخفي الكثير من الشوق بداخله.

- لأنِ أنا أحبك يا شريف.

آخر ما كنت اتوقعه.. كنت غير مستعد لأستقبال هذه الفاجعة لقد صُعقت بشدة من هول ما سمعته وفنجان القهوة على فمي، نظرت إليها ولم أنطق بكلمة ولا أدري ماذا اقول ولكن كل ما أعرفه أنني سعيد للغاية ولكن نهى كان مازال بداخلها مزيد من الكلام لتقوله:

- أجل يا شريف، أنا أحبك سراً منذ سنة وسجنت حبى داخل قلبي وأغلقت عليه لكنَّي ظلَّلت قلِقة من أن تأْتي بأخرى تحبُّها، ولَم يُغادر الخوف قلبَي يوما؛ فأنا ضمِنَت البقاء معك كأصدقاء لكنَّي لم أكن اضمن أن تبقى أنت معي كحبيب، وأخوف ما اَخاف منه أن تأْتي

أُخرى محظوظة فتضـــيع كل أمالي وأعيش جحيمًا مضـــاعفًا. إذا كانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ كما تقول، فلم كنت إستمريت في حبك كل هذه الفترة.

دخلت في حوار طويل ومتعمق مع نفسي لم يستغرق بضعة ثواني:

- منذ نزولي مصـــر نويت على ألا اختار زوجة ليّ إلاّ من الفتيات اللواتي ينتمين إلى طبقة تناســـب طبقتي المادية الاجتماعية ووضـــعي التعليمي المتميز، ورفضـــت أن أتنازل عن تلك الخطوط العريضة في إختيار شريكة حياتي، وشددت عليها لدرجة أنني رفضت أن ارتبط بأي فتاة تكون طالبة في كلية الطب مهما كانت متميزة عن غيرها من الفتيات. إلا أن تلك القناعة قد تغيّرت حينما أيقنت أنني لدى إشكالية ما تجعلني فاشلا في علاقاتي بالجنس الآخر وهنا تنازلت عن شروطي تلك وأخذت ابحث عن زوجة المستقبل ذات ظروف خاصة او غير مستقرة؛ اعتقاداً مني أنها ستكون ممتنة وسعيدة وأكثر صبراً وقبولاً من الفتاة ذات الظروف الجيدة او المستقرة. صبر نهى كل تلك الفترة وحِرصـــها عليّ –رغم جفاف عاطفتي معها– كان عامِلاً مهما من عوامل إكتِشاف سر حبها ليّ، وذلك أني – وفي فترة مراجعة لعلاقتي العاطفية، وجلسة مصارحة مع النفس – وجدت أنّي أحرم نفسي السعادة بنفسي، وأعيش مهمومًا وأنا السبب. اخيراً وجدتُ فتاة تحبني أشد ما

تحب النساء الرجال، ووجدتُني لا أُبادلُها تلك العلاقة أو حتى بعضها، فقَررت أن أغير من موقفي، ولأن السنين تمضي وأنا أعيش حياة جافة. قَررت أن أحب نهى، وأن أُبادلَها شعورها، لم يكن قراراً صعباً؛ لكن الأصعب هو تطبيقه! وفي الحقيقة، هو لم يكن قراراً من الأساس.. فالحب لا يكون إختيارا او قرارا. الحب يقتحم القلب دون إستئذان. قلبي لن يدق يوماً لنهى ولكن جاء في بالي مثل يقول «خد اللى يحبك ومتخدش اللى بتحبه» هذا المثل يعنى أن من يحبك سيحاول دائماً ان يسعدك بقدر ما يستطيع، وهذا هو كل ما أريده ويجبرني على أن أعشقه عشقاً. إنما من تحبه سيبحث عن سعادته هو فحسب وأنت مطالب دائماً أن تعمل جاهداً على ذلك. ما أصعب أن تحب شخصا لا يبادلك نفس الشعور والأصعب أن تحب شخصا ويبادلك نفس الشعور ويقول لك أحبك.. أحبك.. أحبك.. وكل تصرفاته تقول أنه حب وكل أفعاله تقول أنه حب والمشاعر متبادلة وفجاة تتفاجأ فى يوم أن كل شئ كان كذبا ووهما ويتركك ويأخذ قلبك معه. فمن اليوم لن أعطى حبي إلا لمن يقدره ويستحقه.

عدت سريعاً من حالة التفكير والسرحان إلى الواقع ومازالت نهى تترقب أول رد فعل ليّ، فنظرت إلى عينيها وقلت لها بتنهيده مُشبعة بالإرهاق الممزوج بالفرحة والأمل: وأنا ايضاً أحبك يا نهى.

في الأيام التالية بدأت أتحدث مع نهى متكلفاً لكني شـــعرتُ بأثر ما حدث على حياتي. أخبرتني نهى فيما بعد بســـعادتها البالغة في تلك اللحظات بما لم أكن أتوقع، ومنها عرفت معاناتها في ســـنة غابرة عاشـتها تخفي مشـاعرها الحقيقية عني وتتألم من داخلها. بدأت أُمارس الحب متكلفاً بعض الشئ، وأُحاول الضـغط على نفسـي في القيام بأدوار رومانســية معها، وتدريجياً وقعتُ في فخه وأحببت نهى حباً حقيقياً بكل ما يحمله الحب من معاني، وأكتشــفت كم خســرت من نعيم خلال تلك الســنوات العجاف وكان بيدي ألا أخســر. وتغيرت مشــاعري نحو نهى ومع الأيام بلغتُ مبلغاً لا أستطيع وصفه. بعد أن شعرت نهى بالأمان، وعرفت حبي لها وأنه صادق، ظهر منها ما لم يكن بالحُسبان ولا يخطر لي على بالي يوماً. تغيرت مائة وثمانين درجة، ورغم أنها كانت محبة وذات دلال من قبـل، إلا أن الخوف والقلق منعـاهـا من كثير من الإجراءات والإبداعات.

فلما أمنت ولما حصـــلت على الحب والأمان من ناحيتي، أبدعت أيما إبداع، سواء في علاقتِها معي أو مع الآخرين من حولها، وفي علاقاتها الاجتماعية. وأصـبحت تتحدث في مجالس صـديقاتها في المسـتشـفى عني بكل ثقة، وتفخر بي وبعلاقتها معي وبتعامُلي معها على الرغم من

تفوقها الدراســـي الكبير عليّ ولم تكن تفعل ذلك من قبل لخوفها مما تُخفيه الأيام. أدركت ان السر أن تُعطي الفتاة الحب والأمان، وستعطيك أكثر مما تتوقع من الســـعادة والاهتمام حتى وإن لم تكن تحبها من البداية إذا عطيته لها ولو حتى مزيفً، ستعطيك في المقابل حباً حقيقياً يجعلك تعشـــقها لأنها جعلتك تحب الحياة. أعطِها الحب ولو أن تتكلفه تكلُفاً في البداية وما أصـــعب أن تتكلف الحب لكني جنيت منه ثماراً طيبة وحياة هانئة، لا يعرفها إلا من ذاقها، وما كل ذوق قابل للوصف. تجربة جديدة إما أن تجعل حياتي في السماء أو تسقطني أرضاً إلى الأبد.

***

في يوم كان شـــريف غائباً وكان حســـام يجلس في المقهى، فوجد نهى تمشـــي ببطء وترقب وتنظر في وجوه الزبائن.. فظن أنها تبحث عن شريف فذهب إليها وقال: نهى! شريف ترك المقهى للتو..

- أعلم ذلك.. انا لست هنا من أجل شريف، أنا هنا لأقابلك انت يا حسام.
- رد حسام بدهشة: انا! تفضلي..

- وأعلم ايضاً انك صديق شريف المقرّب.
- أجل، شريف هو أعز اصدقائي، لقد تربينا معاً.
- لذلك لجأت إليك واتمنى أن لا تخذلنى.
- بكل سرور تحت أمرك.
- شـريف يمر بحالة نفسـية متدهورة وتم تشـخيصـة انه مريض بالفصـام وهو لا يصـدق ذلك ويرفض تناول الدواء الخاص بالفصـام لاقتناعه التام بأنه غير مريض.
- قبل ان تكملي، ماذا تحبين أن تشربي؟
- قهوة من فضلك.
- اسـمع يا حسـام أنا أحب شـريف ولن اتخلى عنه بدليل أنني علمت بحقيقة مرضـه ولكني لن ارضـى في البديل لأن حبي لغيره بات أمرا مستحيلا ومن رابع المستحيلات أن أؤذيه.
- يا نهيى لا تزايدي على حبي لشـريف. لقد أخبرني بشـئ من هذا القبيل ولكن بصـراحة أنا ايضـاً لسـت مقتنعا بأن شـريف مريض نفسي بالفصام.
- أنا قابلت الدكتور ممدوح يا حسام وهو تحدث معي بتفاصيل أكثر عن طبيعة مرضـه ومن أهم خصـائص مرضـه أنه لا يدري أنه يحتاج إلى علاج ولن يتابع حالته مع الدكتور ممدوح او غيره بعد لأنه

ببساطة غير مستبصر عن حالته المرضية من الأساس، ولا يعيش في الواقع.. فهو يعاني من إضطرابٍ في تفكيره، وفي سلوكه وتصرفاته.. في كل شئ.

- حسناً، وكيف أساعده؟

- شريف تعرض لانتكاسة كبيرة جعلته يذهب لشيخ من ذوي فك الأعمال وجلب الحبيب وأقنعه انه ملبوس من جنية تدعه "عائنة".

- أعوذ بالله، ما هذا الهراء!

- ولن يتأكد لدى شريف أهمية العلاج إلا بعد حدوث إنتكاسة ثانية ولذلك لابد أن يشعر شريف بأهمية العلاج من الأن دون الإنتظار لحدوث إنتكاسة أخرى قد تقضي على عقله..

- أنا أعرف شريفا جيداً يا نهى، أنه عنيد إلى أقصى درجة يمكن تخيلها.. إذا حاولت إستخدام أي طريق لإقناعه لن يستجيب.

- أعرف ذلك يا حسام وأعرف أن محاولة اقناعه ليست خير وسيلة. وهذا ما أقلقني ودفعني أن أفكر في فكرة أخرى.

- ما هي؟

- ليس أمامنا سوى أن نشتري له ذلك الدواء ونضعه له طبقاً للجرعة الموصوفه في تلك الروشتة في المشروب الذي يشربه عندك في المقهى كل يوم وليكن فنجان قهوة مثل هذا الذي أشربه. كل ذلك طبعاً

يحدث دون أن يشعر باي شئ. مدت نهى يدها حقيبتها وأخرجت ورقة زرقاء مطوية ببطء شديد بدت الورقة قديمة ومجعدة للغاية متهالكة ومتآكلة الأطراف وقالت لحسام هذه هي الروشتة.. شريف كرمشها هكذا ثم ألقى بها وضعتها تحت عينها على الطاولة بشكا أفقي وراحت نهى تقرأ منها الجرعات المطلوبة بصوت هامس.

- فكرة جيدة يا نهى ولكن..

- فكرت كثيراً ليس امامنا سوى ذلك ولا تقلق يا حسام فقط عليك الحذر كل الحذر لان تغير طعم القهوة قد يثير لديه فكرة التآمر ضده وربما لن يخطر بباله أن هذا التغير بسبب الدواء ابداً بل ربما بسبب السم الذى وُضع له من اجل الأنهاء على حياته وهذا سيحيي نظرية التآمر لديه ويؤدي إلى تدهور حالته وسيفقد الثقة فينا إلى الأبد.

- ولكن هناك مشكلة أخرى.. شريف ينزل المقهى كل يوم في الصباح فقط ليشرب قهوته ولكنه لا ينزل ليلاً على أساس منتظم.. فمن المؤكد أنه ينزل يوم الخميس ولكن باقي الأيام تأتي بدون ترتيب.

- إذاً سأكون مضطره إلى زيارته في بيته وتحضير قهوته بنفسي. أعرف انه سيكون صعبا ولكن ليس أمامي غير ذلك.

- حسناً أتفقنا، سأخبر النادل بكل شئ و أن أستطعت، سأشرف أنا على تحضير قهوته كل صباح بنفسي.

- ولكن احترس! فى أول مرة تجرب لابد من التواجد معة ومراقبتة دون أن يشعر فإذا أكمل القهوة دون تعليق وتصرف بشكل طبيعى فهذا رائع. أما إذا لم يكمل المشروب وقام فوراً او صدرت منة تصرفات غير طبيعية بالتالي تتضح لدية نظرية التآمر، أما إذا قلت له ان هذا الطعم طبيعى وأكتشف غير ذلك فبالتالي ستتأكد لديه اكثر نظرية المؤامرة ضده والحل الوحيد فى هذة الحالة هو أن تصارحه على أمل أن يثق بك مرة أخرى.

- أعتقد أنه لن يلاحظ حتى الفرق في الطعم.

- نأمل في ذلك.. شكراً يا حسام.

- لا شكر على واجب يا نهى.. شريف أكثر من أخي.

- أعتقد أنني لست بحاجة لأؤكد عليك أن شريفا لا يجب أن يعرف أي شئ عن تلك المقابلة وكأنها لم تكن.

- تأكدي من ذلك يا نهى.. شرفتي.

- مع السلامة.

***

شبرمنت، الاثنين، ٧ اكتوبر ٢٠١٣

ثلاثون يوماً بالتمام والكمال مروا على زيارتي الأولى للشـــيخ فودة.. حدثت خلالها الكثير من الأحداث وتغير خلالها الكثير من الأشـــياء.. فكرت ألا أذهب له من الأســـاس لأن علاقتي مع نهى كانت مثالية ولكني قررت في النهاية أن أذهب له في ميعادنا الذي اتفق معي عليه لكي اتغلب على أخر نقطة شك مازالت بداخلي. فكنت أفضل أن يكون لديّ عدة محادثات عميقة للغاية معه من أجل أن يتحدد ما إذا كان يتحدث هراء أو المنطق الكامل.

أتيت مبكراً ولم يكن هناك أحد عند الشيخ غيري، فصعدت له مباشراً..

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- أبق مستريحا في مكانك يا شيخ.. لا تنهض. كيف حالك؟
- الحمد لله يا شريف يا بني. أنت طمنني عليك..
- الحمد لله يا شيخ.. كل شئ علي ما يرام.
- حسناً فلنكشف عليك.. ذكرني ما هو أسم والدتك؟
- ملامس يا شـيخ.. ولكن قبل أن تكشـف.. أريد أن اسـأل هل هذا الجلباب فعلاً يطيل ويقصر وحده بدون أي تدخل منك؟

- هذا الجلباب من قماش الجزمير إذا وضعت به ماء لا يتسرب ولا يتمئض وأنا لا أشده يا بني، أنا فقط أضع يدي عليه.
- لا تؤاخذني يا شيخ ولكن كيف يطول دون أن تطيله أنت!

نظر الشيخ نظرة غضب ولكنه لم يكن يتكلم بلهجة حادة بعد إبتسامة ارتسمت على وجهه: "تقصد تقول أنني نصاب ها؟".

- لا لا لا يا شيخ لا سمح الله ولكن أنا سألتك ليطمئن قلبي.
- حسناً، انظر إلى هذا العكاز.. هل يطول او يقصر؟
- لا.. لا يا شيخ.
- إذا شديت الجلباب القماش ستتمئض؟ ولكن إذا شديت العكاز هل سيتمئض مثل الجلباب؟ تعال إقترب مني وأمسك أنت به. سأصل لك للحقيقة وأجعل قلبك يطمئن وتيقن تماماً أنني على حق.

كان عكازا خشبيا اسود اللون ينقسم إلى حلقات ويفصل بين كل حلقة وأخرى خط ذهبي بارز.. إستجبت لطلب الشيخ أمسكت بالعكاز ثم قال الشيخ فودة: "يا مبارك.. ما أخبار شريف إبن ملامس، هل مازالت عائنة معه؟ إذا كانت معه، يطول هذا العكاز..". فإذا به يطول وحلقاته تزداد فشعرت بخوف شديد وتنميل في قدمي فأرجعت له العكاز

بيدي المرتعشة فنظرالشيخ لي في ضيق وقال: " أنظر كم طال! انها مازلت معك وبنفس قوتها يا شريف".

- فإرتعش قلبي من جلالة الموقف: بصراحة يا شيخ، أنا لم أفعل شيئاً من البرنامج كما ينبغي.

- لا يا شريف أنت مهمل في نفسك.. الجامعة والمستشفى يلهونك ووقتك غير متسع وأنت تحتاج أن تبذل مجهودا أكثر من ذلك.

- قمت بزيارة طبيب نفسي وأخبرني بأني مريض بالفصام وفي حاجة لأخذ علاج كميائي يعمل على الجهاز العصبي وقال أن قصة عائنة ما إلا دجل وجهل بالعلم.

- انت لست بمريض نفسي يا شريف.. عائنة لعبت على نقاط ضعفك حتى تتمكن من الوصول إلى عقلك الذي يمثل نقطة قوتك، فتمرضه ويظهر عليك تخبط وهو ما قد يعتبره الأطباء النفسيون نوعاً من الهلوسات أو اضطرابات في الشخصية ويدعون أن الإعتقاد بأن الشيطان هو سبب منظومة الأعراض النفسية والعصبية أو أن تحكمه في جسد الإنسان يسبب هذه الأعراض لا يستند إلى أي دليل علمي ويستشهدون بذلك إلي أن بعض الناس الذين اختلط عليهم الحابل

بالنابل، فصاروا يرجعون كل من أصيب بالمرض النفسي أو العضوي إلى المس من الشيطان.

- أسمع يا شريف.. سأحكي لك حكايتي حتى يأتوا أبنائي. أنا نشأت يتيم الأبوين توفت امي عام ٥٢ وأبي عام ٨٥ كان لي اخ واحد الله يرحمه كان راجل فلاح يعمل طول النهار في الأرض ويعود في الليل يأكل وينام حتى أنه لم يكن يجد متسعا من الوقت لكي يسأل عنى إن أكلت وشربت. تركت المدرسة بسبب ظروف مادية قاسية كان في ذاك الوقت من ينتقل من فصل إلى فصل مثلاً من الفصل الثالث إلى الفصل الرابع الإبتدائي كان عليه دفع ٢٠ قرش رسوم ملف. الـــ ٢٠ قرش كانوا أجرته ٤ أيام. في عهد عبد الناصر كان الأتحاد الإشتراكى قد انشأ لجنة مصالحات فى البلد وأنا صغير تقدمت بشكوى ضد أخي لأني كنت أهوى العلم. لما استدعوه قال لهم يا مجلس الخير أخي فودة الصـــغير عنده حق ولكني فقيرفقلت له خذ ميراثى الذي تركه لي أبي كله في مقابل أن أتعلم رد بأنه وصـي عليّ ولن يرضـي بذلك. بالفعل تركت المدرســة وانا طفل الفصــل الرابع الإبتدائي عندى ١٠ ســنوات ولكني كنت أملك حب إســتطلاع و حبا للقراءه واقرأ كتبا كثيرة.. حتى إذا كلفني مبلغا كبيرا.. وأنا قلبي جامد لا يخاف وهذا الشـئ الذي يدعي

«عفريت» لا يخيفني على الإطلاق. انا كنت جاهلا الأمر لكنت تسببت لك بأذى في المرة السابقة إذا كنت حاولت أن أن أسحب عائنة منك.. قرأت جميع كتب السحر الأسماء اللهوتية والجبروتية والجلجلوتية والطهاطيل والبراهطية الصغرى والكبرى ومنبع أصول الحكمة والميزان فى أحوال الجان وشمس المعارف الكبرى والصغرى وتسخير ملوك الجان والسحر الأسود والهندى واليونانى .. ثمن الكتاب سنة ٨٥ كان بـ ١٢٠ جنية قرأتهم و حرقتهم حتى لا يقرأهم أحد بعدي ويفعل ويسوى بهم المصائب. أنا أقدر على نفسى أتحكم فيها ولكن لا أستطيع التحكم في شخص أخر يقرأهم. الآن الكتاب الواحد ثمنه أكثر من ٤٠ الف جنية. أنا تعلمت علما هذا الطبيب لم يتعلمه ولا يستطيع أن يتعلمه، كما أني لا استطيع أن اتعلم علم الطب. فلا يهم ما حدث أنك أهملت وأخرت العلاج لبضعة أيام ولكن أهم شئ أنك عرفت علاجك.. علاجك ليس عند الأطباء. علاجك عندى وعند من مثلى من أهل الصدق ونرجو من الله أن نكون ذلك. وأفضل برنامج علاجي لك هو ما قلته لك في المرة السابقة. صدقني يا شريف انا لا أتعارض مع الطب النفسى ولا الطب بشكلٍ عام.. نهائى لا. الطب علم ومن يسلك طريقه بصدق و يراقب الله في عمله، يكرمه الله.. أنا عندى ڤيروس سى خامل غير نشط معي منذ خمسة عشر عام بأخذ له سيليمارين وعندى السكر

وبأخذ له أنسولين ٧٠ على ٨٠. السكر كان غير منتظم وأحياناً كنت أذهب في غيبوبة وأحياناً كان يهبط مستوى السكر منى من شدة حفاظي عليه، فأهبط ولا أدري بنفسي وعندما أفوق من غيبوبتي أجد محلول جلوكوز معلق في زراعى. فما كان عليّ إلا ان لجأت لأهل الطب وذهبت منذ بضعة ايام إلى طبيب باطنة. طلب مني ١٢ تحليل وهناك تحاليل ظللت صائما لها ١٧ ساعة وأنا عندى السكر! وطلب مني رسم قلب عادى وبالمجهود و في النهاية شخصني أني مريض بالقلب علي الرغم من أن طوال عمري لم اشكو من قلبي نهائي. كتب لي علبة برشام اسمها "ترنتال" العلبة بها ٢٠ برشامة وقال لي تأخذ واحدة ٦ صباحاً وأخري ٦ المغرب وأخذت ٢٩ برشامة حتى الآن. فأنا اؤمن بالطب وعند مرضي أذهب لطبيب ولكن الطب هو ما لا يؤمن بي.. أعرف أن هناك بعض المرضى النفسيين بمرض الوسواس القهري على ما أعتقد أم في الأفعال أو في الأقول ومنهم من يأتي لي فأكشف عليه ولا أجد عنده شيئا. فأقول له علاجك عند الأطباء. هم يظنون أنهم ملبوسون بالجن وتكون هذه ليست حقيقة ولكن الأطباء النفسيين يأخذون العاطل بالباطل.

- كانت شفتاي ترتعشان ولم أستطع أن أنبس بالكلام إلا بأن اقول: ربنا يشفيك يا شيخ فودة.

- أنت مثل أولادى يا شريف وأتمني أن تكون طبيب نساء كبير من الذين لهم قيمة كبيره في المجتمع. العلم نور والجهل ظلام يا بني. وتذكر دائماً أن بعدك عن الله بمثابة دعوة منك و ترحيب لأستمرار وجود الشياطين و تلبس عائنة بجسدك.

- سؤال أخير يا شيخ.. في الفترة الماضية أثناء تنفيذي للبرنامج، أحبتني فتاة بجنون..

- هل وجدت فيها شئً ربطك بالحياة؟

- أجل يا شيخ إنها سببت لي دفئاً ونثرت في روحاً وعطرت كل أجوائي فأحببتها ولا أفكر في وداعها.

- لا تعلق قلب فتاة بكَ يا شريف.. فطالما عائنة معك، فأن هذه الفتاة زائلة زائلة لا محالة.

- ولكن ليس من الرحمة أن اتركها هائمة في بحر الحب بمفردها ولا أشاركها الحب حتى.

- أن تتركها الآن افضـــل من أن تتركها بعد ان أحبتك وتعلقت بك فتتزوج من رجل آخر ويظل قلبها وعقلها مشـــغولين بك أو تجعلها تقارن بين الرجل الذي تزوجته ومن ظنت نفســـها أنها أحبته قبل الزواج وهو أنت. ليس من الرحمة أن تعرف فتاة أنت تدرك أنها لن تكون لك وأنكم فقط ستسيران معاً في طريق مسدود حتي تصلا إلى نهايته.

- هل هذا يعني ان أتركها يا شيخ؟

- نعم، هذا افضـل من أن تعلقها بك ثم تتخلى عنها ولا تتزوجها لأن عائنة لن تسمح بذلك. هي أقوى منك الآن عشرات المرات.. استعن بالله لتكون انت اقوى منها وحينها ستقابل من يقسمها لك ربنا وتتزوجها وتعيشان معاً في حب وهدوء بعيداً عن عبث عائنة. لا تبن لها قصورا من الرمـال بعواميـد من الملح قـد يـأتي الموج في أي وقـت وتجـد أن القصور قد هُدمت في لمح البصر وتكسر قلبها وتخسرها للأبد.

- شكراً يا شيخ.. سلام عليكم.

- وعليكم الســـلام ورحمـة الله وبركـاتـه في رعـايـة الله يـا بني.. وموعدنا بعد شـهر لكن من الأفضـل أن تتصـل قبل ان تأتي حتى تتأكد أنى موجود.

برغم المآســـي التي حكاها ليّ الشـــيخ فودة هذه المرة إلا أني لاحظت ضـــحكه الكثير وكأنه لا معنى للحياة عنده، ألا يدل ذلك على أن هناك

شيئا ما يدعمه ويسند ظهره حتى يصل به الحال أن يكون مستهتراً لهذه الدرجة؟ لم يطلب مني الرجل تقديم أي طلبات غريبة او ممارسة أي طقوس خزعبلية؛ فقط الصلاة والذكر والمسك. فحتى وإن لم يكن صادقًا ويخبيء خلف لحيته اسراراً كما يتوقع الجميع، فأنا لن أخسر شيئا بفعلهم. وبالفعل إنتظمت في الصلاة وكنت أذكر الله في كل وقت وأدهن جسدي بالمسك. ولكن في نفس الوقت عزمت أن يكون هذا المشوار هو الأخير لشبرمنت فكيف لهذا العجوز أن يطلب مني أن أترك نهى؟ وبعدما فعلت الكثير من أجلي..

الخميس، ١٠ اكتوبر ٢٠١٣

برغم إعتيادنا على المقابلة والمذاكرة في المقهى او أي مكان عام آخر حتى تكون الســـاعة متأخرة من الليل.. إلى أن جائت مرة طلبت نهى مني طلبا غريبا:

- لماذا لا تدعوني أن أصعد إلى شقتك مثلما كنت تفعل..
- من فضـــلك لا تتكملي يا نهى.. انت غيرهم، ســـندخل بيتنا عندما نكون متزوجين إن شاء الله.
- ولماذا ترفض؟ هل تقلق من أن يحدث بيننا شئ؟
- الشيطان شاطر يا نهي.
- لاا لا تقلق من ذلك.. لا سبيل للشيطان علي.
- عندي فضول انا أرى شقتك.. أريد ان ارى المكان الذي تعيش فيه وتحدثني كل يوم منه.. ثم إني مللت من المقهى. إلم تمل؟
- كان من الصعب أن أرفض هذا الطلب خاصةً بعد إلحاح نهى الشديد. فما كان إلا أن صعدت إلى شقتي لأول مرة:
- أسف، البيت فوضى.. لم أكن أتوقع طلبك هذا..
- إلن تشربني شيئا في بيتك أم أنك بخيل ولا تملك بن؟
- حالاً ستشربي أحلى فنجان قهوة.

- لا دعه ليّ.. ستشربه من يدي أنا.

- لا هذا واجب عليّ.. انت ضيفتي اليوم..

- لكن المطبخ من إختصـــاص المرأة فقط.. إذهب ولا تتدخل في ما لا يعنيك يا رجل.

بالفعل توغلت نهى إلى المطبخ ونادتني: شريـــــــف.. أين كنكة البن؟ تعال ناولنى إياها.

- أبتعدت ووقفت تحت خزانة المطبخ وأشارت "ها هي".. أقتربت منها بخبث ورفعت يدى أجذب الكنكة ويدى الأخرى جذبت بها حجابها فرفعت رأسها فأحمر وجهها وهى تبتعد وتعيد رفع الحجاب على شعرها وقالت لم أكن أعلم أنك مشاغب لهذه الدرجة.

- وانا لم اكن أعلم أنكِ في غاية الأنوثة لهذه الدرجة.

- هل هذه معاملة تليق بضـــيف؟ إذهب بعيداً وإنتظرني في الصالة..

في البداية لم نكن نفعل اي شئ، ولكن الشيطان كان حاضراً في المرات الأخرى حين كنت أرى التمايل والدلع في مشـــيتها التي كانت كخيوط الدخان لما تتمايل حينما تتصـــاعد من اللهب المشـــتعل وتقابل الهواء، وكانت للفتاة «المســـترجلة» أســـلوبها وطريقتها في إظهار انوثتها، فما

كان بي إلا ان إبتعدت عن الله وقطعت الصـــلاة، فكنت أخجل من أن اقف أمام من يقف أمامه كل الأجناد السمائية، وأنا أزني.

في اليوم التالي.. جلس شـريف في المقهى وكالعادة كان يشـرب قهوته في الصـــباح وكان حســـام جالسً معه ليراقب الموقف عن قرب وكان القلق يكاد يقتله عندما سمع شريف يقول:

- طعم القهوة غريب.. به مرارة غريبة!
- رد حسام بكلام غير مفهوم أتبعه بضحكة «تسليكية»..
- وتـابع شـــريف: أنـها نفس المرارة التي أذوقـها في القهوة التي تحضـــرها ليّ نهى في البيت وأنواع البن مختلفة! أتدري ماذا يعني ذلك يا حسام؟

كان حسـام يتصـبب عرقاً، وجهه أصـفر اللون، ونظراته زائغة تماماً في إنتظار ما سيقوله شريف

- هذا يعني أن المرارة في فمي وليست في القهوة.

ذهب ليأخذ أنفاسه بعيداً ثم جاء ليجد شريف قد بَدْأ في شرب رشفة تلو الأخرى فتصدر منه تنهيدة إطمئنان والإبتسامة تلوح على شفتيه فبمجرد

أن رآى شريف قد شرب ما يقرب من نصف فنجان القهوة، لم يعد للقلق ذرة بداخله.

إستمر الحال هكذا حتى أصبح شريف يبقى في الليل ويسهر بلا نوم وينام لساعات طويلة في النهار فلا يخرج من شقته كثيراً لمعاناته من مشاكل في الثبات والإتزان اثناء المشي. وهو ما يسبب له التوتر والعصبية والإنفعال وهذا ما أشعل الأجواء بين الطرفين بشكل كان من الصعب حسمه بعيداً عن الصراخ الذي ساد طيلة هذه الفترة. وكانت نهى تخدمه بكل إخلاص ومحبة وتفانت في خدمتها له فكانت لا تغيب عن زيارته في شقته يوماً لكي تؤفر له ما يحتاجه وللبيت ومايحتاج أيضاً من طعام وشراب وبدون كلل أو ملل.

- لأ اريد النوم حتى لا أراها.. فمازلت أحلم بها يا نهى.
- من هى يا شريف؟
- عائنة أم البشرة الداكنة.
- شريف!! انت تنسى الدنيا طالما أن الأمور تسير في صالحك. وتلوم الشيطان عندما يكون كل شيء ضدك، انه بالتأكيد ذنبك أنت.

- قام شـــريف بأخذ نفس أكثر من مرة وراء بعض، وقام بتحريك فمه كأنه يأكل شيئا أو يمضغ شيئا، ثم قال بتأتأة في الكلام: أنا أعرف هذه النغمة جيداً واعرف ما سيأتي وراءها.

- وما سيأتي وراءها يا شريف؟

- قال شـــريف بصـــوت هادئ مع إطالة للأحرف ومقاطعه الصوتية: ستختفين من حياتي فجأة ثم تتركيني لنفسي اسألها ما الذي فعلته كي أستحق هذا الفراق؟ فلا أجد إجابة.. وتكونين في الوقت نفسه تبحثين عن بديل ليّ وتنسين انك قابلت شخصا يدعي شريف يوماً.

- لا يا شريف، صحيح أن علاقتنا توترت كثيراً ولكن هذا يرجع لقلقك المستمر.. أنظر إلي يدك المرتجفة ومن كلامك المتذبذب وكأنك راديو إشارته ضعيفة. لن أفعل كما فعل من سبقوني.. صدقني وثق بي، هذا لن يحدث ابداً.

- رد شريف بتأتأة ورفرفة لعينيه بسرعة وارتعاش لشفتينه: هم ايضاً وعدوا بذلك..

- إذا أرادوا البقاء في حياتك، كان ينبغي أن يبذلوا جهوداً اكثر من ذلك. ولكن هذا لا يهم الآن.. فماذا تنتظر من إعادة فتح الجروح؟

وأردفت: توقف عن الخوف.. أنت تخاف أن اتركك كخوف الموت.

- أنا لم أعد أخشي الموت. قيل لي قبل ذلك الكثير من الأشياء ومن سذاجتي صدقتها حتى عشتها بنفسي.. لدرجة أن قيل لي مرة أن الحب هو الشئ الذي يبقي الإنسان على قيد الحياة وليس الصحة!

- صدقني يا شريف أنا لن اتركك.. لن أخفي عليك أني لدي شعور مستمر ورغبة داخلية ودوافع وأسباب كثيرة للرحيل ولكن على الأقل لن أتركك الآن لأننا نمر بفترة حرجة وتحتم عليّ إختيار الوقت المناسب للرحيل.

- أنا أعلم أنه من الصعب ترك من تحبين، لكن عندما تتأكدي أننا نسير في طريق مسدود، من الأفضل أن لا تبقي معي ليوم واحد.

- انا لست بحقيرة او منحطة حتى أتركك وأنت متعب بهذا الشكل يا شريف.

- إذاً فلماذا تضحكين على أتفه الأسباب مع الجميع ولكن أمامى أنا تظهرين هذا الكم الكبير من الحزن والغضب؟

- لأني أتعامل معك على طبيعتي ولا أجمل من علاقتي بكَ ولا أخفي عليك ما بداخلي.

الخميس ٢٩ مايو ٢٠١٤.

تقابل حســـام مع نهى في مكان بعيد عن المقهى حتى يبعدوا عن نظر شريف وكانوا يناقشون أمراً هامًا:

- هـل لاحظـت بعض التغيرات على شـــريف يـا نهى مثلمـا لاحظت؟

- نعم لاحظت ولكن لا أدري يا حســـام، قد تكون مجرد آثار جانبية للدواء.. لا تنس أنه يعمل مباشراً على المخ.

- ولكن شـريف أًصـبح لديه رعشـة مسـتمرة في يده وصـعوبة في الكلام يا نهى. أهذا طبيعي؟

- أجل، لأحظت ايضاً انه بات يتحرك ببطء بعض الشئ.

- أعتقد اننا علينا ان نقطع الدواء او ربما نغيره بدواء آخر..

- لا لا لا تقطع الدواء يا حســـام، ســـأراجع الدكتور ممدوح اولاً ولكن حتى يحدث ذلك وأحجز معه موعد، لا توقف العلاج فقد تكون النتائج وخيمة إذ لم يُكمل شـريف الدورة العلاجية كاملة، ولابد يا حسـام أن ألفت نظرك إلى أن هذا الدواء يعمل من خلال منظومـة كيميائيـة معقدة جداً في الدماغ، وفعالية الدواء تُبنى بالتدريج، والإنسـان إذا توقف عن الدواء دون أن يُكمل مدة العلاج –حين ترجع لـه أعراض المرض

مرة أخرى– قد لا تكون إستجابته إستجابة جيدة حين يُوصف له الدواء في المرة الثانية.

– حسناً يا نهى، اتفقنا.

***

الأحد ١ يونيو ٢٠١٤

سجلت الرقم القياسي في عدد مرات الأتصال بأحد. ربما حاولت الاتصال بها اكثر من ١٠٠ مرة؛ لكنى لم أُمل فربما فى المحاولة رقم ١٠١ نهى سترد على هاتفها. لا ينبغي أن أبقى على الإنتظار لشخص طالما أني لست متأكدا أنه سيعود.

فكل مره كان ينتهى الجرس كنت افقد فيها الأمل اكثر من المرة التى سبقتها حتى سمعت صوت سيدة مزعجه تتحدث بلهفه وقوة مجنحة بالوقار والكبرياء لمست سعاده فى كل نبرة من نبرات صوتها الرخيم وهى تقول" الهاتف المطلوب مغلق او غير متاح حالياً يمكنك الأتصال في وقت لاحق." لم أستطع إستكمال سماع تلك الرسالة المسجلة المملة؛ وصلت رسالتك يا نهى ولم يكن من الممكن أن توصلى رسالتك بطريقه أكثر وضوحاً من ذَلك أرادت الرحيل ولم تسطتع مواجهتي فهربت وأُغلقت هاتفها كلاكيت خامس مرة؛ أنه ذلك السيناريو المتكرر يحدث مجدداً .. تختلف التواريخ والمُسميات والأحداث متماثلة . آمنت الآن أن الجنية هي حقيقة انكارها جنون فالتاريخ يُعيد نفسه بكل تفاصيله وأحداثه وبوقائع لا بوجوه وأسماء.

رن هاتفي برسالة فتحتها فإذا هي من رقم غريب مكتوب فيها: "أنا ريم صديقة نهى.. هناك شئ ينبغي أن تعرفه؛ نهى تعبت وأمها ذهبت بها إلى المستشفى".

لا أصدق ما قرأت امسكت رأسي في حالة ذهول وإرهاق شديدين وأخذت أعيد قرأءة الرسالة وانتابتني حالة من عدم تصديق لما حدث فكنت أظن أنها مجرد «ملاعيب» تلعبها نهى معي والسبب واضح؛ شعورها بالندم والخجل من نفسها ولم تجد مبررا واحدا للغياب عني تلك الفترة. وتأكد لدي شعور أنها تمثلية بعدما إتصلت برقم صديقتها فور قراءتي للرسالة مباشرة فوجدت هاتفها هو الآخر مغلق.. أرسلت لها رسالة "كلمنى" على الهاتف ولم تتصل بي إلا بعد ساعة تقريباً ودارت بيننا مكالمة لم تتسم بأي نوع من الهدوء:

- الووو.. الووووو..
- الو.. نعم؟
- أنت تمزحين معي مزاح العاهرات.. أليس كذلك؟
- ممكن تهدأ لو سمحت.. أنا لا أفهم كلامك.. أقدر عصبيتك ولكن إعطني فرصة للكلام.

تراجعت عن إنفعالي واعتذرت لها.. ما حدث جعلنى أفور غَضـــبا ولكن قلتُ في نفسـي قبل ان أقومَ بسـبها بألفاظٍ قبيحة بعد، فانها الآن تعد مصــدر الأخبار الوحيد للاطمئنان على نهى فقمت بكَظْم غَيْظى ردّيت بصوب هادئ:

- أنـا هادئ.. ممكن تنطقي لو ســـمحت قبل أن يجن جنـاني عليكِ؟

- ذهبت لأتفقدها في المستشفي التشخيصي المبدئي أن شريان فى المخ قد إنفجر وشـــلل بالأطراف والأجناب اليســـري وهي الآن في غيبوبة لم تفق منها حتى الآن ولم يعرف أحدٌ من الأطباء الســـبب وراء كل ذلك.

- تودي أن تقنعيني بأنها تعرضـــــت لكل ذلك فجأة وبدون أي مقدمات؟

- لا أعرف هذا ما حدث.. كانت بصحة جيدة في البارحة.

- وما أسم المستشفى؟

- المستشفي الجوي.

- سأكون هناك حالاً.

- وعلى التو ذهبت إلى المستشفى وهناك قابلت الطبيب المعالج لها:

- طمني عن حالة نهي يا دكتور.. انا الدكتور شـــريف خطيبها. لماذا حدث لها ذلك؟

- أخبرني أنت اولاً.. هل تعرضت للإنفعال؟

- لا، لا اعرف لم أكن معها في ذاك الوقت.

- في الحقيقة، أمها جائت بالمريضــة وكانت تصـرخ تشـكو أنها تعرضـت لصـداع شـديد الحدة ومفاجئ وغير قادرة على تحريك نصـف جسـدها الأيسـر.. قمنا بإجراء أشـعة مقطعية على المخ وضـحت وجود إنفجار بشـريان في المخ، وسيتم عمل أشـعة مقطعية على شـرايين المخ بالصـبغة من خلال قسـطرة شـريانية تشـخيصـية. حالة نهي من – نوع الحالات النادرة – ويحدث ذلك غالباً بســـبب ارتفاع كبير في ضـــغط الدم، أو تشـوه شـريانى او بسـبب عيب خلقي في الأوعية الدموية بالمخ وغالباً يؤدى إلى حدوث إختلال فى الوعى العام قد يصـــل إلى الغيبوبة وهذا ما أصـــاب خطيبتك. ســنعرف كل شـــئ بعد القســطرة. إدعي لها فنسبة الوفاة في هذه الحالات قد تتجاوز الـــ ٢٥%.. بعد إذنك سأذهب لمتابعة الحالة.

قدماي لم تحملاني اســندت ظهري على الحائط بجانب غرفة نهى في العناية المركزة وأشــعر بخوفٍ شــديد على صــغيرتي، لاحظت فتاة في عمر نهي وتشــببها كثيراً في طريقة لبســها كانت تمر في الطرقة ويبدو عليها التوتر وتنظر لي بتســاؤل، نظرت لها فجائتني عالفور وســألتني: هل أنت شريف؟

- أنت من ارسلت لي الرسالة علي هاتفي ها؟

- أجل أنا ريم، لماذا تتحدث هكذا هل انت متعب؟ هل تريد النوم واقفاً؟

- لا، انا بخير.

- إذاً فلماذا تتحدث وكأنك نائم او «شارب حاجة»؟

- نظر لها شريف بغضب شديد ثم قال لها من بين اسنانه: أنا فايق جداً.

- اهدأ.. اهدأ.. انا اسفة. أنا فقط أود ان أوصل لك رسالة أخرى كانت نهى قبل أن تفقد الوعي اوصتني أن أوصلها لك..

- ما الرسالة؟

- لم افهم شــئياً منها لكنها قالت لي ابلغك أن: "لعنة عائنة ستقتلها".

خرجت مني فجأة صيحة عالية جداً بعفوية شديدة من شدة الدهشة وهو ما فزع ريم: ماذا يعني ذلك يا شـــريف؟ لماذا تحول وجهك للطماطم؟ شريف؟ ألن تقل لي؟ شـريف..؟.

ظلت تناديني في طرقة المسـتشـفى إلا أني كنت أسـير متسـنداً على الجدار إلى أن وصـلت للحوش واسـتمريت في السـير ولم أرد عليها او انظر حتى خلفي حتى خرجت من باب المســتشـــفى وتوقفت هناك وأخرجت هاتفي وأتصلت بالشيخ فودة فردت عليه زوجته كالعادة مازلت أذكر صوتها الغليظ جيداً.

- سلام عليكم يا حاجّة.. انا الدكتور شريف.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- ممكن اقابل الشيخ غداً بخصوص أمر مهم؟
- لا.. لا يمكن، الشيخ فودة تعيش أنت.
- لا حول ولا قوة إلا بالله.. متي؟ وكيف؟
- توفى منذ أشـــهر، أخذ الدواء الذي وصـــفه له أخر طبيب زاره «منه لله».. أسمه ترنتال
- هذا دواء يعالج قصور الدورة الدموية يا حاجّة.

- أجل يا دكتور قال لنا دكتور قلب وأوعية دموية أنه يعمل على فتح الشرايين وشرايين الشيخ لم تكن في حاجة ان تُفتح.
- وماذا حدث؟
- كان يا دكتور يأخذه من هنا ويتعب أكثر من هنا. كان يمشي في الشارع فيقع. وكان يشكو من عدم إتزان ودوخة مستمرة وأن ضربات قلبة سريعة وأصبح يشعر بقلبة فجسمه كله حتى تَوَفَّاهُ الله.
- البقاء لله يا حاجّة إذا تريدين أي شيء إتصلي بي.
- ونعم بالله شكرا يا دكتور.

دخلت المقهي وجلست بمفردي في الركن البعيد الهادئ فجاء لي حسام:

- ماذا بك يا صديقي؟ أمازلت حزيناً علي نهي؟
- نهي لم تتركني يا حسام.. إنها في غيبوبة في المستشفي.
- يا ساتر! ربنا يشفيها إن شاء الله ويطمنك عليها.
- حسام، سأبيت عندك اليوم.. هل عندك مشكلة في ذلك؟
- بالطبع لا، بيتك ومكانك يا شريف.

إستغرقت في النوم عند حسام في غرفته حتى أيقظني في نصف الليل مفزوعاً فصرخت فيه:

- «يخربيتك فزعتني».. ماذا حدث؟

- شـريف إسـمعني جيداً.. كنت أظن انك مريض نفسـيا ولكني الآن تأكدت عن يقين تام أنك لسـت مريضـا ولا أن بيتك ملبوس ولهذا السـبب جئت لتنام عندي اليوم. أن الجنية التي أخبرتني نهى بها تعيش بداخلك أنت وتلبسك أنت، ليس في بيتك فحسب ولذلك لأنها لم تفارقك حتى هنا في بيتي. إني رأيت الملاءة تلتف حولك دون أن يحركها أحد ورأيتك كأنك تضـاجعها ودعني أفصـح لك بشـئ.. كانت نهى تقابلني سراً وتعطيني دواء لكي اضعه لك في القهوة التي تشربها عندي كل يوم دون أن تشـعر وكانت تدخل بيتك لنفس السبب لتكمل الجرعة المطلوبة من هذا الدواء ليلاً وتضعه في القهوة التي كانت تحضرها لك.

- ماذا تقول!! ما هذا الدواء؟ انطق..

- انه الدواء الذي وصـفه لك الدكتور ممدوح ليعالج الفصـام.. إسمه "ريسبردال".

بعد أن تلقى لكمة قوية في وجهة من شـريف بما تبقي فيه من قوة قال حسام:

- أردنا أن نسـاعدك يا شـريف. سـامحني يا صـديقي اعلم أنى اذيتك ولكن اقسم لك كان ذلك بدون قصد.

- سواء بقصد او بغير قصد.. انت خدعتني يا خاين العشرة يا ابن "...". أنتم تسببتوا في مرضي بشلل الرعاش.

- أنا حقاً أسف يا شريف.. سامحني يا صديقي واستهدى بالله ودعنا نبجث عن حل الآن.

- ليس هناك حل.. الموت قادم لا محالة.

- سأقف بجانبك لتلقي العلاج حتى تشفي..

- سيكون علاجاً للتأجيل فقط لا للشفاء. لقد فاتتي الآوان..

تحرك شريف بإتجاه باب الشقة فاعترض حسام طريقه وسأله؛ إلى أين أنت ذاهب؟ فدفعه شريف بيديه المرتجفتين بعزم فارتطم بالحائط وفقد توازنه ليسقط على الأرض وصعد شريف إلى شقته.

استيقظت من نومى بعد سبعة عشر ونصف ساعة من النوم المتواصل ولكنى ما زلت لا أشعر بالراحة؛ أشعر أننى كنت في ساحة حرب. شعرت بها تلتف بيديها حول رقبتى مما يجعلنى أعاني من ضيق تنفس وإختناق وعدم القدرة على أخذ نفس عميق حتى تهدأ سرعة ضربات قلبى. حالي كحال طفل فقد أمه يصيح من بُعدها وينام هارباً يستقيظ كل يوم ليسأل نفسه نفس السؤال: هل أنا حي؟ ام إنى اصبحت مجرد جسد بل روح؟ وإنِ كان مظهرى العام لم يتغير كثيراً حتى بعد إصابتي

بشلل الرعاش، ولكن هذا لا يعنى أى شئ. فإذا كان مظهرى العام يوماً يعكس عالم فكرى الداخلى، فلن أكون مفهوماً بالمرة، لأن كل ما أريده الآن هو أن اموت؛ ولكنى يظهر إنى مازلت على قيد الحياة ومحب للدنيا. وإنِ كنت بالفعل قد مت بداخلى خمس مرات من قبل؛ على أى حال هذا لا يهم، كل ما يهم أهلي أنى مازلت أتنفس ولكن حتماً التنفس وحده لا يكفى للحياة وأيامي الفعلية على قيد الحياة أصـــبحت معدودة. ضـــاقت بى الدنيا، الناس من حولى قد إختفوا فجأة، تماماً مثلما ظهروا جميعهم فجأة، ولم أعد اشعر بأى سعادة او متعة. الحزن أصبح ضيفا دائما يسكن قلبى وعقلى ووجداني او ربما أنا الضيف الثقيل الذى يسكن هذه الحياة التعيسـة. لا شـئ يمكن أن يعيد إلى قلبي السـعادة والتفاؤل من جديد، لأ شـئ سـوى أن أُفقد الذاكرة ولا اجد من يذكرنى بالماضـى الكئيب ويخبرنى بحقيقية ما وصـلت إليه نفسـى او أكون بعيداً عن كل الناس وراضى بحياتي ومرضي الذي اعيشه فيه.

صرخت بصوت عال مردداً: أنا اعلم إنكِ تسمعيننى وطبعاً سعيدة.. أنا أكرهك.. لماذا لا تتركيني وتلبسي جسد شخص آخر؟!. إظهري ليّ وانا اقطع زُمارة رقبتك. لماذا لا تظهري ليّ؟ أريني نفسك.. اكثر شـئ يمكن أن يؤلمك هو أن شـخص بعدما أحببتيه يتركك وخاصـةً لو كنت فعلت

من أجله الكثير، وانت بالحق اتعبت نفسك كثيراً من أجلي."

كل ما كان يفكر فيه شريف بجدية فى تلك اللحظة هو ضرورة الإنتقام من عائنه ولا أي شئ آخر وأن يجعلها تذوق من نفس كأس التعاسة التى اشربته منه خمس مرات. أصراره فقط على الأنتقام منها جعله مسلوب الإرادة لا يستطيع على الحركة أو حتى الصراخ ولا يهتم او حتى ينظر لعدد قطرات الدموع الممزوجه مع قطرات العرق التى أغرقت وسادته.

تلقى اللواء مأمور قسم شرطة النزهة بلاغا يفيد بمقتل شاب يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاما فى منزله، وعلى الفور انتقلت الأجهزة الأمنية بقيادة العقيد علاء شكري مفتش المباحث لفحص البلاغ المقدم إلى موقع الحادث. بعد إستخراج إذن من النيابة العامة بفتح الشقه التى كان يقيم بها المجنى عليه. فظلت جثته لمدة اربعة ايام كامله لم يدر بها أحد حتى تعفنت. ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى تشاهد الشرطة فيها موقفا مشابها حيث يموت شخص وحيدا داخل شقته ويظل وحيداً إلى أن يكتشف الجيران وفاته بعد انبعاث روائح كريهة من شقته وقام بدوه بإستعجال نتيجة فحص وتشريح الجثة من المعمل الجنائي وبيان سبب الوفاة من قبل الطبيب الشرعي إن كانت وفاة طبيعية ام إنه

إنتحار وهذا ما رجحه محضر الشرطة خاصةً بعد إستبعاد وجود شبهة جنائية. وبالفحص المبدئي تبين وجود أشـــرطة حبوب دواء فارغة بكميات كبيرة بجانب جثته. وبســـؤال جيرانه وبالتحريات تبين انه كان يتردد على طبيب نفسى بمنطقة مصر الجديدة للعلاج عنده منذ سنوات وتحررعن الواقعة المحضـــر اللازم، وتم عرضـــه على النيابة. وصـــل الدكتور شـهاب ومدام ملامس وكان صـراخهم يهتك الصـمت الذى خيم على هدوء منطقة ألماظة.

***

شـريف لم يكن يعاني من أي امراض نفسـية او عصـبية ولكن ظروف وحدته جعلته يلجأ إلى الطب النفســـي وهناك قابل الدكتور ممدوح الذي لا يختلف الكثير عن غيره من الأطبـاء والعلمـاء النفســـيين الـذين هم مخالفون للعقيدة في إنكار تأثير الشـــيطان على الإنس وإنكار حقيقة دخول الجن في الأنس من الأســـاس. الدكتور ممدوح لم يبخل عليه او يضـره وإنما سـاهم كثيراً في تطوير ذاته وبناء شـخصـية قوية ذات ثقة كبيرة في نفسـها. ويرجع سـبب مرضـه بشـلل الرعاش إلى تلف منظومة إنتاج الدوبامين وفقدان مستويات خلايا الدوبامين في مخه بدرجة حادة، والتي كانت في مسـتوها ومعدلها الطبيعي ونقصـت بسـبب تاثير الدواء

المضـاد للدوبامين الذي كان يشـربه في قهوته دون أن يشـعر وكان من المفترض أن يعمل على إنقاص مستوى تلك الخلايا التي تسبب مرض الفصـــام في حالة زيادتها، حيث أنه لم يكن يعاني من مرض الفصـــام. وتلك المادة الكيميائية في الدماغ التي تعتبر موصـــل كيميائي – أو عصبي – تساهم في جعل الأجزاء الأخرى من المخ تُنسِّق حركة الجسم بشـكل ملائم. وكان هدف إبنة إبليس الأحمر ان تفرق بينه وبين عالمه ليكون وحيداً معها وتبعد عنه بنات حواء فكانت تملك القدرة والقوة الخارقة على فعل ذلك وكانت مهمتها ســهلة للغاية بأن تظهر شــريف بصورة سيئة أمام سيادة وما سهل عليها المهمة كانت شخصية شريف غير المبهرة التي جعلت سيادة لا تتمسك به بالقدر الكافي على عكس هايدي وميار ومودة، الذين يعرفون أنهم ســـيئون ولا يزالون يتجولون ويمرحون بحرية الشعور أن العالم كله لا يرى حقيقتهم. وقفت قوة عائنة الخارقة عاجزة أمام مكرهن. ففشلت كل محاولتها في تتطفيشهم بالطريقة الأفتراضـــية فلم تســطتيع من إظهاره بمظهر ســيئ وجعله دائماً يحب الوحدة والإنطواء ويميل إلي العزلة عن عالمه الخارجي ليكون وحيدا معها، وجعله شارد الذهن إلا انه لم يستسلم لها بسهولة هذه المرة بعد الحزن الذي خيم عليه اثر إنفصاله عن سيادة. ولكنه أخذ يعافر ويطور من نفســه كل يوم بمســاعدة الدكتور ممدوح حتى أصـبح الشـاب الذي

تحلم به كل فتاة.. وكان حب هذا الثلاثي لشـــريف وهماً كبيراً او مجرد إعجاب وإنبهارا بشخصيته وكان التمسك الشديد به رغم محاولات عائنة المســـتمرة لِما وجددوا من مكاســـب مادية ومعنوية كثيرة دفعتهم للبقاء معه وتاثر بذلك أيضـــاً بالحالة المزاجية التى كانوا يمروا بها والفراغ العاطفى الذى كانوا جميعهم يعانون منه. هايدي أحبته في ظروف كانت فيها ضعيفة ومكسورة من أعماقها وعندما تحسن حالها وأصبحت فتاة أخرى، كان لها طموح آخر آلي انها أبت أن تتركه لإســـفادتها النفســـية والمعنوية منه. أما ميار فهي الأخرى لم تكن تحبه وإنما مثلت عليه الحب وأعطته جسدها مقابل الإستفادة المادية منه وكانت تخطط للزواج منه وعدم تركه أبداً. ومودة التي كانت على يقين تام أنها لن تجد رجلا يفهمها ويتعامل معها كما كان يفعل شـــريف وهذا ما كانت تتمناه طوال حياتها. فما كان أمام عائنة إلا أن تلجأ إلي الفتنة.. فإستخدمت عائنة قدرتها في التشكل علي صورة إنس وتقمصت شكل وجسم هايدي بغاية التنكر وافتعلت تمثلية وأوقعت شريفا في الخية حتي تظن هايدي أنه يخونها مع فتاة أخرى وإســـتغلت قدرتها في أن تســـرق كل ما لم يكن بداخل شـئً مغلقً. بدأت أن تسرق بعض النقود من شقته ليضـــع ميار في قفص الأتهام، فأمامه هي الوحيدة التي تدخل وتخرج

وتتمكن من سرقتهم ولم تترك أي أثر وراءها ثم أخفت الساعة والسبحة لإلصاق التهمة الباطلة لمیار بالسرقة المقنعة.

إستعانتها بطرف ثالث وهو إسماعيل وإستغلت قدرتها على إثارة شهوة الرجل وشهوة الأنثى أقوى من قدرة الإنس انفسهم على ذلك، وكذلك استغلت ضعف الأنس بالإنسياق وراء شهواتهم، فإستحوذت على عقل إسماعيل وضمته إليها وإحتوته وجعلته يستدرج مودة إلى بيته ووقعت الفتاة بضعفها فريسة للفتنة. وفي كل مرة كانت تحاول الوقيعة بينه وبين نهى كانت تفشل كل محاولتها لإن هذه الفتاة هي الوحيدة التي أحبته من بصدق؛ فما كان بها إلا أن تسببت في مرضها الغامض الذي إحتار فيه الأطباء، فراحت في غيبوبة عن العالم وبات جسدها الرقيق يذبل ووجهها الجميل يشحب، ولم تفق من نومها إلا بعد موت شريف بلحظات.

لا شك أن الله قد أعطى الجن شيئا من القوة الخارقة. بالفعل إن الجن لهم من القدرات ما ليس لدى الإنسان بمراحل كبيرة، ولكن الإنسان اقوى من الجن والسبب هو العقل الذي ميز به الله الإنسان عن سائر المخلوقات. فبالرغم من قدرات عائنة إلا أن عقلها كان كعقل أطفال الإنس دون العشر سنوات ولكنها لم تستخدم عقلها في إيذاء شريف

بقدر إستغلالها لنقاط ضعف الإنس وإستخدامها لقدراتها مستغلة قوتها التى اكتسبتها؛ وتمكن في إنكار الناس لوجودها من الأساس ربما لأنهم بداخلهم لا يريدون أن يصدقوا هذه الحقيقة المخيفة لأن الأنسان لا يملك الثقة الكافية التي تجعله يظن انه بإمكانه ان ينتصر على الجن أبداً. وبالتالي لم تجد من يحاربها. وكيف لك ان تحارب عدوا لا تعترف بوجوده! ولهذا السبب اصرت عائنة أن لا تظهر حتي تبقى حقيقة وجودها لغزاً حائراً في عقول كل من سمع عنها ولا يفكر أحد ابداً في طريقة لمحاربتها. ولكن في الواقع، إذا نظرنا إلى الطين الذي خُلق منه شريف نجد إنه يختص بالصلابة اما النار التي خلقت منها عائنة، فلا؛ فالنار تكاد تكون شفافة ولطيفة ليست صلبة على الأطلاق.. رغم أنها تسمح بنفاذ الأجسام الصلبة كما تستطيع ايضاً الدخول داخل الجسم الصلب إذا كان مجوفا وتستطيع التحرك بسهولة وسرعة غير أنها تتشكل وهذه هي تماماً خصائص عائنة وشريف. كما ان النار طاقة سلبية فهي ذاتها طاقة سلبية. لذلك خلق الله السماء باللون الأزرق لتكون فوق الإنسان في كل مكان وجعل الإنسان يدرك لون البحر هكذا بالأزرق لأنه يساعد على سحب الطاقة السلبية وإستبدالها بأخرى إيجابية.

كان هناك رجل يمشـــي على البحر فوجد صـــندوقا خشـــبيا على الماء، فظن أنه كنز ثمين.. ففتح الصـندوق فإنطلق منه جان قد حبس فيه منذ مئات السنين. الجان بلا شك سيؤذي الإنسـان فهو يتفوق عليه بقدرات خارقة وحينها وقف الأنســـان عاجزاً لا يملك أن يفعل شـــيئا ســـوى أن يندهش وركبه تخبط فى بعضـــــها في رعب من هول ما حدث فقال الأنسان للجان:

- أنا مندهش كيف انك بهذه الضـــخامة وقد انحشـــرت في هذا الصندوق الصغير.
- ليس مستحيلاً ولكنها فقط قدرة تفوق عقلك أيها الأنس.
- هذا أمر لا يُعقل.. أنه قطعاً شئ مستحيل تصديقه.
- حســناً، أنظر بنفســك وســوف ترى بنفســك كيف أفعلها بكل سهولة.

ودخل الجان في الصـــندوق فما كان من الأنســـان إلا أن أغلقه بإحكام واعاد حبس الجان بداخله وألقى به في البحر. وهنا انتصـــــر ذكاء الإنسان وتغلب على قدرات الجن الخارقة مستخدماً عقله.

الجن هو ذلك العالم الخفى الذى خُلق قبل الإنســـان بألفي عام قبل أن

ينزل الله أبانا ادم ويستخلفوه في الأرض. وعلى طبيعة مختلفة عن البشر فهو يرانا ولكننا لا نراه. لا نعرف هل هم ضيوفنا أم نحن ضيوفهم. عالم قريب بعيد؛ يعيشون معنا على الأرض بأعداد أكثر منا؛ فهم يشكلون تسعة أضعاف البشر. يسمى العالم الآخر لكنه ليس بآخر غير عالمنا. صحيح أنه عالم غير مرئى، لكنه عالم موازى لعالمنا، بل إنه عالم لا ينفصل عن عالمنا؛ فكيف يكون عالما آخر وهو يشارك الأنسان في مسكنه ونومه.

وأما عن عشق عائنة لشريف.. من المفترض أن العشق هو الإفراط في الحب ولكن هل هذا يعنى أن الجن يمكن أن يحب الأنسان بأفراط. فالشيطان هو عدو الأنسان الأول، فكيف يكون عدوك الأبدي حبيباً لك يوماً! عائنة سميت بالجنية العاشقة لعبثها مع شريف اثناء نومه مثل العشاق على الفراش وحيث أنه يعتبر من أصعب حالات الإقتران فهي حالات مستعصية للغاية يصعب فيها إقناع الجن بالخروج وترك المعشوق، وذلك بسبب تشبث الجني بجسد الإنس كالعاشقين يصعب تفريقهما. عائنة تركت عالمها وإختارت شريفا بمقاييس قد لا نعرفها ولكنها بالتأكيد مختلفة عن مقاييس حب الإنس للإنس لتسكن بيته حيث تراقبة عن قرب. درسته جيداً لتعرف نقاط قوته وضعفه، لتتمكن من

اختراق دفاعاته. دخلت عالمه وهو من فتح لها الباب، تمكنت منه، لَبسته وأضعفته. حاول صدها بما فيه من قوة فعبثت به حتى وصل إلى مرحلة حيث لا يمكنه مقاومتها بعد. حاربته وأنتصرت عليه وأخذته فى لمح البصر إلى عالمها البعيد حيث تجتمع بأمثالها لتخبرهم أنها أسقطت شريف إبن ملامس. وبعدما نجحت فى تنفيذ مهمتها، ذهبت مرة اخره لعالمنا فتمرح بحرية فيه باحثةً عن مهمة آخِرة لتنفيذها وتستمر حربهم على الإنسان لقطع نسله من الأرض؛ فمن يكون الضحية القادمة؟.

(تمت)